



محمد توفيق

10 مليمات

دار دلتا للنشر والتوزيع

داخل العدد
لعبة الصحافة والسلطة في مصر

١٩٥٠ - ١٩٩٩ NUM 1 - 1950 - 1999

العدد الأول - الملك والكتابة

قصة الصحافة والسلطة في مصر

الملك والكتابة

١٩٥٠ - ١٩٩٩

رسالة خاصة

شركة الدلتا اليوم للصحافة والنشر والتوزيع والدعاية
دار دلتا للنشر



الطبعة الأولى
الكتاب: الملك والكتابة
المؤلف: محمد توفيق
تصنيف الكتاب: تاريخي سياسي
الغلاف: عبدالرحمن الصواف
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٣٢٩٣
الترقيم الدولي: ٥-٢٢-٥-٦٦٠٥-٩٧٧-٩٧٨

العنوان : ١شارع ابن مروان - امام مجلس الدولة الدقي
التليفون : 02/37483557
email : delta4books@gmail.com

محمد توفيق

الملك والكتابة!

قصة الصحافة والسُّلطة في مصر
(١٩٥٠- ١٩٩٩)

دار دلتا للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى حبِّي الأول، مَن تغار منها زوجتي.. صاحبة الجلالة.

.. وإلى كبيرنا «محمد العزبي» الذي حين كان رئيسًا لتحرير «إيجبشيان جازيت» كنتُ تلميذًا في أولى ابتدائي.

.. وإلى مدرسة «إبراهيم عيسى» التي تعلَّمتُ فيها.. إنْ كنتُ تعلمتُ شيئًا!

الفهرس

عذابها كان غرامًا!

حدث ذلك في أربعينيات القرن الماضي!

كان الكاتب الكبير «محمود السعدني» في زيارة لمنزل صديقه المبدع «زكريا الحجاوي»، وبصحبته رسام الكاريكاتير «طوغان».

وحين دخلا إلى البيت، وجدا شخصًا لم يرياه من قبل جالسًا في البيت، فسألا «الحجاوي»: «مش تعرّفنا على ضيفك؟».

فأجاب «الحجاوي»: «هذا الشخص سيحكم مصر في يوم من الأيام».

فضحك السعدني، وقال ساخرًا: «ده هيحكم مصر.. ده شكله مخبر»!

والتزم الضيف الذي كان خارجًا لتوه من السجن الصمت، ولم يُعلّق، وجلسوا يتسامرون، ويضحكون لساعات، وتعددت اللقاءات بين الأصدقاء الأربعة في بيت «الحجاوي»، وعلى مقهى «محمد عبد الله» في الجيزة. ودارت بينهم أحاديث كثيرة في السياسة، والثقافة، وكانت النُكت السياسية والسخرية من المَلِك والحكومة حاضرة في أغلب اللقاءات، وكل واحد من الأربعة يروي النُكت بطريقته، ويسخر من الأوضاع وفق توجهاته، وكان هناك اتفاق في الآراء على حاجة البلد إلى التغيير.

وقامت ثورة يوليو، واكتشف الجميع أن هذا الشخص الذي التقوه في منزل «الحجاوي» من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

ومرّت سنوات طويلة.

ورحل «جمال عبد الناصر»، وصار الشخص الذي كان يجلس معهم في المقهى سيادة الرئيس محمد أنور السادات!

وتحققت نبوءة «الحجاوي»، لكن ما لم يخطر بباله، هو ما سيحدث له، ولرفيقيه «السعدني» و«طوغان» بعد أن يصير رابعهم رئيسًا، فلم تكن المفاجأة من النوع الذي يمكن توقّعه!

فـ«زكريا الحجاوي»: قرر الرئيس السادات فصله من جريدة «الجمهورية»، فاضطر إلى أن يذهب إلى قطر، وظل يعمل هناك لمدة أربع سنوات حتى رحيله.

و«أحمد طوغان»: اضطر إلى أن يسافر إلى ليبيا، وعمل في جريدة «الفجر»؛ لكنه عاد.

أما «محمود السعدني»: فقد صدر قرار باعتقاله بتهمة محاولة قلب نظام الحكم!

بينما كانت التهمة الحقيقية هي أن «محمود السعدني» في أثناء جلوسه مع أحد أصدقائه، علق ساخرًا على اختيار السادات رئيسًا للجمهورية بقوله: «جالنا قبله واحد موّتنا من الخوف.. وده هيموّتنا من الضحك».

وقد جاءت هذه النُكت في التحقيق مُسجلة على شرائط؛ لكن لم يتم ذكرها في المحكمة!

ما جرى بين السعدني والسادات يرسم بوضوح صورة العلاقة بين الكاتب والرئيس في مصر، وربما في الوطن العربي، وربما في العالم أجمع.

فالرئيس يَعتبر الكاتب بمثابة «لوحة النيشان» المُعلقة على الحائط، وفي يديه عدد كبير من الأسهم يطلقها على الكاتب وقتما يشاء دون ضابط أو معيار واضح سوى قناعة الرئيس.

فالعلاقة بين الكاتب والرئيس -أو بين المَلِك والكتابة- بالغة التعقيد والغرابة!

الرئيس يريد تصفيقًا حادًا، وتهليلًا مبالغًا فيه، واتفاقًا على طول الخط، وشيكًا على بياض، وانصياعًا تامًّا، ودفاعًا مستميتًا، وطاعةً عمياء، وتقديرًا لكل أفكاره، وتبجيلًا لرؤيته، واندهاشًا من قدرته، وحديثًا دائمًا عن إنجازاته، واعتقادًا راسخًا بأنه لا يخطئ؛ لذا يبحث عمن يتفق معه، ويوافقه الرأي، ويُعجب بأفكاره، ويفتح فمه مندهشًا من عبقريته.

وبالتالي فالخلاف بين الكاتب والرئيس شبه محتَّم ما دام الكاتب حُرًّا، ومبدعًا، وخلاقًا، وصاحب موقف، ولديه رأي، ويملك رؤية.

لكن الأزمة تبدأ حين يتحول الاختلاف إلى خلاف حاد، ثم ينتقل إلى مرحلة الصدام الذي دائمًا ما يدفع الكاتب ثمنه وحده، فالرئيس عادةً لا يدفع الثمن، والدلائل كثيرة جدًا.

فحين قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان «إحسان عبد القدوس» يعد من أسباب قيام الثورة، وذلك بشهادة «جمال عبد الناصر» نفسه، وذلك بعد أن فجّر قضية الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين.

وكان «إحسان» الوحيد الذي ينادي «جمال عبد الناصر» بـ«جيمي»؛ لكن بعد أقل من عامين من قيام الثورة تم القبض على «إحسان» واعتقاله بتهمة محاولة قلب نظام الحكم، وذلك بسبب مقال كتبه في مجلة «روزاليوسف».

وحين قرر الرئيس السادات الإطاحة برجال عبد الناصر في ١٥ مايو ١٩٧١ فيما سماه الرئيس «ثورة التصحيح»، كان «محمد حسنين هيكل» مساندًا له.

لكن بعد ثلاث سنوات وصلا إلى مفترق الطرق، وتمت الإطاحة

بـ«هيكل» من «الأهرام»، وبعد سبع سنوات أصدر السادات قرارًا باعتقاله.

وكأن هذا هو قدر الكاتب الحق، والثمن الذي لا بد أن يدفعه ليبقى حُرًّا، وهذا هو قدر الصحفيين، وعذاب الصحافة؛ لكنّ عذابها كان غرامًا!

قصة الصحافة ليست قصة مهنة، وإنما قصة بلد بكل ما فيه، ومن فيه من مبدعين ومُدَّعين، ولصوص وشرفاء، وأثرياء ومُهمَّشين، وأبطال وخونة، ومشهورين ومغمورين، وزعماء وظرفاء، ومهرة وعجزة، وعلماء وجهلاء، وعبيد وأحرار، وكذابين وأتقياء، وانكسارات وانتصارات.

وقد اخترت أن أكتب قصة كل عام بصورة منفردة، ففي كل سنة هناك مئة ألف قصة، ولكل قصة ألف شاهد، ولكل شاهد مئة رواية، ولكل رواية عشرات المؤيدين، ولكل مؤيد حجته وأسانيده ودوافعه وأسبابه، ولكل سبب وجاهته؛ لكن حتى إذا عُرف السبب لن يبطل العجب!

فلا توجد حقيقة مُطلقة، ولا مُسلمات، ولا جواب نهائي، ولا حُكم باتّ، ولا انحياز مُطلق، ولا كلمة أخيرة، ولا فصل خطاب.

فكلما ظننتُ أنني أمسكتُ بالحقيقة المطلقة تذكرتُ أن بعض الظن إثم، وكلما أحسست بالإنجاز انتابني شعور بالعجز، وكلما تخيلتُ أنني قد وصلت إلى كلمة النهاية علمتُ أنها مجرد حلقة في البداية، وكلما ارتويتُ من المعرفة اكتشفتُ أن ما عرفته لا يصل إلى قطرة ماء في محيط، وكلما شعرتُ بالامتلاء الشديد أجدني أشعر بالخواء الشديد، وكلما اهتديتُ إلى اليقين وجدته مراوغًا، وكلما اقتربت من القول الفصل وجدته مجرد فصل في رواية بلا نهاية.

فإن كنتَ تبحث عن القول الفصل فلن تجده، وإن كنت تريد جوابًا نهائيًا فهذا ليس متوفرًا في هذا الكتاب.

الفصل الأول

«إن الحكومة هي رئيس التحرير الوحيد في صحافتنا».

إحسان عبد القدوس

١٩٥٠

قنابل تضرب أصحابها

(١)

في أحد الأيام ذهب «إحسان عبد القدوس» إلى مجلس الشيوخ، وجلس في القاعة يستمع إلى المحامي الكبير «مصطفى مرعي» عضو مجلس الشيوخ، وهو يتحدث عن استيراد الأسلحة، وذكر أن الأسلحة كلها خردة، وبدا واضحًا من حديثه أنه يتهم الملك «فاروق» بأنه مشترك في هذه العملية.

وبعد أن استمع «إحسان» إلى حديث «مصطفى مرعي»، خرج من الجلسة وهو يستشيط غضبًا، وراح يفكر فيما سمع من كل الجوانب، واستقر على أن يكتب مقالًا يؤيد فيه ما قاله عضو مجلس الشيوخ.

وفي السادس من يونيو نشر «إحسان» في مجلة «روزاليوسف» قضية الأسلحة الفاسدة، وجاءت عناوين المقال كالتالي:

- **مَن هو الضابط الذي يملك قصرًا في جزيرة كابري؟**
- **وزير الدفاع يوجِّه اتهامًا إلى جميع أسلحة الجيش**
- **الصحف المصرية تترافع عن المليونير المتهم**

كان استجواب «مصطفى مرعي» من أسباب استقالة رئيس ديوان المحاسبة، وذلك بعد أن أثبت «مرعي» أن الضباط والجنود لم تهزمهم

جرأة العدو وحنكته، إنما هزمتهم جرأة مورِّدي السلاح والذخيرة الذين تعاملت معهم وزارة الدفاع.

وذكر «إحسان عبد القدوس» في مقاله أنه سأل القائمقام أحمد عبد العزيز، قائد الكوماندوز في حرب فلسطين، عن اليوم الذي لا ينساه من أيام القتال، فأجاب والدموع في عينيه قائلًا: «لا أستطيع أن أنسى يوم كان الباشجاويش يقف بين رجاله يطلق مدفعه على مواقع العدو، فإذا بإحدى القنابل تنفجر إلى الوراء فتحطم المدفع، وتقتل الباشجاويش وجميع رجاله، فيخرون صرعى فوق حطام المدفع وابتسامة الاستشهاد تضيء وجوههم».

وبمجرد أن نشرت «روزاليوسف» المقال فوجئ «إحسان» بزميل من أيام الطفولة يُدعى «علي عبد الصمد» يحضر إليه في «روزاليوسف»، وروى له تفاصيل عمليات استيراد الأسلحة، وأخرج مجموعة من المستندات عن عمليات قام بها عدد من الضباط، والأمير عباس حليم، لاستيراد أسلحة قديمة من إسبانيا، وفرنسا، وبلاد أخرى.

وكشف «عبد الصمد» عن مفاجأة مدوية، وهي أنه كان واحدًا من مستوردي الأسلحة، وأن هدفه من نشر هذه المستندات هو التشهير بشركائه الذين أخذوا منه عمليات الاستيراد، ولم يمنحوه شيئًا من المكاسب الطائلة.

وابتسم «إحسان»، وأمسك بالمستندات، وبدأ ينشرها.

(٢)

ونشر «إحسان» المستند الأول، وفوجئ بحضور مجموعة من الضباط إليه، وأعطوه مجموعة من المستندات تثبت تورط حيدر باشا، وزير الحربية، في صفقات الأسلحة.

ونشر «إحسان» المستندات التي تدين وزير الحربية، وخرجت عناوين «روزاليوسف» تقول:

- **أطالب بالتحقيق مع الفريق محمد حيدر باشا**
- **أخطاء حيدر باشا**
- **كيف عُين حيدر باشا وزيرًا.. وكيف عُين قائدًا للجيش؟**
- **إن الجيش ملك الشعب.. وولاؤه يكون للدولة**
- **الضابط الصغير الذي لم يستطع حيدر أن يحاكمه**

وكتب «إحسان» يقول: «إن الذين يطالبون باستقالة الفريق حيدر يترفقون به أكثر مما يحقدون عليه، وأنا من المترفقين بحيدر باشا المشفقين عليه، ولكني رغم ذلك لا أطالبه بالاستقالة، وإنما بالتحقيق معه».

وأردف «إحسان» قائلًا: «إن سياسة المشرفين على الجيش هي سياسة التمادي في كل ما هو خطأ».

وطرح «إحسان عبد القدوس» سؤالًا مهمًا وهو: «هل كان الجيش المصري مستعدًا لدخول حرب فلسطين؟»، وكشف عن محضر رسمي يوضح حالة الجيش عند بدء الحرب، وأن الدبابات كانت في حالة يُرثى لها، وأن الجنود لم يتم تدريبهم قبل المعركة.

وفي الحلقة الثانية كتب «إحسان عبد القدوس» يقول: «حيدر باشا وهو وزير الحربية أخطر على الجيش من الأسلحة المغشوشة، لأن السلاح المغشوش قد يتغلب عليه القائد الصالح، أما القائد القاصر فقد ينهزم حتى لو لم يكن السلاح مغشوشًا».

واستعرض «إحسان» تاريخ «حيدر باشا» قائلًا: «لقد تخرج معاليه في الكلية الحربية عام ١٩٠٥، وعمل بالجيش عامًا واحدًا أمضاه في سلاح الخيالة للتدريب على ركوب الخيل، ثم نُقل إلى سواري بوليس مصر،

وظل ضابط بوليس حتى نال رتبة الأميرالاي ثم نُقل وكيلًا لمصلحة السجون ثم مديرًا لها فوكيل وزارة ثم وزيرًا للحربية».

وتساءل «إحسان» قائلًا: «أيُّ تجربةٍ في هذا العمل الطويل تبيح لحيدر باشا التدخل في وضع خطة حربية؟ هل كان معاليه يعتقد أن انتصار جيش على الأعداء لا يستلزم من الذكاء والعلم أكثر مما يستلزم انتصار البوليس على إحدى مظاهرات ثورة ١٩١٩؟ وهل يعتقد معاليه أن قيادة جيش لا تستلزم من الهمة والدراية أكثر مما تستلزمه قيادة مساجين في مصلحة السجون؟ إنني أضبط قلمي بصعوبة حتى لا يُجنّ معي، ويخرج عما يليق في مخاطبة القواد العظام أمثال حيدر باشا»!

وفي الحلقة الثالثة كان العنوان الرئيسي «طرائف حيدر باشا» وذكر فيه «إحسان» بعض الأخطاء الجسمية التي حدثت في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وكان وزير الحربية سببًا مباشرًا فيها.

(٣)

وفي الخامس من ديسمبر كتب «إحسان عبد القدوس» مقالًا جاء فيه:

- **أين ينتهي مصير تحقيقات الجيش؟**
- **أطالب بتقديمي للمحاكمة إذا ثبتت براءة المتهمين**
- **المستندات لا تزال في أدراج «روزاليوسف»**

ونجحت حملة «إحسان عبد القدوس» في مجلة «روزاليوسف»، واستقال حيدر باشا.

وكتب «إحسان عبد القدوس» في العدد التالي يقول: في صباح يوم الجمعة وفقًا لمواعيد الطباعة في «روزاليوسف»، وفي مساء يوم السبت قُبلت استقالة حيدر باشا، وكان يجب أن أُوقف هذا المقال؛

لأنني أعتبر هذه الاستقالة هي نهاية الحملة على حيدر باشا.. النهاية التي كتبها سعادته بيده، ولكن كان الطبع قد بدأ وربما لم يكن الذنب ذنبي، بل هو ذنب حيدر باشا الذي يجهل مواعيد الطباعة في «روزاليوسف»!

وبدأ النائب العام التحقيق في القضية، وتمت تنحية رئيس هيئة أركان الجيش، وإحالة ١٢ ضابطًا إلى المعاش، وتفتيش منازل رجال الحاشية.

وصدر قرار من النائب العام بمنع النشر في تلك القضية.

لكن في العام التالي حاول «إحسان عبد القدوس» التحايل على قرار النائب العام بمنع النشر!

١٩٥١

الله.. الملك.. الوطن!

(١)

في التاسع من يناير، عاود «إحسان» الحديث عن قضية الأسلحة الفاسدة، وحتى لا يقع تحت طائلة القانون نشر مقالاته تحت عنوان: «كيف أُثيرت تحقيقات الجيش أمام النيابة؟» لتبدو كأنها ذكريات حول القضية التي فجّرها على صفحات «روزاليوسف».

لكن حقيقة الأمر أنها لم تكن ذكريات بل كانت مزيدًا من المستندات، والوقائع، والمعلومات، لكن «إحسان» استخدم صيغة الماضي لتمر القضية دون التحقيق معه.

لكن في أعقاب قضية الأسلحة الفاسدة، كان إحسان عبد القدوس يجلس في أحد المطاعم الموجودة في وسط القاهرة، التي تقع أسفل عمارة «الإيموبيليا» -التي كان يسكن بها عدد كبير من كبار الفنانين- ونادى على الجرسون، وسدد ثمن الطعام والشراب.

وقام «إحسان» من مقامه، وبمجرد أن خرج من المطعم سمع صوت أقدام خلف ظهره، وقبل أن يستدير، استقبل طعنة سكين في رأسه من الخلف، وانزلقت السكين على فروة الرأس، وسقط «إحسان» على الأرض، وتم نقله إلى المستشفى، وبعد أن تعافى، وعاد إلى منزله،

حضر إليه الأمير «عباس حليم» حاملًا طبقًا كبيرًا من «المارون جليسه» وقال له: «المجرم الكبير حضر لتهنئة البطل الكبير»!

لم يفهم «إحسان» تلك العبارة، ومرت، ومرت معها أيام، وشهور، وسنون، وفجأة تذكرها حين أُعيد فتح التحقيق في قضية الأسلحة الفاسدة بعد الثورة، وبالتالي تمت إعادة التحقيق في محاولة اغتيال إحسان عبد القدوس، وتوصل رجال الشرطة إلى الجاني، واعترف أن مَن قام بتحريضه على القتل هو الأمير «عباس حليم» الذي كان يَعتبر «إحسان» السبب في حبسه في قضية الأسلحة الفاسدة أيام المَلِك!

وكشفت التحقيقات التي أُجريت بعد ثلاثة أعوام ثلاث مفاجآت:

الأولى، أن الضباط الأحرار هم الذين أعطوا المستندات لإحسان عبد القدوس.

الثانية، أن «صلاح سالم» عضو مجلس قيادة الثورة هو الذي سرَّب المستندات التي تدين «حيدر باشا».

الثالثة، أنه لم تكن هناك أسلحة فاسدة.

وتم حفظ التحقيق إلى الأبد.

(٢)

وفي شهر أغسطس ذهب الكاتب الكبير موسى صبري إلى مكتب «أخبار اليوم» بالإسكندرية في الصيف، ولفتت نظره وهو يراجع الأخبار المرسلة إلى القاهرة، أخبار مكتوبة بخط جميل، وبالحبر البنفسجي، وكلها أخبار جيدة عن الجامعة.

وحين سأل عن كاتب هذه «الأخبار» قدموا له شابًّا متخرجًا لتوِّه في كلية الحقوق جامعة الإسكندرية، وقدم هو إليه مجلة كان يُصدرها في

الجامعة، ويبهره أسلوبه الكاريكاتوري الساخر، وعندما عاد إلى القاهرة بعد رحلة الصيف، طلب من علي أمين استدعاء هذا الشاب اللامع إلى القاهرة ليعمل في مجلة «الجيل».

وكان هذا الشاب، هو «أحمد رجب» الذي أصبح -في ما بعد- ألمع كاتب ساخر في مصر!

وفي تلك الأثناء صدر قرار المَلِك «فاروق» بإقالة شيخ الأزهر «عبد المجيد سليم» من منصبه، وذلك لأنه قال للصحف: «تقتيرٌ هنا.. وإسرافٌ هناك».. وكان يقصد بتلك العبارة إسراف المَلِك «فاروق» في رحلاته إلى أوروبا.

(٣)

وفي يوم الأربعاء، الرابع عشر من نوفمبر جرت وقائع أول مظاهرة مليونية عرفتها مصر، وخرجت عناوين جريدة «الأهرام» تقول:

- **أكثر من مليون يشتركون في أكبر مظاهرة شهدتها البلاد**
- **الشعب كله برجاله ونسائه يصب لعنته على الإنجليز المعتدين الغاصبين**

وضمت المظاهرة كل فئات المجتمع -إن لم يكن المجتمع بأكمله- فالقاهرة يسكنها ثلاثة ملايين فقط، وتصدَّر المظاهرة رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا، بعد أن قرر في أكتوبر إلغاء معاهدة الصداقة «البريطانية-المصرية» المعروفة باسم معاهدة ١٩٣٦، وقال كلمته الشهيرة: «لقد وقَّعت معاهدة ١٩٣٦ من أجل خير مصر ثم ألغيتها من أجل خير مصر».

(٤)

وفي هذا التوقيت صدر العدد الرابع بعد الخمسين من مجلة «الجيش» وشعارها المدوَّن على كل عدد منها: «الله.. المَلِك.. الوطن» بهذا الترتيب!

وتضمن العدد عددًا من الموضوعات منها: «المؤهلات الشخصية للضباط، ولماذا خسرت ألمانيا الحرب؟» وغيرها.

لكن اللافت في هذا العدد أنه ذُكر فيه عدد من الضباط الذين لهم مؤلفات مهمة، ومنهم: اليوزباشي «ثروت عكاشة»، والملازم أول «أحمد حمروش».

لكن لم يكن أحد يعرف أنه في العام التالي سيكون هذان الضابطان من الضباط الأحرار!

١٩٥٢

اقْطع رأس الجريدة

(١)

في صباح يوم ٢٥ يناير وقعت مجزرة الإسماعيلية حين هاجم سبعة آلاف ضابط وجندي بريطاني ومعهم الدبابات والمدافع والسيارات المصفحة، قوات الشرطة المصرية التي لم يكن يزيد عددها على ٨٨٠ ضابطًا وجنديًا، لكن جنود الشرطة البواسل صمدوا حتى نفدت ذخيرتهم.

وفي صباح يوم ٢٧ يناير كان المانشيت الرئيسي لأغلب الصحف المصرية عبارة عن كلمتين فقط هما: **حريق القاهرة**

وجاءت التفاصيل تقول: «اندلعت بالأمس أعمال عنف وتخريب أدت إلى تدمير أكثر من ٧٠٠ من المحال التجارية، ودور السينما، والملاهي، والنوادي الأجنبية في تسع ساعات».

(٢)

وفي تلك الأثناء قررت دار «أخبار اليوم» إصدار صحيفة يومية، وتعددت الآراء بشأن تسمية الصحيفة الجديدة، فهناك فريق يرى أن يكون اسمها «آخر لحظة»، وفريق ثان يرى أن يكون اسمها «أخبار النيل»، وفريق ثالث يريدها «الأخبار» وفريق رابع يريدها «أخبار اليوم».

وعقد مجموعة من كبار الصحفيين اجتماعًا في منزل «محمد التابعي» للاستقرار على الاسم النهائي للجريدة؛ وحضر الاجتماع «توفيق دياب، ومحمد زكي عبد القادر، وجلال الدين الحمامصي، وعلي أمين، ومصطفى أمين».

وفي أثناء الاجتماع اقترح الحاضرون اسم «أخبار اليوم» كصحيفة يومية، ولكن اعترض البعض على هذا الاسم خوفًا على النجاح الكبير الذي حققته «أخبار اليوم» الأسبوعية، واختار البعض اسم «الأخبار» ولكن تم التراجع عن هذا الاسم؛ لأن ورثة «أمين الرافعي» كانوا يملكونه، واقترح فريق آخر اسم «الأخبار الجديدة»، وحاز الاسم رضا الجميع.

وفي يوم ٢٢ من رمضان الموافق الخامس عشر من شهر يونيو صدرت جريدة «الأخبار الجديدة».

وكانت عبارة عن ثماني صفحات من القَطع الكبير، وسعرها ١٠ مليمات، ليعد أقل ثمن لصحيفة يومية في ذلك التوقيت مما اضطر بقية الصحف إلى تخفيض أسعارها، وظل توزيعها قرابة ٣٠ ألف نسخة لمدة أربعة أعوام، بينما كان توزيع «أخبار اليوم» يقارب المئة ألف نسخة.

وتزينت الصفحة الأولى بأسماء رؤساء تحرير الجريدة وهم: «جلال الدين الحمامصي، وعلي أمين، وكامل الشناوي، ومحمد زكي عبد القادر، ومصطفى أمين»، علاوة على مدير تحرير الجريدة «محمد التابعي» الذي تم وضع اسمه قبل أسماء رؤساء التحرير تقديرًا لمكانته.

وخرج مانشيت الصفحة الأولى يقول:

- **حسين سري باشا يهاجم تعديل الدستور وقانون الانتخاب**
- **نص عريضة «الوفد إلى جلالة الملِك**

لكن كان أكثر عنوان جاذب للقراء يقول:

- المَلِك آل سعود يُرزق ولده الرابع والستين
- صاحب الجلالة في الخامسة والسبعين من عمره

وقد روَّجت الجريدة لنفسها بعمل مسابقة كبرى للقراء في صدر صفحتها الأولى تحت عنوان «ألف جنيه لك» ونص الخبر يقول: «بعد أن ينتهي القارئ من قراءة جريدته اليومية تصبح لا قيمة لها، ولكن إذا احتفظت بجريدة (الأخبار) قد تكسب ألف جنيه مصري! ولكن بشرط أن تحتفظ كل يوم بقطعة منها.. اقطع رأس جريدة (الأخبار) واكتب عليها اسمك وبعد أن يتجمع لديك خمسة وعشرون عددًا متتاليًا عليها التاريخ أرسلها داخل مظروف إلى اليانصيب بجريدة (الأخبار) بشارع الصحافة.. وسيربح صاحب النمرة الأولى ألف جنيه».

لكن بعد أربعة أشهر فقط أراد مصطفى وعلي أمين حذف كلمة «الجديدة» والاكتفاء بكلمة «الأخبار» فعرضا على ورثة «أمين الرافعي» شراء رخصة جريدة «الأخبار»، ووافقت الأسرة، وتم تعديل الاسم نهائيًا.

(٣)

وفي مساء يوم الثلاثاء ٢٢ يوليو، وقبل أن ينتصف ليل القاهرة قام البكباشي «يوسف صديق» ورجاله باقتحام مركز قيادة الجيش وسيطر على منطقة كوبري القبة، ثم تحركت بعض القوات وتمت السيطرة على الموقف في الثالثة صباحًا، وفي السابعة والنصف من صباح اليوم التالي أذاع «محمد أنور السادات» البيان الأول لثورة ٢٣ يوليو.

وخرجت جريدة «المصري» في اليوم التالي الرابع والعشرين من يوليو

بصورة كبيرة لمجلس قيادة الثورة وبجوارها صورة أخرى للواء «محمد نجيب» وبجواره «علي ماهر باشا»، وأعلى الصورتين وأسفلها عدد من العناوين تقول:

- **علي ماهر باشا يؤلف الوزارة الجديدة**
- **اللواء محمد نجيب يقود حركة عسكرية مفاجئة**
- **القائمون بالحركة يقبضون على الفريق حسين فريد بك ومن معه من كبار الضباط.**
- **مظاهرات عسكرية بالدبابات والطائرات في الشوارع والميادين.**
- **احتلال محطة الإذاعة ومكاتب ماركوني**
- **الجيش يطالب بعودة الحياة النيابية السلمية وتطهير البلاد تطهيرًا كاملا**
- **الجيش يقرر عدم التدخل في السياسة بعد تأليف الوزارة**

وفي نفس اليوم أمر «الإمام أحمد» حاكم اليمن بمصادرة جميع أجهزة الراديو في اليمن وذلك حتى لا يتأثر الشعب اليمني بأخبار ثورة يوليو.

وفي الرابع والعشرين من يوليو أصدرت جريدة «المصري» لسان حال حزب «الوفد» مانشيتًا بالبنط العريض يقول:

- **كيف دبَّر فاروق حرق القاهرة؟**

وأسفل هذا السؤال عدة عناوين منها:

- **خطاب خطير لمصطفى النحاس في ذكرى سعد:**
- **استجاب الله لدعاء الملايين فأطاح الجيش بالطاغية**
- **اضطررنا لمسايرة المَلِك السابق حتى لا يفسد خططنا لإخراج الإنجليز**

- حاولوا قتلي أكثر من عشرين مرة للتخلص من صلابتي وتمسكي بحقوق الشعب

(٤)

وذات يوم رن جرس الهاتف في مكتب «مصطفى أمين»، وكان المُتصل «جمال عبد الناصر».

وطلب من «مصطفى» أن يكتب قصة الثورة، وأملاه أسماء التسعة الذين يتألف منهم مجلس الثورة، وروى له تفاصيل الثورة وأسرارها.

وأخبره أن البكباشي «أنور السادات» سيجتمع به في منزله بمنيل الروضة ليراجع كل مقال قبل نشره.

وراجع «السادات» المقال الأول، وقرأه «مصطفى أمين» في التليفون لـ«جمال عبد الناصر»، ولم يُعدِّل سوى ثلاث كلمات.

وفي اليوم التالي نشرت «الأخبار» صورة «جمال عبد الناصر» وحده في الصفحة الأولى، ونشرت باقي أعضاء مجلس الثورة الثمانية وهم: «عبد الحكيم عامر، وكمال الدين حسين، وخالد محيي الدين، وجمال سالم، وصلاح سالم، وعبد اللطيف البغدادي، وحسن إبراهيم، وأنور السادات»، في صفحة داخلية مع بقية المقال.

وفي الحلقة الثانية نشر «مصطفى أمين» قصة ضم «زكريا محيي الدين وعبد المنعم أمين وحسين الشافعي ويوسف صديق» إلى عضوية مجلس الثورة، ثم قصة ضم اللواء «محمد نجيب» وانتخابه رئيسًا لمجلس إدارة الثورة بعد تنازل «جمال عبد الناصر».

وفجأة حدث ما لم يكن «مصطفى أمين» يتخيله!

اتصل به «جمال عبد الناصر»، وقال له: «صدر قرار بالتحقيق معك لأن مقالاتك سبَّبت فتنة في القوات المسلحة، وأن قائد الجناح جمال سالم في طريقه إليك لمباشرة التحقيق»، ثم أغلق «عبد الناصر» الخط.

وأُصيب «مصطفى أمين» بالذعر، فتهمة إثارة فتنة في الجيش كفيلة بأن تذهب به إلى للقاء عشماوي.

وحضر «جمال سالم» إلى «أخبار اليوم» وصعد إلى مكتب «مصطفى أمين» ثم طلب منه بنبرة حادة أن يُغلق الباب!

وأغلق «مصطفى» الباب، وضحك «سالم» ثم قال: «جمال عبد الناصر رتَّب هذه المسرحية ليهدِّئ من ثورة الضباط الغاضبين من عدم ذكر أسمائهم، وأمر بوقف نشر المقالات، ويطلب منك أن لا يعلم أحد أنه مصدر تلك المعلومات».

وتوقفت حلقات سلسلة «سر الضباط التسعة»، ولم يروِ «مصطفى أمين» كواليس ما جرى إلا بعد تسع سنوات من رحيل «جمال عبد الناصر».

(٥)

وبدأ مجلس قيادة الثورة عملية تطهير الجهاز الحكومي من العناصر غير الموالية للثورة.

وأعد إسماعيل القباني، وزير المعارف، كشوفًا بأسماء الموظفين المطلوب تطهير جهاز الحكومة منهم، وكان من بينهم الأديب الكبير

«توفيق الحكيم» مدير دار الكتب المصرية.

وعُرضت الأسماء على «جمال عبد الناصر»، ووقعت عينه على اسم «توفيق الحكيم» فغضب، ونظر إلى وزير المعارف قائلًا: «كيف تفصل الثورة توفيق الحكيم وهو الرجل الذي تأثرنا بكتابه عودة الروح؟! هذا أمر لا يليق.. ولا يمكن».

ثم أمسك «جمال» بالقلم، وشطب اسم «الحكيم».

(٦)

وفي الوقت الذي كان فيه الضباط الأحرار يقومون بتطهير المؤسسات الحكومية، طالب «محمد حسنين هيكل» رئيس تحرير مجلة «آخر ساعة» بتطهير الصحافة المصرية، وكتب مقالًا جاء فيه: «صاحبة الجلالة الصحافة وأفراد بلاطها السعيد يقومون هذه الأيام بدور غريب عجيب.. بعض أفراد هذا البلاط استباحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومي وجلسوا يوجِّهون الاتهام ذات اليمين وذات اليسار ويحددون مَن الذي تُعلَّق رقبته في حبل المشنقة ومَن الذي يُكتفى بوضعه وراء القضبان».

واستطرد «هيكل» قائلًا: «إنني أعتقد أننا نحن أفراد صاحبة الجلالة آخر مَن يحق لهم أن يستبيحوا لأنفسهم مقعد النائب العمومي موزِّع الاتهام، وآخر مَن يحق لهم أن يقلِّدوا كلاب الصيد ويبحثوا عن الفرائس، آخر مَن يحق لهم شيء من هذا لسبب واحد.. هو أننا في حاجة أيضًا إلى تطهير».

وأردف «هيكل» قائلًا: «من سوء الحظ أننا نملك قوة هائلة نحاسب بها الناس ولكن نمنع الناس أن يحاسبونا.. إنني أقولها بصراحة وأنا أعتقد

أنها ستجلب لي متاعب الدنيا والآخرة، إذ بلاط صاحبة الجلالة في حاجة إلى تطهير كبير.. إن الصحافة اليوم ليست ملك أصحاب الصحف، ولا ملك المحررين، إنها الصحافة اليوم مؤسسة عامّة تؤدي دورًا بالغ الخطورة.. إنها أشبه ما تكون بعجلة القيادة للرأي العام وينبغي أن تتوافر كل الضمانات لعجلة القيادة فلا يكون بها خلل ينحرف بالمركبة».

وفي العام التالي بدأت الحرب على الصحافة!

١٩٥٣

من فاطمة إلى عبد الناصر

(١)

في صباح يوم الأحد الثامن عشر من يناير أصدر الحاكم العسكري أمرًا بتعطيل بعض الصحف والمجلات منها: الفداء، والكاتب، والملايين، والنذير، والواجب، والمعارضة، والميدان.

وعلل صدور الحكم بتحقيق صالح الدولة، وأمنها، وضمان سلامتها، وحماية المصريين من مرّوجي الأخبار المغرضة المثيرة والباعثة على الفتنة وإثارة الاضطراب. ولم يتم الاكتفاء بمصادرة الصحف، لكن تم أيضًا اعتقال صاحب مجلة «الفداء»، وأحد المحررين بها، ورئيس تحرير مجلة «النذير»، وتم اتهام الثلاثة بإثارة الطوائف.

كانت هذه واحدة من أسوأ السنوات التي مرت على صاحبة الجلالة، فبجانب مصادرة عدد كبير من الصحف، هناك صحف ومجلات أخرى

صدر العدد الأخير منها؛ فقد توقفت مجلتا «الثقافة» و«الرسالة» بعد عشرين عامًا على تأسيسهما.

(٢)

قرارات مجلس قيادة الثورة بمصادرة بعض الصحف، والتضييق على البعض الآخر دفع السيدة فاطمة اليوسف صاحبة مجلة «روزاليوسف» إلى أن تكتب خطابًا في الحادي عشر من مايو إلى «جمال عبد الناصر» -الذي كان صديقا لابنها إحسان- تشكو إليه ما يجري للصحافة، وتنبهه إلى خطورة سيطرة الرأي الواحد قائلةً: «إنك بحاجة إلى الخلاف تمامًا كحاجتك إلى الاتحاد إن كل مجتمع سليم يقوم على هذين العنصرين معًا، ولا يستغني بأحدهما عن الآخر.. وأنت تؤمن بهذا كله لا شك في ذلك، وقد قرأتُ لك غير بعيد حديثًا تطالب فيه بالنقد وبالآراء الحرة النزيهة ولو خالفَتْك، ولكن أتعتقد أن الرأي يمكن أن يكون حرًا حقًا وعلى الفكر قيود؟».

وتابعت «فاطمة اليوسف» قولها: «لا تصدق ما يقال من أن الحرية شيء يباح في وقت ولا يباح في وقت آخر، فإنها الرئة الوحيدة التي يتنفس بها المجتمع ويعيش، والإنسان لا يتنفس في وقت دون آخر، إنه يتنفس حين يأكل، وحين ينام، وحين يحارب أيضًا».

ووصل الخطاب إلى «جمال عبد الناصر»، وقرأه، وقرر أن يرد عليه بخطاب آخر جاء فيه: «أنا بطبعي أكره كل قيد على الحرية، وأمقت بإحساسي كل حدٍّ على الفكر على أن تكون الحرية للبناء وليس للهدم، وعلى أن يكون الفكر خالصًا لوجه الوطن، وأنا لا أخشى من إطلاق الحريات وإنما أخشى أن تصبح الحرية تُباع وتُشترى كما كانت قبيل ٢٣ يوليو سلعًا تُباع وتُشترى.. ومع ذلك فأين الحرية التي قيّدناها؟».

وتابع «عبد الناصر» قوله: «أنتِ تعلمين أن النقد مباح، وأننا نطلب

التوجيه والإرشاد ونلحّ في الطلب، بل إننا نرحِّب بالهجوم حتى علينا إذا كان يُقصد منه صالح الوطن وبناء مستقبله، وليس الهدم والتخريب، ومجرد الإثارة.. ذلك لأنني أعتقد أنه ليس بيننا من هو فوق مستوى النقد أو من هو منزَّه عن الخطأ».

ونُشر خطاب «عبد الناصر» بتوقيعه على صفحات مجلة «روزاليوسف».

(٣)

ومرَّ شهر، وتعرض «جمال عبد الناصر» لوعكة صحية دخل على أثرها إلى مستشفى الدكتور «مظهر عاشور» بمنشية البكري، وخضع «جمال» لعملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية.

وذهب «أنور السادات» لزيارة «جمال» في المستشفى وفي أثناء جلوسهما في الغرفة فاجأ «ناصر»، «أنور» قائلًا: «إيه رأيك تكون المشرف على جورنال ثورة يوليو؟».

وقبل أن يجيب «السادات» عن السؤال أضاف «جمال»: «لازم الثورة يكون لها صحافتها».

لم يعقِّب «أنور السادات»، ثم طلب مهلة للتفكير؛ فإصدار جريدة يومية أمر شاقّ وعسير ويحتاج إلى استعداد وتجهيزات ومطابع وعمال مهرة وأسرة تحرير، وإدارة توزيع، وإعلانات -على حد السادات- ورغم أنه عمل لفترة من الوقت في «دار الهلال» فإنه كان قلقًا من الإشراف على جريدة جديدة باسم الثورة، وربما لم يكن متحمسًا لهذا التكليف، ربما كان يريد لنفسه دورًا مختلفًا!

وبعد يومين عاد «أنور» إلى «عبد الناصر» وأخبره أن المهمة مستحيلة، وتحتاج إلى وقت طويل، فرد «جمال» حاسمًا: «إذن كيف قمنا بالثورة وسط كل المصاعب التي كانت حولنا، إن الثورة لا بد أن تكون لها صحافتها، والجريدة لا بد أن تصدر قبل نهاية العام»، فقبل أنور السادات المهمة.

وفي ١٨ يوليو وجّه مدير المطبوعات خطابًا إلى هيئة التحرير يحمل الموافقة على إصدار الجريدة الجديدة، وبعد أسبوعين أستأجر شقتين بالطابق الخامس في العقار رقم ٣٦ بشارع شريف، وأخذ السادات يتردد على هذا المقر بصفة دائمة، ويجتمع مع مجموعة من الذين تم اختيارهم للعمل في الجريدة وكان على رأسهم الكاتب الصحفي «حسين فهمي» الذي تم ترشيحه ليكون أول رئيس تحرير للجريدة الجديدة، وقد بدأ التحضير لإصدار الجريدة في سبتمبر.

وبدأ البحث عن اسم للجريدة، وكان «عبد الناصر» يريد أن يسميها «التحرير»؛ لكن «فهمي» أقنعه أن يكون اسمها «الجمهورية» تيمُّنًا بتحول مصر من المَلَكية إلى الجمهورية -وذلك على حد تعبيره- وقد اختار يوم ٧ ديسمبر لأن رقم «٧» يحمل التفاؤل به على عادة العرب.

وعند الثانية بعد منتصف الليل، دارت ماكينات الطباعة ليتسلم «السادات» أول أعداد «الجمهورية»، وفي الصباح الباكر توجه إلى منزل «عبد الناصر» فوجده يتناول الإفطار فسلمه العدد الأول من الجريدة صباح يوم الاثنين ٧ ديسمبر، وكان عبارة عن ١٢ صفحة، والسعر ١٠ مليمات، وتصدرت الصفحة الأولى عدة عناوين منها:

- نص اتهام فؤاد سراج الدين
- صلاح سالم يحكي قصة المباحثات
- تقديم أشقاء زينب الوكيل إلى محكمة الثورة

وقد كتب «جمال عبد الناصر» مقالًا في الصفحة السادسة بعنوان «فلنصارِح ولا نجامل».

وفي نفس الصفحة كتب «أنور السادات» مقالًا بعنوان «الجمهورية» جاء فيه: «هذه الجمهورية تشق طريقها إليك بين الصحافة العربية، وتشق طريقها واضحًا لا تخبُّط فيه، ولا التواء، ولا مجاملة، ولا تحامل.. إنها جريدة حرة حرية الثورة التي تضيء طريقها بنار الحق، ونار الحق تحرق الأصنام وتحرق المفاسد، وهي جريدة قوية قوة الثورة».

لكن اللافت أن «السادات» نشر في الصفحة الخامسة مقالًا احتل الصفحة بأكملها تحت عنوان: «ذهب المَلِك.. تحيا الثورة»، ومعه عدة عناوين أخرى منها: «صفحات مجهولة من كتاب الثورة.. السياسيون يستعملون أسلحة جديدة لتضليل الشعب».

وسرد «السادات» تفاصيل قصته مع حسن البنا، ودور الإخوان في التمهيد لثورة يوليو، وصدرت تلك الحلقات في كتاب، كتب مقدمته «جمال عبد الناصر»!

وقد انضم إلى الجريدة في أعدادها الأولى عدد كبير من كبار الكتاب والمفكرين، من بينهم عميد الأدب العربي «طه حسين»، والدكتور «محمد مندور»، والدكتور «لويس عوض»، والدكتور «خالد محمد خالد»، وعميد المسرح العربي «زكي طليمات» وضمت أيضًا عددًا من الضباط الذين شاركوا في الثورة.

لكن اللافت أن الحملة الإعلانية لـ«الجمهورية» كان الأضخم في تاريخ الصحافة، فقد شاركت فيها الطائرات!

فقد تم إلقاء الإعلانات التي تحمل أسماء وصور الصحفيين والكتاب على الناس في الشوارع والميادين، وبالأخص ميدان التحرير.

المدهش أنه بعد شهور قليلة من صدور الجريدة فكر «عبد الناصر» في إغلاقها، لكن «حسين فهمي» رئيس تحريرها أقنعه باستمرارها.

(٤)

في خضم تلك الأحداث حضر «إحسان عبد القدوس» اجتماع رؤساء التحرير العالميين في مدينة «كان» بفرنسا.

وهناك التقى سكرتير المَلِك فاروق، وأبدى «إحسان» استياءه من هجوم المَلِك فاروق على الثورة في الصحف الأجنبية، وقال له: «المَلِك سيظل طوال عمره يدفع نفسه للهلاك.. هو بيهاجم الثورة ليه؟ الثورة عاملته أحسن معاملة وتركته يخرج في أمان وتركت له ثروته.. انصحه أن يصمت».

فرد عليه سكرتير المَلِك: أنا لا أستطيع أن أنصحه.

فقال «إحسان»: أنا مستعد أن أتحدث إليه.

فرد السكرتير: اتفقنا سأحدد لك موعدًا عاجلًا.

وبالفعل تم تحديد الموعد في الساعة ١١ ظهر اليوم التالي.

وحين عاد «إحسان» إلى الفندق قصَّ على زوجته ما جرى، فثارت عليه، وغضبت، وقالت له: «لا تقابل فاروق.. كيف تقابله؟ هو يعتبرك أنت الذي قمت بالثورة».

فرد إحسان عليها قائلًا: «إنها خبطة صحفية.. سأذهب لعمل حديث مع المَلِك فاروق.. أول حديث صحفي مع المَلِك لصحيفة مصرية بعد الثورة».

لكن زوجته أبت وظلت على رأيها، وتوسلت له أن لا يفعل، وبكت

بين يديه، وبدأ «إحسان» يراجع نفسه، ويفيق من الشهوة الصحفية، وقرر أن يطاوعها.

وفي صباح اليوم التالي أرسل ورقة صغيرة لسكرتير المَلِك فاروق، لم يكتب فيها سوى أربع كلمات: «آسف اضطررت إلى السفر فجأة».

ونسي «إحسان عبد القدوس» الواقعة.

ومر عام، وترك السكرتير عمله لدى المَلِك بعد خلاف كبير بينهما، وقرر سكرتير المَلِك أن ينشر مذكراته، ونشرها، وقرأها «إحسان» ووجد فيها ما لم يخطر بباله مطلقًا، فقد جاء فيها: «أن المَلِك فاروق خطط لقتل إحسان عبد القدوس، عن طريق حرسه الخاص».

وكانت الخطة أن يوافق المَلِك على أن يذهب إليه «إحسان» في بيته، وبمجرد أن يضع قدمه في المنزل يقتله الحرس بحجة أنه قد حضر لقتل المَلِك!

لكن ما جرى لإحسان في العام التالي لم يخطر له على بال!

١٩٥٤

الجمعية السِّرية التي تحكم مصر

(١)

في صباح يوم ٢٨ أبريل استيقظ الناس على خبر صادم يقول: صدر قرار باعتقال «إحسان عبد القدوس» بتهمة قلب نظام الحكم!

وفي ٣١ يوليو فوجئ إحسان عبد القدوس بحارس السجن يفتح زنزانته رقم ١٩ بالسجن الحربي، وهو متهلل الوجه على غير عادته، ويقول له: «مبروك يا بيه.. سيادة المدير عاوزك في مكتبه.. حتوحشنا والله»!

وفي مكتب قائد السجن الحربي «اللواء حمزة البسيوني» عرف أنه صدر قرار بالإفراج عنه، ولم يعلم سبب الإفراج مثلما لم يعرف سبب الاعتقال.

وخرج من بوابة السجن في صحبة أسرته، ونجله «متشعبط» في رقبته، وبمجرد أن وصل إلى بيته، ووسط الفرحة الغامرة، فجأة دق جرس التليفون فسكت الجميع.. «جمال عبد الناصر» على الخط!

لم يصدق «إحسان» نفسه، لم يتصور أن يكون «جمال عبد الناصر» هو أول المهنِّئين بخروجه من السجن.

وأمسك «إحسان» بسماعة الهاتف، قائلًا: أهلًا يا ريس (وكانت تلك المرة الأولى التي يقول فيها «إحسان عبد القدوس» لجمال عبد الناصر يا ريس، فقد اعتاد أن يناديه يا «جيمي»!).

وجاءه صوت «عبد الناصر» ضاحكًا يقول: «هيه.. اتربِّيت ولّا لسه يا إحسان؟»، ولم يُجب «إحسان»، فواصل «عبد الناصر» حديثه، وهو ما زال يضحك قائلًا: «تعالى افطر معايا بكرة في البيت.. أنا منتظرك ماتتأخرش!».

وفي صباح اليوم التالي ذهب «إحسان» إلى منزل «عبد الناصر» في منشية البكري، وجلسا معًا على مائدة الإفطار، واحتسيا الشاي، والصمت يسود الاثنين، وفجأة قطع «جمال» جدار الصمت قائلًا: «السجن خير مربٍّ وأعظم معلِّم، لكن أعدك أن أزيل كل الآثار التي سبَّبها لك السجن».

ولم يُعقِّب «إحسان»، وضحك «عبد الناصر»، وغيَّر الموضوع، وقبل أن ينتهي اللقاء دعا «عبد الناصر»، «إحسان» لزيارته مرة أخرى لتناول العشاء معه.

وتكررت الدعوات، وكان أغلبها لتناول العشاء، ومشاهدة فيلم سينمائي في حجرة أعدَّها «جمال» لذلك، واستمرت دعوات «عبد الناصر» لـ«إحسان» عدة أشهر، وفي أحد هذه اللقاءات قال «عبد الناصر» مخاطبًا «إحسان»: «أعتقد يا إحسان أنني قد عالجتك نفسيًّا من صدمة السجن».

(٢)

ربما عالج «عبد الناصر» نفسية صديقه القديم «إحسان» لكنه لم يقل له سبب دخوله السجن؛ لكنّ هناك سببًا بدا واضحًا أنه مهَّد الطريق إلى السجن الحربي.

ففي ٢٢ مارس كتب «إحسان عبد القدوس» مقالًا بعنوان «الجمعية السِّرية التي تحكم مصر» وجاء فيه: «مَن يحكم مصر منذ قيام حركة الجيش؟ إنه مجلس الثورة.. ماذا تعلم أنت عن مجلس الثورة وما يدور فيه.. وماذا يعلم عنه أي مصري سواء كان مقربًا من أعضاء المجلس أو مُبعدًا عنهم؟ لا شيء.. لا شيء البتة»!

وتابع «إحسان» قوله: «إنها جمعية سرية، لا تزال كما كانت قبل الحركة تعمل تحت الأرض ويجتمع أعضاؤها بالنهار والليل.. لا يعلم أحد عمَّ يتحدثون وماذا يقررون؟! فأعضاء مجلس الثورة لم يستطيعوا -دون قصد منهم- أن يفرِّقوا بين وضعهم قبل الحركة ووضعهم بعد الحركة، ولم يستطيعوا أن يفرِّقوا بين واجبهم كجماعة تعمل لقلب نظام الحكم، وجماعة تعمل لاستتباب نظام الحكم، ولم يستطيعوا أن يفرِّقوا بين الأيام التي عاشوا فيها يخافون القانون والبوليس والمخابرات، والأيام التي جمعت في أيديهم القانون والبوليس والمخابرات.. كانوا قد تعوَّدوا العمل كجمعية سرية، وارتاحوا إلى هذه الطريقة في العمل ونجحوا فيها، فلم يحاولوا تبديلها، أو تعديلها».

واستطرد «إحسان» قائلًا: «إذا طالبت بإنهاء الثورة فلستُ مبالغًا، ولا متطرفًا، إنما هو الوضع الطبيعي، فليس هناك بلد يستطيع أن يعيش في نظام ثوري إلى الأبد، ولا حتى عامًا أو عامين، إنما الثورة تقوم لتقضي على نظام فاسد، وتضع آخر بدلًا عنه فورًا، نظامًا آخر طبيعيًّا تستقر عليه البلاد ويحقق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة، أما أن نقف جامدين في انتظار مفاجأة، وفوق شفاهنا كلمات السخط والنقد والتردد وعدم الثقة، فلن يؤدي بنا ذلك إلى شيء إلا أن نفسح المجال لطاغية، والعبيد هم الذين يخلقون الطغاة».

(٣)

في تلك الأثناء طلب الأثري والأديب «كمال الملاخ» من مصلحة الآثار أن يعيد البريق إلى الهرم الأكبر بتنظيف الطريق المؤدي إليه من الرمال المترامية فوقه، فتمت الموافقة، وبدأ العمل، وفي أثناء عملية التنظيف جاءه كبير العمال ليقول له: لقد عثرنا على «دبش»!

شعر «الملاخ» بأن هناك شيئًا ما خلف هذا «الدبش»، فبدأ النبش خلفه، وقام بحفر ١٨٠ مترًا وراء هذا الحجر الكبير فاكتشف سورًا يبلغ طوله نحو ١٥٠ مترًا، ثم عثر على أحجار جيرية تحت السور، ثم بدأ يطرق أبواب الأحجار، فشاهد شيئًا أسود لم يحدده، لكن بعد أن تفحصه، انتفض صائحًا فيمن حوله: «مركب.. دي مراكب الشمس بتاعة المَلِك خوفو يا جماعة»!

لم يُصدق «الملاخ» نفسه من الفرحة بعد اكتشافه لواحد من أكبر الاكتشافات الأثرية في القرن، فخرج معلنًا عن الاكتشاف الكبير الذي احتفى به كل علماء الدنيا، ونقلته وكالات الأنباء، وعُرفت مراكب المَلِك خوفو باسم «مراكب الشمس».

لكن حين عاد «الملاخ» إلى مقر عمله في مصلحة الآثار وجد ورقة مُعلقة باسمه في كشف «الخصومات»، فقد عوقب بخصم عشرة أيام من راتبه لأنه أعلن عن الكشف دون إذن!، فقرر «كمال الملاخ» أن يتجه إلى الكتابة في الصحف والمجلات.

(٤)

ولمعت مجلة «الجيل الجديد».

كانت مجلة أسبوعية تصدر عن «أخبار اليوم»؛ لكنها مختلفة المذاق، وأغلقتها تسبق عصرها بسنوات طويلة، ويرأس تحريرها الكاتب الصحفي «موسى صبري».

وانضم إلى المجلة عدد كبير من كبار الكتاب، من بينهم: جلال الدين الحمامصي، وأحمد لطفي السيد، وأنيس منصور، ومحمد عفيفي، وأحمد رجب، الذي كان يحرر صفحة الحوداث!

وقد كتب الأستاذ «جلال الحمامصي» مقالًا جاء فيه: «إن الإحصائيات العالمية كلها تُجمع على أن الصحف المسائية أوسع انتشارًا من الصحف الصباحية، ومثال لذلك الإحصائية الأمريكية الأخيرة التي تقول إن عدد الصحف المسائية بلغ ١٤٥٨ صحيفة توزِّع ما يزيد على ٣٣ مليون نسخة يوميًّا، بينما يبلغ عدد الصحف الصباحية ٣٢٧ صحيفة -أي أن الصحف المسائية تبلغ أربعة أمثال الصحف الصباحية- ويبلغ ما توزعه ٢٢ مليون نسخة».

وأردف «الحمامصي» قائلًا: «أما في مصر فالصحف المسائية قد ماتت واحدة بعد الأخرى، ومرت فترة ليست بالقصيرة لم تكن في مصر صحيفة مسائية واحدة».

(٥)

وفي السادس والعشرين من أكتوبر تم إطلاق الرصاص على «جمال عبد الناصر» في حادثة المنشية بالإسكندرية.

وحينها استدعى «علي أمين» رئيس تحرير «أخبار اليوم» آنذاك، الصحفي الشاب «فتحي غانم»، وقال له: «ألست قصَّاصًا؟ نريدك أن تذهب إلى بيت المتهم بالاعتداء على عبد الناصر في حي بولاق، وتكتب لنا صورة قلمية لما تراه».

وراح غانم ووصف ما شاهده ببساطة ووضوح وواقعية: «سُلّم في بيت قديم متآكل، حجرة بها سرير فوقه مفرش كاروهات، مشنة عيش، ترابيزة خشب متواضعة، امرأة صغيرة السن تحمل طفلًا رضيعًا، في عيونها ذهول وخوف شديدان، ومن حولها أعداد ضخمة من رجال الأمن».

وجاء التعليق على هذه القصة الخبرية من الرئيس «عبد الناصر»، فقد قال: «ما كتبه ذلك الصحفي قد أثار التعاطف المبالغ فيه مع المتهم»!

(٦)

وصدر قرار من مجلس قيادة الثورة بحل مجلس نقابة الصحفيين، ثم بدأت الثورة تُصدر صُحفها!

فأصدرت منظمات الشباب العدد الأول من مجلة «الثورة» وهي مجلة أسبوعية، شعارها «لا شرقية ولا غربية»، ولم تستمر سوى عامين.

وبدأت مجلة «التحرير» تصدر أسبوعيًا كل يوم ثلاثاء، ومديرها العام «محمد أنور السادات» -وقد توقفت بعد ست سنوات فقط- وظهرت أيضًا مجلة «الرسالة الجديدة» برئاسة تحرير «يوسف السباعي».

في هذه الأثناء جاء أحد العاملين بالإعلانات في «أخبار اليوم»، وقال لـ«أحمد رجب»: «عندي قصة حلوة ينفع تنشرها» وأخرج له صورة أحد أقاربه، وقال له: «هذا الرجل يعمل مقرئًا، وهناك سيدة سورية تحبه وتطارده».

وأعجبت القصة «أحمد رجب»، ونشرها، وأطلق على المقرئ الشاب لقب «الشيخ براندوا» ونشر صورته، حيث كان يشبه الممثل العالمي «مالون براندوا»، واشتهر المقرئ وارتفع أجره من ٣٠ جنيهًا إلى ٣٠٠ جنيه، وصار واحدًا من علامات قراءة القرآن في مصر، إنه الشيخ «عبد الباسط عبد الصمد»!

وتدخل «جمال عبد الناصر» لوقف الحلقات حرصًا على الشيخ الجليل.

١٩٥٥

اخْرج أيها الوزير الصغير

(١)

صدر حديثًا ديوان اسمه «كلمة سلام» لشاب عمره ٢٥ عامًا، لا أحد يعرفه.

لكن حين قرأ الأديب «فتحي غانم» القصائد شعر أنه أمام شاعر كبير، فقرر أن يكتب عنه مقالًا في مجلة «آخر ساعة» بعنوان «شاعر عمره خمسة آلاف سنة» جاء فيه: «احتفل شاعر مصري كبير بعيد ميلاده الخامس والعشرين منذ ثلاثة أيام، هذا الشاعر صغير السن ما زال مجهولًا، ولم يقرأ له أحد بيتًا من الشعر، لكنه نشر أشعارًا أخيرًا منذ أيام ليقرأها المصريون والشرقيون ولتُترجَم إلى العالم أجمع، اسمه «صلاح جاهين»..

اذكروا هذا الاسم جيدًا وارقبوه فأنتم وحدكم القادرون على أن ترفعوه إلى أعلى قمم الفن، وأنتم القادرون على أن تُهيلوا عليه تراب النسيان».

وتابع «غانم» قوله: «إن أشعاره باللغة العامية التي يتكلم بها المثقفون من أبناء الشعب، فهي ارتقاء باللغة العامية، أما موضوعاته فهي أحداث مصر في الفترة الأخيرة -ما قبل الثورة- كانت تسجيلًا فنيًّا للاستعمار في مصر، والجنود الإنجليز في أرضنا، ومعركة القنال، ومأساة فلسطين،

واللاجئين المشردين في الصحراء، والإقطاع، والفلاحين، والصيادين، والعمال.. إنك تحس وأنت تقرأ هذه الأشعار أن جاهين الذي وُلد منذ ربع قرن، عمره الحقيقي كمصري آلاف السنين».

لكن المدهش أنه عقب نشر المقال، فوجئ «غانم» برسالة من الرئيس «عبد الناصر»!

وقد حمل الرسالة الأستاذ «محمد حسنين هيكل» الذي قال لـ«غانم»: «الرئيس بيقولك أنت بتكتب عن الشيوعيين ليه؟».

فتعجب «غانم» مما قاله «هيكل»، وقال له: «تقصد مين؟!».

فأجاب «هيكل»: «صلاح جاهين، كلمة سلام».

فضحك «غانم»، وهز كتفه مندهشًا، ثم قال له: «أنا مقتنع بما أكتبه»، ثم تركه وانصرف.

(٢)

ولم يكتفِ «عبد الناصر» بقراءة الصحف، بل كان يكتب فيها أيضًا؛ فقد كتب مقالًا في جريدة «الأهرام» بعنوان: «روح الثورة»، جاء فيه: «روح الثورة هو المعنى الذي قامت الثورة من أجله، وعملت على تأكيده ليستقر في النفوس، ويصبح الدستور الذي لا دستور بعده.. وروح الثورة المصرية تتمثل في خلق وعي مصري جديد، يؤمن بالاشتراكية الديموقراطية أسلوبًا ومعنى، لتسود العدالة الاجتماعية، وتقوم عُمُد الوطن على أساس سليم فلا حرب تشبّ بين الطبقات، ولا تُثري جماعة على حساب أخرى، ولا تتحكم أقلية في أكثرية.. وإننا ندعو اليوم إلى إيجاد ديموقراطية سليمة نظيفة متماشين مع طبائعنا، وروح العصر، ومنطق الثورة».

ولم يكن «عبد الناصر» مهتمًا بالصحف فقط، بل كان مُهتمًا بالسينما أيضًا.

فقد ذهب بنفسه في هذا العام لحضور حفل افتتاح فيلم «إسماعيل ياسين في الجيش»، وكان يحرص على مشاهدة أفلامه كل يوم جمعة.

اهتمام «جمال عبد الناصر» بالصحافة والسينما يعكس وجود حالة عامة في مصر تحتفي بالفن والأدب، وتحب المثقفين حتى وإن اختلفنا في توظيف تلك المحبة!

(٣)

لكن لم تَسِر الأحوال على وتيرة واحدة، ففي تلك الأثناء حدث خلاف شديد بين «جمال عبد الناصر»، والصاغ «صلاح سالم» وزير الإرشاد. وكانت غالبية مجلس قيادة الثورة تقف ضد «صلاح سالم».

وفجأة دق جرس التليفون في مكتب «مصطفى أمين»، وكان المتحدث «جمال عبد الناصر».

كان صوت «جمال» به نبرة غضب؛ لكن سرعان ما اكتشف «مصطفى أمين» أن هذا الغضب ليس منه، وإنما من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة.

فقد قال له «عبد الناصر»: فاكر مقالك «اخرج أيها الوزير الصغير».

فأجاب «مصطفى»: نعم.

فقال «عبد الناصر»: نفسي تكتب مقال عن «صلاح سالم» بنفس العنوان.

ولهذا المقال قصة..

فقد كتبه «مصطفى أمين» قبل الثورة، وسخر فيه من تعيين الدكتور «محمد هاشم» الذي كان زوج ابنة رئيس الوزراء، فعلّق «أمين» بمقال

جاء فيه: «من نكد الدنيا أن صاحب المعالي الأستاذ محمد هاشم أصبح وزيرًا في هذا البلد، لا لأنه كفاءة ممتازة، ولا لأنه نائب بارز، ولا لأنه قطب من أقطاب الأحزاب، ولكن لأنه زوج بنت رئيس الوزراء».

وتابع «مصطفى أمين» قوله: «بِاسم مَن تحكم أيها الوزير الصغير؟! إنك لا تمثل أحدًا في هذا البلد، لا هيئة، ولا حزبًا، ولا فكرة، ولا رأيًا عامًّا، ما أنت إلا صِهر رئيس الوزراء».

لكن المدهش أن هذا المقال مرّ على الرقيب، وسمح بنشره؛ لكن المفاجأة أن هذا الرقيب كان الدكتور «محمد هاشم» الذي يسخر منه المقال. لكن «هاشم» لم يخرج من الوزارة؛ بل تمت ترقيته من وزير دولة ليصبح وزيرًا للداخلية.

تذكّر «مصطفى أمين» كل ما جرى حين هاتفه «عبد الناصر»، وربما تعلم من الدرس السابق أنه لا شيء يتغير؛ فلم يكتب المقال، وربما كان ذلك من حُسن حظه!

١٩٥٦

سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل

(١)

التقى «جمال عبد الناصر» مع «صلاح سالم»، وتصالحا.

وكان عربون ذلك الصلح أن وافق «عبد الناصر» على أن يُصدر جريدة يومية يكون «صلاح» مسؤولا عنها، وأطلق عليها جريدة «الشعب».

وفي العاشر من يونيو أمر «جمال عبد الناصر» بحذف جميع المواد التي تحمي رئيس الجمهورية من نقد الصحافة من قانون المطبوعات.

وبعد ثلاثة عشر يومًا تم الاستفتاء الشعبي على الدستور، وانتخاب «جمال عبد الناصر» رئيسًا للجمهورية.

وفي اليوم التالي خرجت عناوين جريدة «الأخبار» تقول:

- **آخر نتائج الاستفتاء على الدستور**
- **ستة ملايين ونصف قالوا «نعم» و٦٥ شخصًا قالوا «لا»**
- **٩ , ٩٩٪ انتخبوا «جمال عبد الناصر» رئيسًا للجمهورية**

وفي السادس والعشرين من يوليو أعلن «جمال عبد الناصر» تأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية لتصبح شركة مساهمة مصرية.

وفي نفس اليوم احتجّت بريطانيا وفرنسا على قرار التأميم، وبعد شهر واحد، أعلنت بريطانيا تجميد أرصدة مصر لديها، وكذلك فعلت فرنسا وأمريكا.

ووقع العدوان الثلاثي على مصر، وصارت مانشيتات الصحف تتقدم صفوف المعركة، وصارت مقالات الصحفيين وقودًا لتلك الحرب.

وكان من بين تلك الصحف جريدة «الشعب» التي كانت واحدة من أكثر الصحف اهتمامًا بذلك الحدث، ففي الثلاثين من أكتوبر كان مانشيت الجريدة يقول:

- **إسرائيل تتحرك وتهاجم الحدود المصرية**

وفي الثاني من نوفمبر كان العنوان الرئيسي يقول:

- **سنقاتل.. سنقاتل.. سنقاتل**
- **قطع جميع العلاقات مع فرنسا وبريطانيا**
- **ترحيل السفير البريطاني فورًا**
- **إسقاط ١٨ طائرة للعدو**
- **١٠ غارات على القاهرة أمس**
- **إعلان حالة الطوارئ**
- **اعتقال ٥٠٠ خبير بريطاني**
- **تعطيل الملاحة**

وفي الصفحة الرابعة من نفس العدد خبر يقول: «الصاغ صلاح سالم رئيس تحرير جريدة الشعب ينضمّ إلى جيش التحرير».

ورأى «صلاح سالم» أحد قيادات ثورة يوليو، أنه ينبغي على مصر أن تستسلم تجنبًا للخراب، وأن يقوم أعضاء مجلس قيادة الثورة بتسليم أنفسهم للقوات البريطانية.

فقرر «عبد الناصر» عزل «صلاح سالم» من منصبه كرئيس لتحرير جريدة «الشعب» التي كانت قد تأسست قبل أشهر قليلة من تلك

الواقعة، وعيَّن بدلًا منه «أحمد لطفي واكد» أحد الضباط الأحرار.

لكن بعد شهور قليلة صدر قرار بعزل «أحمد لطفي» من منصبه، وجاء من بعده «أحمد بهاء الدين».

ولم تستمر التجربة طويلًا فقد تقرر دمج صحيفتي «الشعب» و«الجمهورية» وصار اسم الصحيفة الجديدة «الجمهورية جريدة الشعب».

لكن قبل سبعة أيام فقط من نهاية العام انسحبت القوات الفرنسية والبريطانية من مدن القناة بفضل صمود أهالي بورسعيد.

وفي الحادي والثلاثين من ديسمبر خرجت جريدة «الشعب» مبتهجة بالنصر، وجاءت عناوينها كالتالي:

- **الرئيس يقول: انتصرت القومية العربية.**
- **الخطة الكاملة للعدوان**
- **أول تقرير عسكري بريطاني عنها**
- **فرنسا تُزوِّر الأوراق المالية المصرية**

(٢)

لكن في بداية العام، كان هناك حدث آخر، جمع أغلب أساطين المهنة.

ففي الثاني عشر من يناير صدر العدد الأول من مجلة «صباح الخير»، وتم اختيار «أحمد بهاء الدين» ليكون رئيسًا لتحريرها.

حينها لم يكن «بهاء» قد تجاوز التاسعة والعشرين من عمره؛ لكنه استطاع أن يحقق قفزة كبيرة في تطور الصحافة المصرية، ويجعل من مطبوعة حديثة بمثابة نغمة مغايرة لما هو سائد، وروح جديدة، وصيغة مبتكرة لم يعهدها القارئ من قبل.

فجذبت «صباح الخير» شريحة جديدة من القراء، وجذبت أيضًا جيلًا جديدًا من الكتاب الذين صاروا نجومًا فيها بعد.

فقد جمع «بهاء» في هذه التجربة «صلاح عبد الصبور، وكامل زهيري، ورجاء النقاش، ومصطفى محمود، وفتحي غانم، ومحمود المراغي»، والرسامين «جمال كمال، وحسن فؤاد، وصلاح جاهين، وجورج بهجوري، وحجازي، وهبة عنايت، وإيهاب شاكر، وأبو العينين، ويوسف فرنسيس»، وغيرهم من كبار المبدعين.

وعن سر تسمية مجلة «صباح الخير» بهذا الاسم كتبت «فاطمة اليوسف» في افتتاحية العدد الأول تقول: «صباح الخير.. إنه اسم أتفاءل به.. لقد خُلقت بطبيعتي أحب الصباح، وأكره الغروب، مهما كانت الظروف، أشعر دائمًا مع كل صباح أنني قوية مبتهجة مشرقة، وأشعر دائمًا مع كل غروب بوحشة، كسل وشحوب، بل انقباض».

وتابعت قولها: «الصباح رمز الأمل والغروب فيه معنى الخيبة والفشل.. (صباح الخير) تحية فيها إشراق الصبح وفيها أمنيته الخير، وهي تحية لقاء اعتدت أن أوجهها كل صباح إلى أولادي وإلى العاملين معي، فأحببت أن أوجهها إلى القراء أجمعين».

وكتب «إحسان عبد القدوس» -بصفته مدير عام الدار- في العدد نفسه قائلًا: «منذ خمس سنوات ونحن نستعد لإصدار مجلة أسبوعية باسم (صباح الخير) وكان أول ما فكرنا فيه هو تحديد الهدف الذي تصدر من أجله (صباح الخير) وكان الهدف الذي حددناه لـ(صباح) هو خلق الشخصية المصرية، وخلق البيت المصري وهو ما يحتاج إلى مجهود كبير لا تتسع له صفحات (روزاليوسف) وحدها».

(٣)

وبعد ثلاثة أسابيع فقط من ظهور «صباح الخير» تأسست وكالة أنباء الشرق الأوسط برأس مال عشرين ألف جنيه، وذلك لإمداد الصحف بأخبار مصر والعالم العربي، وكان «جلال الدين الحمامصي» هو أول رئيس لمجلس إدارتها.

وفي يوم السادس من أكتوبر صدر العدد الأول من جريدة «المساء» برئاسة تحرير خالد محيي الدين.

وقد حدد «عبد الناصر» أن تكون الجريدة يسارية -لا شيوعية- تهتم بمشكلات المواطن البسيط الاقتصادية والاجتماعية.

في هذا التوقيت بدأ «عبد الحليم حافظ» رحلته مع الأغاني الوطنية بالتعاون مع «كمال الطويل»، و«صلاح جاهين»، بأغنية «إحنا الشعب».

لكن حين علم بتفاقم مرض البلهارسيا، تغيَّرت نبرته، وعلا الشجن صوته، وربما كان ذلك سببًا في شروعه في كتابة مذكراته في العام التالي!

١٩٥٧

.. وجاء هيكل

(١)

في يناير على صفحات مجلة «الكواكب» بدأ «عبد الحليم حافظ» في كتابة مذكراته بخط يده قائلًا: «عندما فكرت أن أكتب مذكراتي، أحسست أنني أريد أن أصرخ بكل ما حدث في عمري مرة واحدة؛ حب.. وفاء.. مرض.. خيانة.. صداقة.. ألم.. سعادة.. رحلات في كل بلاد الدنيا.. باختصار..

الحياة رحلة رائعة رغم كل ما فيها من آلام. الآن أحاول بهدوء أن أحكي للأوراق حكايتي».

روى «عبد الحليم» قصة حياته، مبكرًا، ومبكرًا جدًا، فلم يكن حين كتبها، بالشهرة التي نالها بعد سنوات، ولم يكن العندليب الأسمر، ولم يكن المطرب رقم واحد في مصر والعالم العربي، ولم تكن جماهيريته طاغية، ولم تكن شعبيته تسد الآفاق، لكنه اتخذ قراره دون اعتبار لكل ذلك، ربما شعر أن الأجل قد اقترب، رغم أن عمره حينها لم يكن يزيد على ٢٨ عامًا.

حكى «عبد الحليم» كل شيء، منذ ماتت والدته وتركته طفلًا، مرورًا بكونه كان أصغر طالب في معهد الموسيقى، علاوة على أسراره مع رفيقي الدرب «كمال الطويل» و«محمد الموجي».

وسرد قصة لقائه الأول مع الموسيقار «محمد عبد الوهاب»؛ بل إنه كتب بنفسه وقائع ما جرى له على مسرح الإسكندرية حين طالبه الجمهور بترك المسرح، وقال له متعهد الحفلات: «إيه يا أستاذ اللي بتغنيه.. ده عامل زيّ أيها الراقدون تحت التراب.. غنِّي حاجة جديدة لعبد الوهاب، أحسن لك».

وروى قصص حبه، وعذاباته، وارتباطه الفني بالفنانة «شادية»، وما صحبه من شائعات. وتحدث عن آلامه الصحية، ومعاناته اليومية مع الأدوية والأطباء.

(٢)

في تلك الأثناء هبط توزيع جريدة «الأهرام» إلى ستين ألف نسخة، فقررت عائلة «تقلا» أن تبحث عن مُنقذ.

وفي السابع عشر من يوليو اتخذ مجلس إدارة جريدة «الأهرام» قرارًا بتعيين محمد حسنين هيكل رئيسًا لتحرير الجريدة.

وفي الثامن من أغسطس بدأ «هيكل» في ممارسة مهامه بشكل فعلي بعد أن صدر التصريح بالموافقة من مدير المطبوعات على توليه رئاسة التحرير، وذلك بعد عشر سنوات فقط من حصوله على عضوية نقابة الصحفيين. حينها لم يكن «هيكل» قد أتم عامه الرابع بعد الثلاثين، لكنه صنع «الأهرام»، و«الأهرام» أيضًا صنعته، فكلاهما كان بحاجة إلى الآخر،

هو كان يريد أن يكون رئيسًا لتحرير صحيفة كبرى، والجريدة كانت تريد رئيس تحرير مختلفًا، يعرف طبيعة العصر، ولديه مصادر نافذة، وقدرة فائقة.. وقد التقيا.

فأحدث هيكل نقلة كبرى في توزيع الجريدة، وصلت إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه.

لكن الأهم أنها بعد أن كانت صحيفة كبيرة شاخت مع الزمن، ومر على نشأتها ٧٧ عامًا، استعادت شبابها وصارت مؤسسة كبرى تناطح كبرى الصحف في العالم.

(٣)

وبدأ «هيكل» نشر أول مقال له كرئيس لتحرير «الأهرام» في الأول من أغسطس، بعنوان «السر الحقيقي في مشكلة عمان».

ونُشر المقال في الصفحة الأولى لـ«الأهرام» دون تتمة في داخل الصفحات كما اعتاد «هيكل» بعد ذلك.

وكشف «هيكل» في هذا المقال تفاصيل اجتماع الرئيس الأمريكي «أيزنهاور» مع رئيس وزراء بريطانيا السابق «أنتوني إيدن» سنة ١٩٥٦ في واشنطن، وكيف أن «إيدن» عندما دخل مكتب «أيزنهاور» وجد خريطة كبيرة لجنوب شبه الجزيرة العربية، وكيف أن «أيزنهاور» كان يحفظ عن ظهر قلب اسم إمام عمان وسلطان مسقط وأسماء زعماء القبائل في المنطقة وعلاقات النسب التي تربط بينهم.

ثم شرح «هيكل» كيف أن بريطانيا تقف وراء سلطان مسقط دفاعًا عن البترول الخبيء تحت رمال عمان والمتفجر حولها في جنوب شبه

الجزيرة العربية الذي لم يبقَ للإمبراطورية البريطانية من مصدر للقوة في العالم غيره، ودلل على ذلك بأن دخل بريطانيا السنوي من بترول المنطقة يقدَّر بمليار جنيه، وهو ما يمثل العمود الفقري لقوة الاسترليني.

ووجه «هيكل» في نهاية مقاله رسالة إلى اللجنة السياسية للجامعة العربية التي كان مقررًا اجتماعها في يوم نشر المقال قائلًا: إن معركة عمان ضد بريطانيا اليوم مقدمة لمعركة أخرى؛ لهذا أيضًا نُحرِّض إمام عمان على أن يستعين قدر استطاعته بأمريكا ضد بريطانيا استعانة بـ«شيطان» ضد «شيطان آخر».

وأنهى «هيكل» مقاله قائلًا: «ليس فينا من يريد أن يقاتل كي تنتقل الغنيمة من يد بريطانية إلى يد أمريكية».

١٩٥٨

نتيجة الاستفتاء ٩٩,٩٩٪

(١)

وتوالت مقالات «محمد حسنين هيكل» تحت عنوان «بصراحة».

واختلف شكل «الأهرام»، فظهرت الصور الكبيرة في الصفحة الأولى، على غير ما استقرت عليه الجريدة طوال تاريخها، واتخذت منحى مغايرًا في العناوين الرئيسية.

وظهر ذلك بوضوح حين تم إجراء الاستفتاء على الوحدة بين مصر وسوريا، وفي نفس الورقة أجري استفتاء على شخص رئيس الجمهورية في كلتا الدولتين، وجاءت نتيجة الاستفتاء ٩٩,٩٩٪، وخرج الشعب السوري إلى شوارع دمشق لاستقبال الزعيم «عبد الناصر» في أول زيارة له عقب الوحدة.

وخرجت جريدة «الأهرام» في صباح يوم الأحد ٢٢ فبراير تقول:

- **«بعون الله».. قامت الجمهورية العربية المتحدة**
- **جمال عبد الناصر يتكلم لأول مرة بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية العربية المتحدة**
- **٩٩,٩٩٪ نتيجة الاستفتاء في إقليم مصر**

- ٩٨ , ٩٩ نتيجة الاستفتاء في إقليم سوريا
- دول العالم تتسابق على الاعتراف بالجمهورية الجديدة
- المشير عبد الحكيم عامر يعيَّن قائدًا عامًّا للقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة

(٢)

وفي تلك الأثناء حاورت مجلة «روزاليوسف» رجل الصناعة الأول «عبود باشا».

و«عبود باشا» بدأ حياته شابًا من الطبقة الوسطى، ولم يكن يملك شيئًا سوى أن والده كان يمتلك حمَّامًا شعبيًّا في حي باب الشعرية.

واستفاد «عبود» من الحرب العالمية الثانية، وحقق ثروة طائلة، وصار «عبود باشا» أحد أعلام الصناعة المصرية.

وفي ظل ارتفاع أجور النقل ارتفاعًا خياليًّا، استطاع أن يشتري معظم أسهم شركة السكر والتكرير المصرية التي كان يمتلكها رجل بلجيكي يُدعى «هنري نوس».

وعندما مات انتقلت إدارة الشركة إلى ابنه «هوج»؛ لكن «عبود» استغل الفرصة، وطلب من أحد أصدقائه الإنجليز أن يساعده في التخلص من هذا الابن، فتم تجنيده في الجيش، وذهب إلى الحرب، ولم يعد، وانفرد «عبود» بإدارة شركة السكر.

وقد بلغ نفوذ «عبود باشا» لدرجة أنه أجبر «طلعت حرب» على الاستقالة من بنك مصر، وذلك حين اتفق مع صديقه «فرغلي باشا» ملك القطن، على سحب ودائعه من البنك بمعدل نصف مليون جنيه

يوميًّا؛ فاضطر «طلعت حرب» إلى الاستقالة حتى لا يهتزّ مركز البنك.

وجاء خلفًا له أحد أصدقاء «عبود باشا» ويدعى «حافظ عفيفي» وكان يعمل طبيب أطفال، ونشرت «روزاليوسف» قصة صعود «عبود باشا»، وحاورته في ٢١ يوليو باعتباره رجل الصناعة الأول في مصر.

وكان ذلك الحوار جزءًا من حملة صحفية كبيرة قامت بها «روزاليوسف» لدعم القطاع العام، والمنتج المحلي، والشركات الوطنية.

وقاد تلك الحملة «إحسان عبد القدوس» ومعه «كامل زهيري» بالإضافة إلى «فتحي غانم» الذي كتب يقول: «مضت علينا أعوام طويلة ونحن نعاني من سيطرة رؤوس الأموال الأجنبية على اقتصادنا؛ ولكن انقضى هذا العهد، وبدأنا بعد الثورة عهدًا جديدًا هو عهد رأس المال الوطني، وتمصير البنوك».

وخرج غلاف المجلة برسمة للفنان «زهدي» للرئيس «جمال عبد الناصر»، وهو يرتدي بدلة بيضاء مكتوبًا عليها «الحياد الإيجابي»، وأسفلها تعليق يقول: «عاجبك القماش.. ده إنتاج جمهورية مصر العربية».

وفي هذا العام رحلت السيدة «فاطمة اليوسف».

(٣)

وفي صباح يوم الأحد الرابع والعشرين من أغسطس أرسل «جمال عبد الناصر» خطابًا إلى جميع نواب رئيس الوزراء، وجاء فيه: «لاحظت في الأيام الأخيرة الجري وراء الصحف والصحفيين، وتوزيع نشرات عليهم، تهدف إلى دعايات شخصية».

فشعر «عبد اللطيف البغدادي» أنه المقصود من خطاب «عبد الناصر»، فتقدم باستقالته؛ لكنه تراجع عن قراره بعد ذلك.

حينذاك صدر قرار من الحاكم العسكري بتعطيل مجلة «السيدات المسلمات».

وأدخل الرئيس «عبد الناصر» تعديلات على المادة ٧٤ من قانون نقابة الصحفيين التي نصّت على الآتي: «أن الصحفي المقيَّد في جدول النقابة يتمتع بجميع الحقوق والامتيازات التي نصَّت عليها القوانين السابقة، كما يجب أن يتضمن عقد عمل الصحفي جميع المزايا التكميلية التي يتفق عليها مع إدارة الصحيفة».

١٩٥٩

تاتا زكي

(١)

وفي يوم الخميس ١٢ مارس قرر «جمال عبد الناصر» إقالة خالد محيي الدين من رئاسة تحرير جريدة «المساء».

وفي اليوم التالي تقرر فصل ١٣ صحفيًا يعملون بالجريدة، علاوة على عدد من الصحفيين بالصحف الأخرى، بالإضافة إلى نائب رئيس تحرير «الجمهورية».

وبعد أسبوعين فقط صدر قرار باعتقال عدد كبير من الكُتاب، والصحفيين، وأساتذة الجامعات، وكان من بينهم «محمود السعدني، ولويس عوض، وصلاح حافظ، ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، ولطفي الخولي، وإسماعيل صبري عبد الله، وشهدي عطية الشافعي، وعبد الستار الطويلة، ورفعت السعيد» وغيرهم كثير.

وتم إيداع بعضهم معتقل الواحات الخارجة، والبعض الآخر «أبوزعبل».

وحين علم «صلاح جاهين» الخبر، غضب، وغادر بيته، واتجه إلى مجلة

«صباح الخير» وفي أثناء سيره في شارع القصر العيني، إذا بأبيات تتردد في ذهنه، وهو يمشي:

مع إنّ كل الخلق من أصل طين

وكلهم بينزلوا مغمَّضين

بعد الدقايق والشهور والسنين

تلاقي ناس أشرار وناس طيبين

ثم علّق على تلك المعاني بصوت عالٍ:

عجبي!

ثم صعد إلى المجلة، والتقى صديقه «أحمد بهاء الدين» رئيس تحرير «صباح الخير».

وقال «صلاح» لـ«بهاء»: «اسمع دي»، وتلا الأبيات، فإذا بـ«أحمد بهاء الدين» يقول: «أنا عايز أربع سطور زيّ دول كل أسبوع في المجلة».

هكذا وُلدت الرباعيات، وظلت تُنشر أسبوعيًا على صفحات «صباح الخير».

لكن فجأة توقفت، وذلك حين كتب «جاهين» يقول:

يا طير يا عالي في السما طظ فيك

ماتفتكرش ربنا مصطفيك

برضك بتاكل دود وللطين تعود

تمصّ فيه يا حلو ويمصّ فيك

عجبي!

فقد أوعزت حاشية الرئيس إليه أنه «الطائر» المقصود، خصوصًا أنه كان في الطائرة حين كتب «جاهين» تلك الرباعية.

لكن لم يدم التوقف سوى أسبوعين، وحين عادت الرباعيات كتب «جاهين»:

أنا قلبي كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلتْ به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتوا ليه، خفتوا ليه؟
لا فْ إيدي سيف ولا تحت منّي فرس
عجبي!

(٢)

في هذا التوقيت نشرت جريدة «أخبار اليوم» في صدر صفحتها الأولى مانشيتًا باللون الأحمر يقول:

- **اختفاء أجمل سيدة في مصر**

وجاء في التفاصيل:

«أن سيدة أرستقراطية تُدعى (تاتا زكي) متزوجة من محامٍ كبير وشهير، لكنها لم تعد ترغب في أن تكمل حياتها معه، وصارت تضيّق به، وتركت له البيت، وأحبت رجلًا آخر من العائلة المالكة السابقة، وتريد أن تتزوجه، وتعيش معه، لكن زوجها المحامي يرفض أن يُطلقها».

وحاولت «تاتا زكي» بكل الطرق أن تنفصل عنه؛ لكن الزوج المخدوع تجاهلها، فذهبت إلى دار «أخبار اليوم» والتقت «مصطفى أمين» فجعلها حديث الناس بطول مصر وعرضها، وانصرف الناس عن كل ما يجري من إنجازات في البلد، وتابعوا، وتتبعوا قصة «تاتا زكي».

فغضب الرئيس «جمال عبد الناصر»، وشن حملة ضد صحف الإثارة التي تُلهي الجماهير عن القضايا الكبرى، وكان المقصود بذلك صحف دار «أخبار اليوم» التي شغلت الرأي العام بقضية «تاتا» التي تهافت الناس على معرفة تفاصيلها يومًا بيوم، وسبب اختفائها، وما ستفعله إنْ لم يستجب لها زوجها ويُطلقها.

(٣)

ففي خطاب «جمال عبد الناصر» بمناسبة ثورة يوليو، هاجم صحافة الإثارة، واتهمها بعدم إلقاء الضوء على قضايا المواطنين الكادحين، في الوقت الذي تخصص فيه مساحات كبيرة لأخبار العاطلين بالوراثة، وأبناء الطبقة الأرستقراطية التي نشأت في أثناء الحكم التركي، والاحتلال البريطاني.

ووصف «عبد الناصر» الصحافة بأنها تقدم صورة بعيدة كل البعد عن مجتمعنا الاشتراكي الجديد، وهو ما دعا بعض الأصوات في الاتحاد القومي للمطالبة بأن يكون للاتحاد دوره الإيجابي في توجيه الصحافة.

وبعد أن انتهى الرئيس من خطابه، بدأ التمهيد من كبار الصحفيين لصدور قرار تأميم الصحف، فكتب «هيكل» مقالًا بعنوان «حرية الرأي» وانتقد فيه الصحافة المصرية، وشنَّ هجومًا حادًّا عليها.

وقال: «إن الصحافة المصرية لم تستطع التخلص من كونها صحافة شخصية تعبِّر عن الرأي الخاص لأصحابها ومحرريها، وانحازت لحساب المرفَّهين، وفشلت في التعبير عن الرأي العام لمجتمع بأكمله على اختلاف طبقاته».

وكتب «فتحي غانم» في ٢٨ ديسمبر في «روزاليوسف» مقالًا أكد فيه حق الدولة في أن تتدخل لتوجيه حرية الرأي.

ودعا «إحسان عبد القدوس» رئيس تحرير «روزاليوسف» إلى ضرورة أن تنظَّم الصحافة في إطار الاتحاد القومي؛ لأنها تعد أداة من أدواته.

وكان قصة «تاتا زكي» هي الذريعة التي استندت إليها السُّلْطة لتأميم الصحف في العام التالي!

الفصل الثاني

«لا أستطيع أن أُنكر أنني استمتعتُ إلى أقصى حدٍّ بكلِّ الضجة التي أثاروها من حولي.. شيءٌ ما فيها كان مُرضيًا لشيءٍ ما فيَّ، لعله الغرور».

محمد حسنين هيكل

١٩٦٠

مصرع السفاح.. عبد الناصر!

(١)

في السادس من أبريل نشرت جريدة «الأخبار» في صفحتها الأولى بيانًا من حكمدار القاهرة يتوعد فيه كلَّ من يساعد السفاح أو يأويه، ويعرض مكافأة ١٠٠٠ جنيه لمن يساعد في القبض عليه.

وبعد أيام قادت الكلابُ، رجال الشرطة للوصول إلى المغارة التي يختبئ بداخلها اللص «محمود سليمان» في حلوان، وذهبت قوة كبيرة من الشرطة يتقدمها حكمدار القاهرة، ووصلت إلى «محمود سليمان».

وأمسك الحكمدار بالميكروفون وقال لـ«سليمان»: «سلِّم نفسك يا محمود».

فردّ «سليمان»: «إذا كنتم عايزين تموّتوني أنا مستعدّ أخلّص على نفسي.. طلقة واحدة الحكاية تخلص».

لكنّ «سليمان» لم ينتحر؛ بل طلب أن يسلِّم نفسه بشرط أن يأتوا إليه بشخصين: الأول، زوجته الخائنة التي كانت سبب كل ما جرى له.

والثاني، الكاتب الصحفي «محمد حسنين هيكل»، رئيس تحرير «الأهرام»!

لكن لم تستجب الشرطة لطلباته.

فطلب «سليمان» ورقًا أبيض ليكتب مذكراته، ودار نقاش طويل مع حكمدار القاهرة، وفي أثناء النقاش داهمت الشرطة المغارة، ومات «محمود سليمان».

وفي اليوم التالي قالت «الأهرام» إن «سليمان» تلقى ١٧ رصاصة من الشرطة، بينما كتبت صحيفة «المساء» إن اللص أطلق رصاصة من مسدسه على نفسه.

والمدهش أنه بعد مقتل «سليمان» فتشت الشرطة آخر شقة أقام فيها في شارع محمد علي، وعثرت فيها على رسالة كتبها اللص إلى «محمد حسنين هيكل»، وطلب فيها أن ينشر مذكراته على حلقات في «الأهرام».

ونشر «هيكل» رسالة السفاح في الصفحة الأولى وقد جاء فيها: «لا بد أن أكتب لعل وعسى أن أفيد المجتمع المريض الذي يحاربني بقوة، ولست أدري من أين أبدأ، ولكن الأفضل لي وللمجتمع أن يفهم هذه الواقعة بالذات؛ لأنها هي التي غيَّرت مجرى حياتي».

ويتحدث «سليمان» عن زوجته «نوال» التي انتشلها من ماضٍ ملوَّث، وعندما فكر في الزواج بعد طلاق زوجته الأولى، تصور أن زوجته ستكون خادمة له، وأحبَّها، ولكن كانت الخيانة مصيره».

وتابع «سليمان»: «إذا أظلمت الحياة أمامك اسخط على المجتمع لأنه المسؤول وَدَعِ الرحمة جانبًا، فالرحمة فوق العدل والقوة فوق العدل».

قصة اللص «محمود سليمان» شغلت كل الصحف، وتابعها الجميع، ولم يكن الرأي العام مشغولًا بغيرها؛ لكنها تسببت فيما لم يخطر ببال أحد!

ففي اليوم التالي لمقتل «محمود سليمان» خرج مانشيت جريدة «الأخبار» يقول:

- «مصرع السفاح»

وأسفل هذا المانشيت عنوان آخر يقول:

- «عبد الناصر في باكستان»

ولم يكن يفصل بين العنوانين سوى خط رفيع جدًّا، وبدا للقارئ أنهما عنوان واحد!

وحين قرأ «عبد الناصر» العنوان قيل إنه علَّق قائلًا: «ومصرع مصطفى أمين هيكون في القاهرة»!

وقيل إن هذا العنوان كان السبب الأول في قرار تأميم الصحافة الذي صدر بعد أقل من شهرين من خروجه للنور.

(٢)

في هذا التوقيت اقترح «إحسان عبد القدوس» على مجلس إدارة مجلة «روزاليوسف» أن يشتري المحررون والعمال الدار من أصحابها بقيمة رأس المال حتى لا تُترك عدالة توزيع الحقوق نظير العمل في يد أصحاب الدار يوجِّهونها حسب أمزجتهم، على أن يتم تقسيم الأرباح آخر السنة على ثلاثة أبواب، أحدها يُدفع منه الأقساط المستحقة لأصحاب الدار الأصليين، وآخر يُرصد فيه الاحتياطي، وما قد يتطلبه التوسع في أعمال الدار، والباقي من الأرباح يوزَّع على حَمَلَة الأسهم.

وانتقد «علي أمين» في «أخبار اليوم» انفلات بعض الكتاب وتصورهم أن الحرية تسمح لهم بأن «يدوسوا» مقدسات المجتمع والمثل العليا.

وفي ٢٤ مايو صدر قرار تنظيم الصحافة، ونُقلت ملكية الصحف إلى الاتحاد القومي، لا إلى الدولة؛ ولذلك نص القرار على تنظيم الصحافة، لا تأميمها.

وشمل القرار الدور الصحفية الخمس الكبرى «الأهرام» و«أخبار اليوم» و«الجمهورية» و«دار الهلال» و«روزاليوسف»، وانتدب «جمال عبد الناصر» أحد الضباط من مكتبه، وجعله مشرفًا على «أخبار اليوم»، ووضعت السُّلْطة يدها على الصحافة.

(٣)

وعقب صدور القانون التقى «عبد الناصر» مع مجالس إدارات المؤسسات الصحفية الجديدة، وبرؤساء تحرير الصحف والمجلات وتحدث عن الظروف التي اقتضت نقل ملكية الصحف إلى الشعب، ورسالة الصحافة، ودورها في المجتمع الاشتراكي الديموقراطي.

وقال «عبد الناصر»: «ليس هدفنا أن نغتصب مبانيَ ٥ أدوارٍ أو ١١ دورًا.. لا بد أن نبني مجتمعًا اشتراكيًّا متحررًا من الاستغلال، المجتمع الذي نريد أن نبنيه بالقطع مش مجتمع القاهرة، ولا النادي الأهلي، ولا نادي الزمالك، ولا نادي الجزيرة، ولا السهرات بتاعة بالليل.. مش هيّا دي بلدنا بأي حال من الأحوال، بلدنا كفر البطيخ.. القرية أيّ قرية هيّا دي نموذج بلدنا، وهناك مشكلات حقيقية في بلدنا، واللي عاوز يكتب عن بلدنا يروح هناك، ويشوف الناس اللي لابسين برانيط قشّ وبيشيلوا الرز طوال النهار لكي يعيشوا، دي بلدنا.. ماهيّاش أبدًا فلانة اطّلقت أو اتجوزت، ولا فلانة طلعت تجري ورا فلان وسابت علّان.. أبدًا».

وواصل «عبد الناصر» حديثه قائلًا: «إذا أردنا أن تكون عندنا فعلًا صحافة يجب أن تكون في خدمة الناس في بلدنا وفي خدمة مجتمعها الأصيل الطبيعي اللي احنا جينا منه.. لما نيجي ونقول إن احنا عايزين نخلق المجتمع الاشتراكي، بحيث يكون فيه قطاع عام نبص نلاقي مقالة تقول لنا بيعوا القطاع العام.. هناك إعلانات لا تتمشى حتى مع كرامتنا كبلد،

لدرجة أن إعلانات السفارات الأجنبية على اختلافها أصبحت بندًا ثابتًا في الصحف».

وعلق «مصطفى أمين» على قانون تنظيم الصحافة في عموده بعنوان في «أخبار اليوم» قائلًا: «إننا كنا نؤيد الثورة ونحن أصحاب (أخبار اليوم)، ونحن نؤيد الثورة ونحن أصحاب (أخبار اليوم) سابقًا، وسواء كنا نملك الصحف أو يملكها الشعب فنحن نشعر بأننا جزء لا يتجزّأ من هذا الشعب، فما دام الشعب أصبح يملك (أخبار اليوم)، فمازلنا نحن أصحاب(أخبار اليوم)، ولا يهمنا ونحن في معركة الوطن أن نكون في الصف الأول أو في الصف الأخير».

ودافع «محمد حسنين هيكل» عن قرار قانون تنظيم الصحافة، وكتب سلسلة مقالات في «الأهرام» بعنوان «الصحافة»، جاء فيها: «لقد كان قانون تنظيم الصحافة الجديد حاسمًا في تقييمه لحرية الصحافة.. وحرية الصحافة بخير.. وكيف يمكن أن يخطر على البال أن الضمانات لحرية الصحافة كانت مصونة حين كانت الصحف في ملكية فرد؟».

وتساءل «هيكل»: «لماذا يقال إن القانون الذي صدر بشأن الصحافة هو قانون (تنظيم الصحافة) ولماذا لا يقال صراحة إنه قانون لتأميم الصحافة؟! الجواب: لأن الصحافة لم تؤمَّم.. نقول ذلك لا تجنبًا لكلمة التأميم أو حذرًا منها، فإن كلمة التأميم كلمة لها قيمتها ولها احترامها في مجتمع يؤمن بالاشتراكية».

لكن لم تقف قرارات تنظيم -أو تأميم- الصحافة عند هذا الحد، ففي العام التالي كانت هناك قرارات جديدة، البعض استفاد منها، والبعض الآخر دفع ثمنها!

١٩٦١

يد الرقيب

(١)

كان لا بد أن يبحث الصحفيون عن مخرج. قانون تنظيم الصحافة من أمامهم، والرقيب من خلفهم، ولم يتصور أحد أن تكون الصورة قائمة على هذا النحو.

فقد كان البعض يظن -وبعض الظن إثم- أن تنظيم الصحافة لن يضرَّ بها، بل ربما يجعلها أقوى، لكن الكل اكتشف الحقيقة، ولم يعد بمقدور أحد أن يكتب حرفًا واحدًا في الصحف دون أن تطاله يد الرقيب، والعتيد!

وكان «أنيس منصور» أول الضحايا، فقد صدر قرار بفصله من قسم الفلسفة بكلية الآداب، ومنعه من الكتابة لمدة عام بسبب مقال بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» قيل إنه يقصد منه النَّيل من الرئيس «جمال عبد الناصر».

وحين عاد «أنيس» إلى الكتابة، مُنع «فكري أباظة»!

وذلك بسبب مقال كتبه في مجلة «المصور» طالب فيه الدول الكبرى بإنشاء اتحاد فيدرالي بين الدول العربية بما فيها فلسطين وإسرائيل، وترتب على هذا المقال إعفاء كاتبه من رئاسة مجلس إدارة «دار الهلال»،

ورئاسة تحرير «المصور».

لكن قيل إن السبب الحقيقي لعزله، هو أنه كتب مقالًا عن الديكتاتورية في إسبانيا، فقال بعض الوشاة إنه يقصد الديكتاتورية في مصر!

وتوقف «فكري أباظة» عن الكتابة، ولم يعد إلا بعد كتابته مقالًا في جريدة «الأهرام» يعتذر فيه عما كتبه في مجلة «المصور».

(٢)

في هذه الأثناء احتدم الخلاف بين المثقفين المصريين خلال الفترة من ١٢ مارس إلى ١٤ يوليو، وانقسموا إلى قسمين:

الأول، يتقدمه «لطفي الخولي».

والثاني، يتزعمه «محمد حسنين هيكل».

فقد كتب «الخولي» عدة مقالات تحت عنوان «أزمة المثقفين»، وتحدث عن مشكلاتهم، وهواجسهم، ودافع عن موقف اليسار، وانتقد تصرفات رجال الثورة ضدهم.

بينما دافع «هيكل» عن موقف ورؤية الدولة تجاه المثقفين، ودورهم قائلًا: «ظروف عديدة تسببت في أن يصبح عدد كبير من المثقفين أصحاب مصالح متميزة عن مصلحة الجماهير».

وقد طرح «هيكل» في هذه المقالات السؤال الأخطر وهو: «ما الذي كان يمكن أن يحققه الهمس بعودة الجيش إلى ثكناته؟». وأجاب قائلًا: «لقد تحركت من الجيش طليعة، دعاها الفراغ القيادي وإحساسها المتصل بإحساس الجماهير أن تترك عملها النظامي وتخرج إلى المجال الثوري.. فهل امتلأ الفراغ الذي دعاها ببديل قادر على القيادة؟

لقد مهّد لتحرك الطليعة ونجاح حركتها، إرادةٌ شعبيةٌ تُلحّ في تغيير البناء الاجتماعي على أساس من العدل والتكافؤ».

وتساءل هيكل: «هل حدث التغيير وهل أُعيد تشكيل المجتمع على نحو يكفل المساواة والتكافؤ في الفرص؟».

وأجاب: «لقد كانت الثورة هي المطلب العميق للجماهير وللطليعة التي احتفظت باتصالها الشعبي وتفاعلها معه.. فهل الثورة هي مجرد مغامرة ٢٣ يوليو، أم أن هذه المغامرة مجرد مقدمة تمكّن من إحداث التغيير الأساسي تمهيدًا لتحقيق الأمل الذي تتطلع إليه الجماهير المتحفزة للثورة؟ وفضلًا عن ذلك كله فلقد كان يمكن في ذلك الوقت أن يتعرض العمل الثوري للخطر.. فلقد كان من العسير وسط الفراغ السياسي المخيف وقتها أن توجد جماعة قادرة على تحقيق الثورة، من غير الاعتماد على تأييد الجيش، ومعنى ذلك أن الجيش سوف يبقى من وراء الستار هو السُّلْطة العليا في البلاد، وذلك وضع بالغ الخطورة».

(٣)

وفي الرابع عشر من مايو صدر قرار بتأميم وسائل الإعلام، وجعلها تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي، وكذلك تأميم الصناعة، والبنوك وشركات التأمين، وبعض الشركات الخاصة.

وكان من بينها شركة لإنتاج الأسطوانات تُدعى «مصر فون» أسسها الفنان «محمد فوزي»، وأنفق عليها كل ما يملك، ونجحت بصورة غير مسبوقة، وجذب إليه عددًا كبيرًا من كبار النجوم أمثال «أم كلثوم ونجاة الصغيرة»، وغيرهما كثير.

لكن فجأة صدر القرار بتأميم الشركة، وتعيينه موظفًا بها بمرتب مئة جنيه، فمرض «فوزي» وسافر إلى ألمانيا، إلا أن المستشفى الألماني أصدر بيانًا قال فيه إنه لم يتوصل إلى معرفة مرضه الحقيقي ولا كيفية علاجه، وإنه خامس شخص على مستوى العالم يصيبه هذا المرض، حيث وصل وزنه إلى ٣٦ كجم.

(٤)

وعقب تأميم وسائل الإعلام صدر قرار بترقية «محمد حسنين هيكل» ليصبح رئيسًا لمجلس إدارة «الأهرام» بجانب رئاسته لتحريرها.

وفي يوم الجمعة الحادي عشر من أغسطس بدأت «الأهرام» تنشر في ملحقها الأدبي قصة جديدة لنجيب محفوظ سمّاها «اللص والكلاب».

وبمجرد أن قرأ الناس الحلقة الأولى أدركوا أنها مستوحاة من قصة اللص «محمود سليمان» الذي أُطلق عليه لقب «السفاح» قبل عام واحد فقط.

وكأن قصة «محمود سليمان» محفوظة باسم «الأهرام»، لكن في العام التالي أخذت القصة منحى آخر!

١٩٦٢

بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة

(١)

تحولت قصة نجيب محفوظ «اللص والكلاب» إلى فيلم سينمائي بطولة «شكري سرحان وشادية وكمال الشناوي» وإخراج «كمال الشيخ».

وانتقل «علي أمين» من مؤسسة «أخبار اليوم» إلى دار «الهلال» ليصبح رئيسًا لتحرير «مجلة الهلال»، وكان قرار النقل بمثابة إقصاء؛ فالمجلة توزيعها محدود، ومواردها محدودة للغاية.

لكنه قرر أن ينجح، فجمع كل نجوم الفكر والأدب والفن والصحافة في إصدار واحد بل في عدد واحد فقط.

ومن بينهم: عباس العقاد، وطه حسين، وكامل الشناوي، وإحسان عبد القدوس، وأحمد بهاء الدين، وصلاح جاهين، ومصطفى أمين، ومحمد حسنين هيكل، والدكتور محمد حسين هيكل، وأنيس منصور، ومحمد فريد أبو حديد، هذا علاوة على عدد كبير من نجوم الفن مثل عبد الحليم حافظ، وشادية، وفاتن حمامة، ومارلين مونرو!

فعادت «الهلال» إلى الحياة واضطرت لأول مرة في عمرها المهني إلى أن تجمع الورق «الدشت» وتطبع عليه نسخًا رديئة، التهمتها السوق

في دقائق، بعد أن نفدت كل الكمية المطبوعة.

هذا نتاج ما فعله «علي أمين»، فقد بثَّ الروح في مؤسسة عريقة، واستعاد شباب مجلة شاخت، حتى لا تتعرض للانقراض، وحين قالوا له إن ما فعله معجزة، علّق قائلًا: «أنا لم أصنع هذه المعجزة، مَن صنعوها هم الذين يحرقون دماءهم وأعصابهم في المقاعد الأولى في صحافة بلادك والذين تعاونوا معي».

(٢)

وفي أثناء تطوير «الهلال» بدأت مجلة «روزاليوسف» في نشر حلقات رواية «تلك الأيام» للأديب «فتحي غانم».

وبطل تلك الرواية يُدعى الدكتور «سالم عبيد» أستاذ التاريخ الذي كان عضوًا في لجنة كتابة الميثاق الوطني، وقد جاء فيها: «إن بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة، إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تدرس تفاصيل الأحداث، ثم تقف في قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لتختار التفاصيل المناسبة اللائقة، وتسردها أمام الطلبة.. لا شيء أكثر من هذا يا عزيزي.. أو السجن.. نصف الحقيقة وتحيا.. كل الحقيقة والمقصلة يا عزيزي».

تلك الرواية نفثت عما جاش في صدر كثيرين خصوصًا حين قال «غانم» على لسان «سالم عبيد»: «انتهت الأحلام والمعجزات والمستحيلات.. كل ما نشرتُه.. كل ما قلتُه لتلاميذي لم يخرج عن أن يكون أنصاف حقائق.. ثم لا شيء.. مجرد رغي.. دردشة.. لا حقيقة على الإطلاق».

(٣)

وفي تلك الأثناء حضر رائد الفضاء الروسي إلى مصر «يوري جاجارين»، واستقبلته استقبال الفاتحين، وكان نائب رئيس الجمهورية «زكريا محيي الدين» في انتظاره في مطار ألماظة.

والتقى «جاجارين» عددًا كبيرًا من كبار الكتاب والشعراء، والتقاه «جمال عبد الناصر»، وكرّمه، ومنحه قلادة النيل، ووضع «جاجارين» شارة رواد الفضاء على صدر نجل الرئيس.

لكن قصة «جاجارين» بدأت قبل عام حين أطلق صرخته قائلًا: «فلننطلق»،

وذلك قبل انطلاق المركبة الفضائية «فوستوك -١» في أول رحلة للبشرية إلى الفضاء، وتلك الصرخة لاقت هوى في مصر التي كانت أيضًا تنطلق بأحلامها إلى عنان السماء.

وخرجت «الأهرام» على تقاليدها، وكانت الصفحة الأولى لا تتضمن سوى حدث واحد تحت عنوان كبير:

- رجل في الفضاء

وحين عاد «جاجارين» من رحلته إلى القمر، كان بدهيًّا أن تستقبله مصر، مع قرابة ثلاثين دولة حول العالم؛ لتسمع منه ماذا رأى في الفضاء؟ وكيف صعد إلى القمر؟ وفيمَ كان يفكر؟ وهل واجهته صعوبات؟ وما طبيعتها؟ ومتى تسلل الخوف إلى قلبه؟

لكن المثير أن «جاجارين» الرجل التي تحدثت الدنيا عن براعته في قيادة مركبة فضائية، رحل عن الدنيا بعد ست سنوات فقط من زيارته لمصر،

وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وذلك في أثناء رحلة تدريب بطائرة عسكرية!

(٤)

وبعد أن غادر «جاجارين» القاهرة أعلن «جمال عبد الناصر» عن نجاح الخبراء المصريين بمعاونة خبراء ألمان في تصنيع صواريخ بعيدة المدى: الظاهر، والقاهر، والرائد.

وتم الإعلان عن مجانية التعليم في جميع مراحله، واقترح «مصطفى أمين» دعوة منتخب البرازيل للعب في القاهرة مع منتخب مصر -بعد أن فازت البرازيل بكأس العالم-بحيث يؤدي ثلاث مباريات، اثنتين في القاهرة، وواحدة في الإسكندرية.

وعندما علم «عبد الناصر» بالخبر اتصل بـ«مصطفى أمين» تليفونيًّا ليلومه على تلك الفكرة التي بدأ في تنفيذها وقال له: «أنت رايح تجيب فريق يغلبنا..! مصر ماتخسرش في أي حاجة.. حتى لو كانت مباراة في كرة القدم».

وكانت وجهة نظر «عبد الناصر» أنه لا يريد لمصر أن تنهزم أبدًا حتى لو كانت الهزيمة في كرة القدم.

١٩٦٣

فضيحة الموسم

(١)

في شهر مارس أعلنت مجلة «الكواكب» أنها قد عثرت على كنز أدبي كبير.

ونشرت المجلة على صفحتها قصة لم تُنشر من قبل للكاتب المسرحي السويسري الشهير «فردريك دورنيات» تحت عنوان: «الهواء الأسود»؛ وذلك بسبب انتشار مسرح «اللامعقول» الذي بدا مسيطرًا ومتصدرًا باعتباره موضة جديدة رائجة، ولها جمهور من نخبة النخبة.

ودعت المجلة عددًا كبيرًا من كبار النقاد للتعليق على مسرحية «الهواء الأسود» كواحدة من روائع مسرح «اللامعقول»، وباعتبارها خبطة صحفية كبرى استطاعت المجلة أن تحققها.

وتجاوب النقاد مع قصة «دورنيات» الجديدة، ونشرت «الكواكب» في الأسبوع التالي على صفحاتها احتفاء النقاد والمهتمين بالمسرح،

وقد أشاد النقاد بروعة قصة «الهواء الأسود»، وبعبقرية مؤلفها، وبالدلالات المهمة التي تحملها، وبالمعاني الكامنة بداخلها، وبالرموز التي استخدمها المؤلف، والتي قد تخفى على القارئ.

(٢)

وبعد أن انتهت تعليقات النقاد، ومدحهم في قصة «الهواء الأسود» والإشادة بعبقرية مؤلفها، حدثت مفاجأة لم تخطر ببال أحد.

فقد خرج الكاتب الساخر «أحمد رجب» ليفاجئ الجميع بقوله: «أنا الموقِّع أدناه أحمد رجب أقرّ وأعترف بأنني كاتب مسرحية الهواء الأسود وأنني مؤلفها الأوحد.. وأن الخواجة فردريك دورنيهات الكاتب المسرحي السويسري لا علاقة له إطلاقًا بهذه المسرحية.. وأنه ليس له أي إنتاج مسرحي بهذا الاسم»!

«أحمد رجب» أراد أن يثبت بشكل عملي أنه لا يوجد شيء اسمه مسرح «اللامعقول» وأن ما يفعله هؤلاء النقاد هو اللا معقول ذاته!

وكشف «رجب» تفاصيل ما جرى بقوله: «أقرّ وأعترف أنني كتبت هذه المسرحية في مكتبي بالغرفة رقم ٤٠٦ بمبنى دار الهلال بالسيدة زينب.. وأن هذه المسرحية لم تُكتب إطلاقًا في لوزان، ولا جنيف، ولا زيوريخ، وأنني كنت أكتب هذه المسرحية الخالدة، وأنا مصاب بنوبة ضحك شديدة».

واستطرد «رجب» قائلًا: «وفي أثناء انهماكي في كتابة هذه المسرحية الخالدة.. دخل مكتبي الزميل حلمي سلام وسألني ماذا أكتب، فقلت له: مسرحية لمسرح اللا معقول، وتناول حلمي الأوراق التي كتبتها وراح يقرأ وهو فطسان من الضحك.. والظاهرة التي هي في منتهى العجب أن كتابة هذه المسرحية كلها لم تستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة.. فقد كنت أكتبها بلا أي تفكير ولا منطق.. الأمر الذي سهَّل مهمتي كثيرًا! فمادام مسرح اللا معقول لا يحكمه أي منطق أو مألوف..

فمش ضروري منطق ولا مألوف».

وأردف «رجب» قائلًا: «عندما انتهيت من كتابتها جلست أهرش رأسي بحثًا عن عنوان خطير للمسرحية الخالدة».

وفي هذه الأثناء دخل إلى مكتب «أحمد رجب» صديقه «مرسي الشافعي» مدير تحرير مجلة «المصور»، وقرأ «الشافعي» وكاد يقع من الضحك.

واقترح «مرسي الشافعي» أن تسمّى هذه المسرحية «الهواء الأسود»، ووافق «أحمد رجب» لكنه احتار في الاسم الذي يوقّعه عليها هل يوقعها باسم «أحمد فريدريك» أم «أحمد يونسكو» أم «أحمد بيكيت» أم «رجب دورنيهات»! وانتهى الأمر بتوقيعها باسم «فريدريك دورنيهات» باعتبار أن إنتاجه لم يصل إلى مصر بعد.

وقبل أن يُسلم «أحمد رجب» المسرحية إلى «سعد الدين توفيق» رئيس تحرير «الكواكب»، أعطاها لزوجته كي تقرأها، فعلّقت قائلةً: «أنت بتسكر من ورايا يا راجل؟ إيه الكلام الفاضي ده اللي مالوش لا راس ولا رجلين!».

وتابع «رجب» بقوله: كان معنى كلام زوجتي هذا أن «الهواء الأسود» قد نجحت كمسرحية لمسرح اللا معقول.. وأن النقاد سوف يشبعون مدحًا، وتقريظًا لها.. وأعطيت المسرحية بمنتهى الاطمئنان إلى سعد الدين توفيق.. وانتهى دوري عند هذا الحد والله العظيم.

واختتم «رجب» كلامه قائلًا: والآن.. شكرًا لهؤلاء النقاد على مدحي وتقريظي.. طبعًا هذا شرف عظيم أن يُجمعوا على أنني مؤلف مسرحي عالمي خطير الشأن، وبعد تعليقهم هذا هناك أمر من اثنين: إما أنني مؤلف مسرحي خطير فعلًا رغم أنني لم أكتب للمسرح أي إنتاج حتى الآن،

وإما أنهم يرجعون في كلامهم بعد أن عرفوا الحقيقة وهي أن مؤلف «الهواءالأسود» ليس خواجة وإنما هو أحمد بن رجب، ولذلك اعتبرت نفسي مؤلفًا مسرحيًّا عالميًّا أضع اسمي بكل فخر إلى جوار الخواجات بيكيت، ويونسكو، وأوزبورن، وكوكتو.. ومن له اعتراض من النقاد فليتقدم.

(٢)

وفي الأسبوع التالي نشرت «الكواكب» تعليقات كبار الأدباء والمثقفين على فضيحة الموسم الثقافية، وما فعله «أحمد رجب» في النقاد.

فعلّق «طه حسين» قائلًا: «إنها عقدة الخواجة فعلًا».

وقال «العقاد»: «وُفّق الكاتب الصحفي أحمد رجب إلى حملة ناجحة على أسلوب النقد اليدوي منذ أيام فلفّق رواية خنفشارية باسم (الهواء الأسود) ونسبها إلى مؤلف خنفشاري في إحدى الديار الأوروبية؛ فاهتزت لها أعطاف النقاد المحترمين إعجابًا، وطربًا، وارتفعوا بها إلى قمم العبقرية فنًّا، وأدبًا، وقارنوا بينها، وبين بدائع المنثور، والمنظوم التي فاضت بها قريحة المؤلف المعدوم.. وهؤلاء النقاد المحترمون أولى مَن ينبغي أن يساق إلى محكمة التزييف لحماية هذه الأمة من وبال دعواهم».

ودافع «توفيق الحكيم» عن «أحمد رجب» قائلًا: «هذا مقلب ظريف ولطيف».

بينما قال «إحسان عبد القدوس»: «كل ما نرجوه من السادة النقاد أن يصرّوا على رأيهم الخطأ.. وأن يرفعوا أحمد رجب إلى مرتبة الكتاب العالميين».

وعلّق الشاعر «صلاح عبد الصبور» قائلًا: «إن هذا أعظم عمل نقدي للنقاد قامت به الصحافة طوال السنوات الأخيرة»!

(٣)

في الوقت الذي شغل فيه «أحمد رجب» مصر كلها بفضيحة «الهواء الأسود»، فاز صديقه «أنيس منصور» بجائزة الدولة التشجيعية.

وذهب «أنيس» ليتسلم الجائزة من الرئيس «جمال عبد الناصر»، وكان «يوسف السباعي» يقف بجوار الرئيس على المنصة.

وفجأة سأل «عبد الناصر»، «السباعي»: «مش أنيس ده شيوعي؟».

فرد «السباعي» قائلًا: «لا يا ريس.. التاني اسمه عبد العظيم أنيس.. وده اسمه أنيس منصور.. وسيادتك رفدته من سنتين، ورجع».

ثم أردف «السباعي» ساخرًا: «حضرتك تحب نفصله تاني؟».

لم يُفصل «أنيس منصور» مرة أخرى؛ لكن في العام التالي صدر قرار بفصل آخرين!

١٩٦٤

الطريق إلى باتا

(١)

بعد أن صار الصحفي موظفًا لدى الحكومة، صار مثل الصيد الذي يسهل قنصه، وصار الرقيب هو الحاكم الفعلي داخل الصحف.

وصارت الكتابة تلميحًا، والأفكار عبارة عن إشارات بعيدة المدى، والرؤى بمثابة رسائل مغلّفة من بين السطور، والذكاء هو البطل، وتمرير الرسائل إلى القارئ يتم من خلف ستار.

وصار التحايل على الرقيب هو الهدف الأول الذي يحرزه الكُتاب، ولم يعد الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، بل صار الخط الأعوج هو الأقصر والأسرع والأضمن والأفضل والأيسر، وصار «عِلم اللَّوَع أضخم كتاب في الأرض.. بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض» مثلما قال العم «صلاح جاهين».

وصار إعلام الصوت الواحد، والصورة الواحدة، والرجل الواحد، وبيانات الأجهزة الأمنية، هو الحاكم والحَكَم والمتحكم.

وصار الكلام بحساب، والكلمة بميزان، والرأي بحذر، وكان الاختلاف ممنوعًا، والخلاف غير وارد، والنقاش غير مُستحب، والنقد

غير جائز، والاعتراض مرفوضًا، وليس أمامك سوى أن تؤيد، وتبايع، وتوافق، وتنفق، وتلتزم بالتعليمات.

وكان الرئيس يملك الرؤية الواضحة؛ وحوله كبار الكتاب والصحفيين؛ لكن رغم حب «عبد الناصر» للشعب، وانحيازه إلى البسطاء؛ لكنه لم يكن يثق بهم، بل كان يضع ثقته كاملة في أجهزته الأمنية والمعنية، وكانت تقول له: «كله تمام» و«برقبتي يا ريس» و«قبضنا على الخونة والمتآمرين».

وصار أغلبنا يتصور أن النيات الحسنة، والمشروعات العملاقة، والأحلام الكبرى يمكن أن تتحقق من دون ديموقراطية، وظننًّا أننا على بُعد خطوات من الدول العظمى، وأننا ننافس الدول الكبرى، ونسير بجوار اليابان.

ومن لا يصدق، أو يشكّك أو تبدو عليه مظاهر عدم رضا عن النظام، أو عدم الترحيب بقرارات الرئيس كان يتم إبعاده خارج بلاط صاحبة الجلالة.

وكانت قرارات الإبعاد تبدو مثل العدوى تنتقل من صحيفة إلى أخرى، ففي صحيفة «الجمهورية»، أصدر «حلمي سلام» رئيس مجلس إدارة مؤسسة «دار التحرير» قرارًا باستبعاد أربعين من كبار الكتاب والصحفيين بجريدة «الجمهورية» وتوزيعهم على مؤسسات وشركات القطاع العام.

وكان من بينهم «سعد الدين وهبة، وعبد الرحمن الشرقاوي، وعبد الرحمن الخميسي، ومحسن محمد» ولعل السبب الرئيسي في استبعاد أغلبهم هو أنهم أصحاب رأي حر، ويمثلون زعامات داخل الجريدة.

وتم إلحاق هؤلاء الصحفيين بأعمال خارج الصحافة؛ فالبعض ذهب للعمل في شركة «باتا» المتخصصة في صناعة الأحذية، وبعضهم ذهب للعمل في مطار القاهرة، وبعضهم عمل في العلاقات العامة في شركات القطاع العام المتخصصة في اللحوم والأخشاب أو الصفيح لمتابعة إنجازات هذه القطاعات؛ لكن دون المساس برواتبهم، وهذه كانت تعليمات الرئيس شخصيًّا.

القرار كان بمثابة صدمة عنيفة للصحفيين جميعًا، فيومها شعروا أنهم تحولوا -في ظل قانون تأميم الصحافة- إلى موظفين يخضعون للوائح النقل والتأديب مثل موظفي الحكومة، الأمر الذي أكد أن الصحافة المصرية باتت جزءًا من الجهاز الحكومي، وأنها فقدت استقلالها، ولم تعد حرة للتعبير عن الرأي.

لكن المدهش أن بعض الصحفيين الذي تم إبعادهم ونقلهم إلى وظائف حكومية، لم يقبلوا العودة إلى الصحافة حين تم السماح له بذلك، فقد فضل البعض الاستقرار، والمرتب الثابت، والبُعد عن سوط السُّلْطة، وتجنب بحر الرمال المتحركة الذي يسير عليه كل صحفي يعمل في بلاط صاحبة الجلالة.

(٢)

وبدأ «خُدام الرقيب» رحلة الصعود، وظهرت الكائنات الطفيلية في الصحافة.

والطفيليات: كائنات حية تعيش وتتغذى على كائنات أخرى حية، وقد تسبِّب الكثير من الأمراض للشخص الذي تتطفل عليه.

.. و«الطفيلي»: هو ذلك الشخص الذي يأكل من موائد الآخرين دون دعوة.

وللأسف هناك أوجه شبه كثيرة بين الطفيليات، وبعض البشر الذين يتغذون

على الآخرين، ويأكلون على كل الموائد، ويسببون الكثير من الآلام، ومن بين هؤلاء تجد نموذجًا صارخًا ودليلًا فاضحًا على ذلك وهو ذلك الكائن الذي يُدعى «الصحفي المخبر»، فالصحافة على مدار تاريخها عرفت نوعين من محرري «الأخبار»، وبينهما هوة كبيرة وواسعة كالتي بين السماء والأرض:

الأول، المخبر الصحفي: وهو مَن يأتي بالخبر للجريدة التي يعمل بها، ويتحرى الدقة في نقله، ويتسم بالدأب.

ففي خمسينيات القرن الماضي كان من يأتي بالخبر يطلق عليه مخبر صحفي، وكان لدى كل صحيفة عدد كبير من المخبرين يأتون لها بالكواليس والخبايا، والأسرار من شتى المصادر، وكانت «أخبار اليوم» أكثر مؤسسة تعتمد على الخبر، وبالتالي فهي الأكثر اهتمامًا بالمخبر الصحفي باعتباره عينها في كل مكان، وكان لديها شبكة واسعة تأتي بالخبر لحظة حدوثه، وكان «مصطفى أمين» يولي هذه النوعية من المحررين اهتمامًا خاصًا، ومع مرور الوقت تغير المسمَّى، وبقيت المهام، وتعددت الأسماء فصار يطلق عليه مندوب الجريدة في الوزارة أو الهيئة أو المؤسسة، أو المحرر الصحفي باعتباره يحرر الخبر، أو المحرر الميداني الذي يوجد في مواقع الأحداث -العنيفة- ويتابعها عن قُرب.

أما الثاني، فهو «الصحفي المخبر»: وهو من يأتي بالخبر من الجريدة ليبلغه لمصدره الأمني، ويذهب لتغطية الأحداث، ويكون عينًا للأمن، وليس عينًا للقارئ والجريدة. هناك واقعة رواها الكاتب الصحفي «محمد العزبي» تكشف ما كان يجري في كواليس صاحبة الجلالة، فقد سأل «يوسف إدريس» أحد الصحفيين: «مش أنت كنت بتكتب تقارير أمنية؟».

فرد الصحفي بسرعة: «أبدًا أنا كنت بأصلّح فيها أخطاء العربي بس»!

تلك الواقعة وغيرها كثير تقول إن «الصحفي المخبر» ظهر في الصحافة منذ سنوات طويلة؛ لكنه في أول الأمر كان مُحتقَرًا، ومُهمَّشًا، وخائبًا، وتافهًا، ومفضوحًا، والكل يعرفه، ويسخر منه، وذلك قبل أن يرتقي، ويصير المسؤول الأول في بعض الصحف.

(٣)

وفي تلك الأثناء فقدت مصر ثلاث قامات كبيرة، فقد رحل الأديب «عباس محمود العقاد»، ودفن يوم ١٣ مارس، وفي نفس اليوم رحل الكاتب الصحفي «كريم ثابت» المستشار الصحفي للملك فاروق، وقبلهما بخمسة أيام رحل الفنان «عبد الفتاح القصري» الذي فقد بصره، وهو واقف على خشبة المسرح.

وقبل نهاية شهر مارس بدأ بث إذاعة القرآن الكريم من القاهرة؛ لتكون بمثابة أول تسجيل صوتي للقرآن، وتم افتتاحها بأصوات خمسة من كبار المقرئين، واحتفت بها الصحف.

وحدث بعض التغييرات الصحفية قبل نهاية العام، فقد اختار «جمال عبد الناصر»، «خالد محيي الدين» رئيسًا لمجلس إدارة «روزاليوسف»، و«أحمد حمروش» لرئاسة تحرير «روزاليوسف»، و«أحمد فؤاد» مشرفًا على «دار أخبار اليوم».

وفي العام التالي حدثت تحولات كبرى في مسيرة مؤسسة «أخبار اليوم».

١٩٦٥

اختفاء هيكل.. واختفاء إسرائيل!

(١)

في ٢٣ أبريل طلب «علي أمين» من هيكل أن يترك «أخبار اليوم»، ويذهب للعمل معه في «الأهرام»، وعلل ذلك بأن جو العمل في «أخبار اليوم» أصبح ثقيلًا عليه، وقد أصبح ضيِّق الصدر بكل شيء، ويكاد ينفجر في أي لحظة.

واتفقا على أن يكون «علي أمين» مراسلًا مقيمًا في لندن.

وفي مساء ذلك اليوم كان «هيكل» على موعد مع «جمال عبد الناصر» وأخبره بما فعل، ثم أضاف: «إن علي أمين يحمل قلب طفل رغم اندفاعاته أحيانًا» وفوجئ بـ«عبد الناصر» يسأله: «ومصطفى؟!».

فشعر «هيكل» أن لديه شيئًا يعرفه، ولا يريد أن يقوله، ثم حدث بعد فترة شيء أصاب «هيكل» بالدهشة.

كان «هيكل» على موعد مع «جمال عبد الناصر»، فإذا به وسط حديث طويل يقول له: «أنت تتقابل مع مصطفى أمين بطريقة منتظمة، وليس من شأني أن تقابله أو لا تقابله.. هذه مسألة تخصك؛ ولكني أرجوك أن تتحفظ في أحاديثك معه».

وفي ٢١ يوليو كان «هيكل» في بيت «جمال عبد الناصر» مستعدًّا لمناقشة تسبق كتابة خطاب الرئيس في الاحتفال بعيد الثورة، وبعد نصف ساعة من الدردشة العابرة وقبل أن يدخل في تفاصيل الخطاب، دق جرس التليفون على مكتبه، وأمسك بالسماعة، ولم يتكلم «عبد الناصر» بل كان يسمع فقط، ولم يستغرق الوقت طويلًا على التليفون فما لبث أن قال لمحدّثه بنبرة هادئة: «طيب».

ثم وضع السماعة وعاد إلى مقعده، وأشعل سيجارة جذب منها نفسًا عميقًا، ثم قال مخاطبًا «هيكل»: «سأقول لك الآن شيئًا أعرف أنه سيضايقك.. لقد قبضوا على مصطفى أمين متلبِّسًا بالتجسس للأمريكان».

(٢)

وقد روى «مصطفى أمين» تفاصيل ما جرى في ليلة القبض عليه قائلًا: (ساقني القدر في منتصف ليلة سوداء لأدخل «الأوبرج» وكان في استقبالي اللواء حمزة البسيوني، مدير السجون الحربية، وملكها المتوج، والخبير العالمي في شؤون التعذيب، استقبلني ومعه «ميمي» و«ليلي» وهما الكلبان المُعدَّان لاستقبال النزلاء، واستمر هذا النوع من التعذيب أحد عشر يومًا، وفي اليوم الثاني عشر أخذوني ليلًا إلى مكتب اللواء حمزة البسيوني ووجدته في انتظاري، ومع عدد من ضباط صلاح نصر، وأمر كبيرهم أن أخلع ملابسي ليرى آثار التعذيب على جسمي)!

وتابع «مصطفى أمين»: «التفتَ إلى حمزة قائلًا: لا يا حمزة بك، أنتم دللتموه جدًّا. وهنا هوى الشاويش المصاحب لي بالسوط الذي يحمله على صدري بضربة ظللت أتألم منها لمدة عام كامل»!

و«صاح اللواء حمزة البسيوني -والكلام ما زال على لسان مصطفى أمين: لا، حرام! لا تضربوه! هات لاكي.. وظننتُ في أول الأمر أنه طبيب أو ممرض، وفجأة رأيت أمامي كلبًا هائلًا! كلب في حجم الحمار الضخم، ثم أمسك بي كبير ضباط صلاح نصر من كتفي، وقال: اسمع.. بشرفي إن لم تكتب الاعتراف فسنأتي بخطيبتك إلى هنا، وسأجعلها تخلع ملابسها مثلك، وسأعطيها للحراس يضاجعونها أمام عينيك. وانهرت أمام هذا التهديد».

وأردف «مصطفى أمين» قائلًا: «قلت إنني مستعدّ أن أكتب ما تملونه عليَّ! وكانت حصة إملاء! هم يُملون، وأنا أكتب أشياء لم تحدث، كتبتها بغير اعتراض.. أحداث لم تقع.. أكاذيب واضحة، كل هذا كتبته كما أملوه حتى النقاط.. حتى أول السطر! حتى الأغلاط في اللغة العربية! وبعد أن انتهيت من كتابة (الاعترافات) المطلوبة صدر الأمر بعدم ضربي أو تعذيبي لأن التحقيق انتهى»!

ونشرت الصحف خبر إلقاء القبض على «مصطفى أمين» واتهامه بالتخابر مع دولة أجنبية، وتهريب ٢٠ ألف جنيه إلى الخارج.

وقيل إن السبب الرئيسي في القبض عليه هو أنه قال للملحق بالسفارة الأمريكية: «لو منعت أمريكا القمح.. لركع عبد الناصر».

(٣)

وتوقف «هيكل» عن كتابة مقاله «بصراحة» في هذه التوقيت، مما أثار العديد من علامات الاستفهام، والتعجب، والترقب.

كان اختفاء «هيكل» مثيرًا للدهشة، وفتح الباب أمام كل التفسيرات، والتأويلات، لدرجة أن البعض ظن -وبعض الظن إثم- أنه قد تم منعه من الكتابة، بل قال البعض إنه قد تم اعتقاله مع «مصطفى أمين»،

وتساءلت صحف سوريا ولبنان عن سر غياب «هيكل» المفاجئ، لكن المدهش أن صحف إسرائيل احتفت باختفاء «هيكل»!

وتوقع البعض أن «هيكل» أراد أن لا يكون موجودًا في مصر في الأيام الأولى لسجن «مصطفى أمين»، لكنّ المقربين من «هيكل» أكدوا أنه كان في لندن بجوار نجله «علي» الذي كان يُجري عملية جراحية في عينه.

وفي السادس من أغسطس عاد «هيكل» لكتابة «بصراحة» بمقال تحت عنوان «بعد زيارة لندن»، جاء فيه: «لا بد أن أقدم شكري غاليًا وعزيزًا للذين شغلوا أنفسهم بأمري خلال ثلاثة أسابيع لم أكتب فيها هذا الحديث -يقصد بصراحة- أكثرهم، رعاهم الله، قَبِلوا عذري بأنني كنت في لندن لزيارة خاصة، وأكاد أقول شخصية، وأقلهم خصوصًا في صحف دمشق، وفي بعض صحف بيروت، وفي إذاعات إسرائيل تمنّعوا عن قبول هذا العذر، وأصرّوا على أن هناك أسرارًا أخرى».

وأردف «هيكل» قائلًا: «لا أستطيع أن أُنكر على كل حال أنني استمتعت إلى أقصى حدٍّ بكل الضجة التي أثاروها من حولي.. شيء ما فيها كان مُرضيًا لشيءٍ ما فيَّ، لعله الغرور.. أعترف وأستغفر».

(٤)

وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أغسطس امتلأ ميدان التحرير عن آخره بالجماهير التي جاءت لتودِّع «النحاس باشا».

الجنازة انطلقت من مسجد «عمر مكرم»، إلى شارع «طلعت حرب»، ومنه إلى جامع «الكخيا»، وأُقيمت الصلاة عليه في مسجد «الحسين».

كان مشهدًا مَهيبًا، فقد مرت ثلاثة عشر عامًا على ثورة يوليو، وخلال

تلك السنوات كان محظورًا ذكر اسم «مصطفى النحاس» في أي إذاعة أو صحيفة، وبالطبع لم يأتِ ذكر اسمه في التليفزيون، وظنَّ الجميع أن الناس نسوا الرجل الذي ألغى معاهدة ٣٦، وكافح من أجل الدستور، وشرع قانون استقلال القضاء، والضمان الاجتماعي، وغيرها من القوانين التي انتصرت للبسطاء.

ظنَّ البعض أن الثورة محت ما قبلها، وأن فرض الحصار على الرجل يمكن أن يجعله خارج التاريخ، ويتم محو إنجازاته.

لكن جاءت جنازته على نحوٍ لم يتوقعه أحد، فقد كانت بمثابة مظاهرة شعبية حاشدة قوامها نحو مئة ألفٍ أو يزيدون، وهتفوا: «لا زعيم إلا النحّاس.. لا زعيم بعدك يا نحّاس» و«يا حفيد النبي الزين.. جالك الزعيم الزين» و«إشكي لسعد الظلم يا نحاس».

كأن هذه الهتافات كانت تحمل رسالة إلى الزعيم، ووصلت الرسالة إلى «جمال عبد الناصر»!

وصدر قرار باعتقال كبار الوفديين الذين مشوا في جنازة النحاس، وقيل إنه تم توجيه اللوم إلى محافظ الإسكندرية وقتها حمدي عاشور؛ لأنه سمح بإذاعة خبر وفاة النحاس من إذاعة الإسكندرية المحلية.

وفي العام التالي صدرت قرارات أخرى!

١٩٦٦

بـ«الشلوت»

(١)

فجأة صدر قرار بنقل ٣٨ محررًا من «أخبار اليوم» إلى مؤسسات عامة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالعمل الصحفي.

وتوقفت عن الصدور مجلة «بناء الوطن» التي أصدرتها ثورة يوليو لتكون بمثابة توثيق للمشروعات الاقتصادية الجديدة.

وقد شارك في الكتابة بها عدد من كبار الكتاب من بينهم: «فكري أباظة، وكامل الشناوي، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، وموسى صبري».

وفي أكتوبر اقتحم ضباط المباحث منزل «عبد الرحمن الأبنودي»، وتم إلقاء القبض عليه، ومصادرة كل أوراقه، وعصّب عينيه بقطعة من قماش وأخذوه إلى إحدى جهات التحقيق.

وفي أثناء سيره في الطريق إلى المعتقل ظلوا يضربونه بـ«الشلوت» وعلى رأسه حتى وصل إلى مكتب المحقق، وهو لا يستطيع الوقوف على قدمه.

وأُجري معه تحقيق صوري، بعد انتهائه مكث ٣٦ يومًا في سجن انفرادي في القلعة، بلا أي شيء، لا جورنال، ولا ورقة، ولا يرى سوى

بُقعة ضوء تأتي إليه في كل صباح من نافذة الزنزانة، ويظل يلاعبها إلى أن تبهت، وتختفي.

لم يكن «الأبنودي» وحده الذي دخل سجن «عبد الناصر» في هذا التوقيت، فقد سبقته قائمة طويلة من المثقفين، ودخل معه السجن عدد كبير من أصدقائه المقربين، من بينهم «جمال الغيطاني، وسيد حجاب، ومحمد العزبي، وسيد خميس، وصلاح عيسى». وكان من غير المسموح أن يجلسوا أو يتحدثوا معًا.

وقد تركت تجربة السجن أثرًا مدهشًا في هذا الجيل من الصحفيين والمثقفين، فالمبدع الحق -مثلما يقول «الأبنودي»- لا بد أن يمر بثلاث تجارب رئيسية: أن يعيش أجواء الحرب، وأن يدخل السجن، وأن يأنس بالحب، وقد مروا بالثلاث.

فقد كان حائط السجن مثل كرسيّ الاعتراف الذي جعلهم يدركون حجم إيمانهم بما يفعلون، ويختبرون درجة صمودهم، وشجاعتهم، ويضعون كل شيء في حجمه الحقيقي.

وفي أثناء السجن كتب «الأبنودي» الجزء الثاني من قصيدة «أحمد سماعين»، وقد ساعده في ذلك أحد المعتقلين عندما سرَّب له «ورق بَفرا» و«قلم كوبيا» وسجائر، وقد اشترط «الأبنودي» أن يحصل على سيجارة إضافية فوق سيجارتيه من أجل كتابة هذه القصيدة.

وفجأة تم الإعلان عن زيارة المفكر الفرنسي «جان بول سارتر»؛ لكنه طلب أن يتم الإفراج عن المثقفين قبل حضوره، ووافق «عبد الناصر» لكن بشرط!

وهو أن يأتي «سارتر» أولًا إلى مصر، وبعد أن يصعد إلى طائرته، يتم الإفراج عن جميع المثقفين، وهو ما قد حدث في العام التالي.

(٢)

وفي هذه الأثناء، فوجئ قراء مجلة «صباح الخير» برسمة كبيرة عبارة عن باب مفتوح، ويظهر من خلفه «قط» يرتدى نظارة، وبين دفتي الباب رسالة قصيرة تقول:

عزيزي القارئ:

عاد صلاح جاهين إلى «صباح الخير»!

تولى صلاح جاهين رئاسة تحرير المجلة..

وإلى الأسبوع المقبل!

بهذه الطريقة أعلن «أحمد بهاء الدين» رئيس مجلس إدارة «صباح الخير» عن قرار تعيين «جاهين» رئيسًا لتحرير المجلة.

وفي الأسبوع التالي ظهرت الافتتاحية بقلم «صلاح جاهين» وجاء فيها:

(صباح الخير يا.. عزيزي القارئ!

استولى الرسامون الكاريكاتوريون، ومن لَفَّ لفَّهم، على مجلة «صباح الخير».. وأظنك كنت ملاحظًا منذ البداية، بما لديك من الفراسة، والدراية، أن هؤلاء «ناويين يعملوها».. فمنذ اللحظات الأولى لصدور «صباح الخير» بدت للعين الخبيرة «لطع» الكاريكاتير متناثرة هنا وهناك، وسرعان ما ظهر «الفقس» وتكاثرت النُكت والأزجال، والغمزات واللمزات، والمناكفات، والمناغشات، وانتشرت انتشار النار في الهشيم).

وواصل «جاهين» حديثه قائلًا: «عوَّدتك مجلتك صباح الخير، التي يتغنى بحبها الطير، أن تخرج إليك في كل مرة بشيء جديد، ابتسامة

جديدة، تبويزة جديدة، صداقة جديدة، خناقة جديدة، وها هي ذي تخرج إليك الآن بهذا الثوب الجديد الذي نرجو أن يعجبك».

وروى «جاهين» كواليس العدد الأول تحت رئاسته قائلًا: «سهرنا.. حسن فؤاد وأنا.. في بيته بالروضة نصنع هذا الثوب الجديد.. وتذكرنا أول ثوب صنعناه لها قبل أن تولد.. كنا في نفس البيت.. نفس الغرفة.. نفس المكتب.. وكنا نجلس متقابلين.. كل منّا على نفس المقعد في نفس الناحية.. كنا نفس الإنسانين.. بنفس الإيمان ونفس التفاهم ونفس الحماس، ولكننا لم نكن نفس العمر».

وأردف قائلًا: «في هذه المرة كنا أكبر بأحد عشر عامًا.. حسن أصبح أسمن قليلًا.. والعبد لله أصبح أعقل قليلًا»!

غيَّر «جاهين» وجه «صباح الخير»، وتلفحت بخفة ظله، وتأنقت بشِعره، وتألقت بحيويته، وفي عدد واحد فقط ظهر «أحمد بهاء الدين، وفؤاد حداد، ومحمود السعدني، وعلاء الديب، ومصطفى محمود، ورؤوف توفيق، ومفيد فوزي»، علاوة على الفنانين «حجازي، وجورج بهجوري، وإيهاب، وناجي، وحسن فؤاد».

فقد تسلم «جاهين» المجلة وتوزيعها ٢٦ ألف نسخة داخل مصر، وخمسة عشر ألف نسخة خارجها، وخلال أشهر قليلة قفز توزيع «صباح الخير» إلى سبعين ألف نسخة داخل مصر وخارجها، وبلغت الأحلام عنان السماء، وكانت مصر تغني مع «عبد الحليم حافظ»:

«صورة، صورة، صورة.. كلنا كده عايزين صورة
صورة للشعب الفرحان.. تحت الراية المنصورة».

لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، ففجأة هبطت الأحلام إلى أسفل سافلين في العام التالي!

١٩٦٧

ولا يهمّك يا ريّس!

(١)

في مساء يوم الخامس من يونيو خرجت الصحف تقول:

- **أسقطنا ٨٦ طائرة**
- **الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب**
- **قواتنا تتوغل داخل إسرائيل**

وكانت الإذاعة لا تذيع إلا بيانات الإذاعي الكبير أحمد سعيد، وذهب أغلب نجوم الغناء في مصر والوطن العربي إلى استديوهات الإذاعة، وسجّلوا عشرات الأغاني منها: «أبو خالد يا حبيب.. بكره هندخل تل أبيب» و«إنذار يا استعمار» و«ولا يهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس» و«مضيق تيران.. يوم الخلاص.. قرّب خلاص».

وتلك الأغاني لم تُذع إلا لثلاثة أيام فقط، وفي اليوم الرابع خرج جمال ليعلن التنحي، وضاعت عشرات الأغاني لكبار المطربين، والشعراء، والملحنين، وذهبت سُدى، ولم يعد لذكرها أثر؛ بل إنها لم تُذع بعد نصر أكتوبر باعتبارها فألًا سيئًا.

في تلك اللحظة استيقظ الجميع على الحقيقة المفزعة والمؤلمة والقاسية وأعلن الرئيس مسؤوليته الكاملة عما جرى وقرر التنحي، لكن الشعب

رفض، وأعاده إلى مقعده ليبدأ واحدة من أفضل المعارك التي خاضها الجيش، وهي حرب الاستنزاف التي كبّدت العدو خسائر فادحة وكانت مقدمة لنصر أكتوبر، وفي تلك الفترة بدأت مراجعة النفس، والأفكار، والمعتقدات السائدة قبل النكسة، وبدأ المخلصون يعرضون أفكارًا جديدة ومختلفة، ويواجهون الرئيس وينتقدونه بقوة.

لكن لم يُجب أحد عن السؤال الأهم: هل لو قال «أحمد سعيد» الحقيقة كانت ستذيع الإذاعة بياناته؟ وهل لو كتب «جلال الحمامصي» محذرًا كان سيُسمح له بالنشر؟ وهل لو غيَّر «فتحي غانم» مانشيتات جريدة «المساء» كانت المطابع ستطبع الجريدة؟!

(٢)

وهبط توزيع مجلة «صباح الخير» إلى ثمانية آلاف نسخة فقط في الداخل والخارج، وساد الجميع الحزن ليس على المجلة وحدها ولكن على مصر بأسرها، ولم يذهب «جاهين» إلى المجلة.

وفي تلك الأثناء اتصل «لويس جريس» مدير تحرير المجلة بـ«صلاح جاهين» وسأله: «إيه الحكاية يا عم صلاح؟». فرد ضاحكًا: «مقلب.. مش كده؟ تعيش وتاخد غيرها»!

فعلّق «لويس» قائلًا: «ماينفعش يا عم صلاح، حنرجع نرتفع تاني».

وفي يوم ١٢ يونيو اتصل «جاهين» بصديقه «لويس جريس» وقال له: «لويس.. أنا راجع للأهرام، وتركتُ لك هدية في درج المكتب اليمين»!

وذهب «لويس» إلى «صباح الخير» وجلس على مقعد «صلاح جاهين»، وفتح الدرج اليمين، فوجد رسمًا بيانيًا يسجل نمو وارتفاع

توزيع مجلة «صباح الخير» خلال الفترة التي كان فيها «جاهين» رئيسًا لتحريرها.

وخرج «جاهين» من «صباح الخير» ولم يَعُد.

(٣)

وبعد خمسة أشهر فقط من الهزيمة، وافقت كوكب الشرق «أم كلثوم» أن تغني في باريس، فاتصل بها «برونو كاكوتركس» مدير أكبر وأهم مسرح في العاصمة الفرنسية ليتفق معها على المقابل المادي الذي ستحصل عليه. فسألته: كم أجر «إديث بياف»؟ (أكبر مطربة فرنسية في ذلك التوقيت، وواحدة من أهم علامات الغناء في العالم)، فأجابها: تحصل على ١٠ ملايين جنيه في الحفلة. فقالت له: «إذن أحصل أنا على ٢٠ مليونًا في الحفلة، وهاغنّي أغنيتين فقط.. وربما ثلاثًا»!

فذُهل الرجل من حجم المبلغ، وذُهل أكثر حين علم أنها ستغنّي أغنيتين فقط، فهو لم يسمع عن أغنية زادت مدتها على ١٠ دقائق، فظن أن الحفل سينتهي في ٢٠ دقيقة!

وهنا تدخل الأديب «محمد سلماوي» الذي لعب دور المترجم بينه وبين سيدة الغناء، وشرح له أن مدة الأغنية الواحدة تصل إلى ساعة ونصف الساعة. فهدأ الرجل، ووافق على شروط كوكب الشرق.

لكنه ظل قلقًا أن لا يأتي الحفل بالعائد المنتظر منه، خصوصًا أنه لم يكن يعرف عن أم كلثوم سوى أنها مطربة كبيرة في بلدها، واقترب موعد الحفل، ونصف التذاكر ما زال متبقيًا، لم يشتره أحد.

وفجأة تغيّر كل شيء بمجرد أن وطئت قدم «أم كلثوم» مطار «شارل ديجول»، وقالت كلمتين فقط: «أيوه هاغنّي».

فتأكد الجميع أن سيدة الغناء ستغني لأول مرة في أوروبا بعد النكسة؛ فنفدت التذاكر قبل أن تصل «أم كلثوم» إلى غرفتها في الفندق، وجاء الجمهور من كل حدب وصوب، والطائرات حملت الجماهير من كل أنحاء العالم؛ ليسمعوا «أم كلثوم» في عاصمة النور.

وأجرت «أم كلثوم» بروفاتها الأولى داخل مسرح «الأوليمبيا»، وسمعها مدير المسرح للمرة الأولى، ولم يُصدق ما سمع، فذهب إليها، وطبع قُبلة على يدها.

وجاء يوم الحفل، واحتشد الجمهور داخل المسرح، وأبدع «جلال معوض» في تقديمها كعادته؛ لكن الحماس سيطر على صوته، وكلماته من فرط الأجواء الملتهبة فقال: «اليوم أم كلثوم تغنّي في باريس.. وقريبا تغنّي في القدس المحتلة».

وصفقت الجماهير، واشتعل المسرح، وانزعج مدير المسرح ومنظِّم الحفل وذهب إلى «محمد سلماوي»، واصطحبه إلى غرفة «أم كلثوم» ليخبرها بانزعاجه مما فعله «جلال معوض» وأنه ليس في مناسبة سياسية ليتحدث عن القدس.

وقبل أن يبدأ «سلماوي» في الترجمة فهمت أم كلثوم ما يريده الرجل، وردت عليه محتدّة: «لا يا أستاذ.. إحنا في مناسبة وطنية.. وأنا جاية أغنّي هنا عشان بلدي.. ودخْل الحفلة دي سيذهب للمجهود الحربي.. وعمومًا عشان أرفع عنك الحرج أنا متنازلة عن اتفاقنا.. وممكن ماغنّيش النهارده لو هنزعجك.. ولو صممت على رأيك».

فصمت الرجل ولم ينطق، واستدارت كوكب الشرق موجهة كلامها

إلى فريق العازفين المصاحب لها: «لّموا الآلات يا ولاد.. مش هاغنّي النهارده».

وكأن سهمًا أصاب الرجل في قلبه، لم ينطق إلا بكلمة واحدة، وانصرف بعدها فقد قال لها: «موافق».

وخرجت سيدة الغناء، وصعدت إلى المسرح، وغنّت كما لم تغنِّ من قبل، وقدّم «معوض» الوصلة الثانية بنفس الحماس، وذات الطريقة، كأن مصر حققت انتصارًا فنيًّا وثقافيًّا على العدوان في قلب باريس!

وطال الحفل حتى الثانية من صباح اليوم التالي، وكانت هذه أول مرة تتأخر فيها حفلة إلى هذا الموعد في باريس.

وأفردت مجلة «الكواكب» عددًا خاصًّا عن «أم كلثوم»، ورحلتها إلى باريس، ورصدت أدق التفاصيل التي حدثت خلال تلك الزيارة، وما كتبته الصحف الفرنسية «لوموند» و«لوفيجارو» و«باري سوار»، وماذا قال مراسلو وكالات الأنباء العالمية ومحطات الإذاعة والتليفزيون الذين احتشدوا من كل عواصم العالم ليشهدوا الحدث الكبير الذي أطلقوا عليه اسم:

- المعجزة الخارقة

١٩٦٨

شيء من الخوف

(١)

في الحادي والعشرين من شهر فبراير، هتف طلاب مصر «لا صدقي ولا الغول عبد الناصر هو المسؤول»، وذلك احتجاجًا على نتائج محاكمة قائد سلاح الطيران «صدقي الغول» المتهم الأول في هزيمة ١٩٦٧.

وطاردت قوات الشرطة الطلاب، وقامت باستخدام الأعيرة النارية التي أدت إلى سقوط الكثيرين منهم، بل إنها أدت إلى إصابة بعض ممن تابعوا الاشتباكات من الشرفات -على حد وصف الدكتور ثروت عكاشة- وكانت المفارقة الطريفة التي صاحبت هذه الأحداث؛ هي إشادة وزير الداخلية «شعراوي جمعة» بدور قوات الشرطة في فض المظاهرات من دون إطلاق عيار ناري واحد ومن دون إصابة أي مدني، وأعلن أنه ولأول مرة في التاريخ المصري تقع الإصابات في صفوف قوات الشرطة لا في صفوف المتظاهرين!

(٢)

وفي صباح يوم الأربعاء الثامن والعشرين من فبراير عقد مجلس نقابة الصحفيين اجتماعًا طارئًا لمناقشة تطورات الموقف على أثر مظاهرات الطلبة التي انضمّت إليها الجماهير.

وحضر الاجتماع «أحمد بهاء الدين، وكامل زهيري، وفتحي غانم، وعلي حمدي الجمال، وسعيد سنبل، وصلاح الدين حافظ، وصبري أبو المجد، ومحمود المراغي، ومنصور القصبي، وسامي داوود»، واعتذر عن عدم الحضور «طلعت شعث».

وجرت مناقشة واسعة حول الأحداث، ودور الصحافة في هذه المرحلة، واتفق مجلس النقابة على إصدار مذكرة ورفعها إلى المسؤولين، جاء فيها: «إن مجلس نقابة الصحفيين يعتقد أن المظاهرات التي قام بها طلبة الجامعات والعمال كانت تعبيرًا عن إرادة شعبية عامة تطالب بالتغيير على ضوء الحقائق التي كشفت عنها النكسة.. وبناءً عليه يجب الإسراع في حساب كل المسؤولين، وتعميم هذا الحساب حتى يشمل كل القطاعات والمؤسسات في البلاد، ويجب توسيع قاعدة الديموقراطية، والإسراع في إصدار القوانين المنظِّمة للحريات العامة».

ووقّع الحاضرون على البيان، وقبل إذاعته رن جرس الهاتف في مكتب نقيب الصحفيين، ووجد أن المتحدث هو الوزير حسن فايق وزير الإرشاد القومي، وقال الوزير للنقيب: «إن المطلوب هو عدم إذاعة أي بيان من نقابة الصحفيين».

ورد نقيب الصحفيين قائلًا: «آسف يا سيادة الوزير لأن القرار ليس قراري وحدي، ولكنه قرار مجلس النقابة».

وانهالت الاتصالات على مكتب «أحمد بهاء الدين»، من بينها اتصال من «علي صبري» الذي قال له: «بصفتي أمين الاتحاد الاشتراكي أرجو عدم إصدار هذا البيان».

وجاء رد نقيب الصحفيين حاسمًا: «إن الاتحاد الاشتراكي قد يكون مالكًا للمؤسسات الصحفية، ولكنه لا يملك نقابة الصحفيين».

وفي الساعة التاسعة مساءً توجه «أحمد بهاء الدين» حاملًا البيان مكتوبًا بخط يده، وقام بكتابته على الآلة الكاتبة، وفي صباح اليوم التالي كانت هناك نسخة من البيان على مكتب الرئيس «جمال عبد الناصر».

واعتبر «عبد الناصر» أن البيان طعنة موجَّهة إليه من نقابة الصحفيين، واقترح البعض القبض على «أحمد بهاء الدين»، واقترح البعض الآخر القبض على عدد من أعضاء مجلس نقابة الصحفيين؛ لكن «جمال عبد الناصر» علّق على تلك الاقتراحات قائلًا: «لا تقبضوا عليه.. ده أحمد بهاء الدين وأنا عارفه.. مخه كده».

(٣)

وارتفعت حدة النقد في الصحف، وتعرض «محمد حسنين هيكل» لعاصفة من الهجوم، وطلب «سعيد سنبل» عضو مجلس نقابة الصحفيين الدعوة لاجتماع طارئ لمجلس النقابة للاحتجاج على تمييز «الأهرام» بالانفرادات، والمساعدات المالية عن بقية الصحف.

لكن «أحمد بهاء الدين» ردَّ قاطعًا: «إذا كنتم تريدون أن نجتمع في مجلس نقابة الصحفيين لمهاجمة هيكل فأنا غير مستعدّ لذلك، لأنه لو كان أي واحد في مكانه أو موقعه وحصل على ما حصل عليه من أخبار

لما وزعها على بقية الصحف، وعمل على الانفراد بنشرها في جريدته، أما إذا كان الاجتماع من أجل الاتجاه إلى الرئيس عبد الناصر الذي يخص بهذه الأخبار المهمة صحيفة دون أخرى، فأنا مستعد لعقد اجتماع المجلس فورًا».

(٤)

وفي نفس التوقيت كان الفنان «صلاح ذو الفقار» يبحث عن قرية تشارك بكل أبنائها في تمثيل فيلم جديد للمخرج حسين كمال.

وظل «ذو الفقار» فترة يبحث عن ضالته حتى وجدها في إحدى قرى محافظة القليوبية التي وافق عمدتها، ولكن بشرط أن يقوم المنتج بإنشاء «هاويس» لأهل القرية، فوافق «ذو الفقار» على دفع ثلاثة آلاف جنيه تكلفة بناء هاويس للقرية، ووافق العمدة على أن يشارك أهل القرية في الفيلم.

كان هذا الفيلم هو «شيء من الخوف» عن قصة الأديب «ثروت أباظة»، وبطولة «شادية ومحمود مرسي ويحيى شاهين»، وحوار «عبد الرحمن الأبنودي» الذي غيَّر معالم القصة لتخدم الصورة السينمائية البديعة التي رسمها «حسين كمال»، تلك الصورة المحفورة لـ«عتريس» الذي يقمع أهل بلده، لكنه يضعف أمام حبه لـ«فؤادة» التي وقفت مع أهل قريتها ضده، و«فتحت الهاويس».

ذلك المشهد التاريخي الذي لم يشارك فيه مجاميع من الكومبارس، لكن شاركت فيه قرية بأكملها من أجل تلك اللحظة التي انتظرها آلاف الأهالي طويلًا من أجل «فتح الهاويس» الذي أعاد الحياة إلى القرية، لذلك جاءت الاحتفالات صادقة وحقيقية وواقعية، وبلا أي ذرة من تمثيل.

هذا الفيلم وحده يكفي كل من شارك فيه فخرًا أنه كان شجاعًا في مواجهة النظام الحاكم.

فالكل كان يعرف أن «فؤادة» ترمز إلى مصر، وأن «عتريس» هو صورة لـ«جمال عبد الناصر»، لكنه رغم ذلك لم يُمنَع، ولم يُمانع «عبد الناصر» في عرضه، بل إنه هو من وافق عليه.

(٥)

في ١٦ أكتوبر كتب «ياسر عرفات» رئيس حركة «فتح» وقتها -والرئيس الفلسطيني في ما بعد- في مجلة «آخر ساعة» مقالًا بعنوان: «حركة فتح.. بناها الشباب» وفي نفس العدد أجرت مجلة «آخر ساعة» استفتاء تحت عنوان: «أول استفتاء داخل عقول ٥ آلاف شاب».

وضم الاستفتاء أربعين سؤالًا تناولت قضايا، ومشكلات، واتجاهات، وتقاليد، وأفكار، وأماني، وأحلام الشباب المصري.

ومن بين الأسئلة كان سؤال حول الأبواب التي يُقبل الشباب على قراءتها في الصحافة، وجاءت الإجابة بهذا الترتيب:

- **أخبار العمل الفدائي.**
- **أخبار الناس.**
- **الصفحة الأولى من الصحف.**
- **التحقيقات الصحفية والسياسية.**
- **اليوميات.**
- **أخبار الرياضة.**

وسألت المجلة الشباب: ماذا تفضّل في قراءتك؟

وجاء الجواب كالآتي:

- الجرائد العربية ٣٤٪.
- الجرائد الأجنبية ١١٪.
- المجلات ٢٧٪.
- الكتب الأدبية ١٢٪.
- الكتب العلمية ٨٪.
- الشِّعر ٨٪.

وطرحت «آخر ساعة» سؤالًا حول أحب النجوم إلى الشباب في كل المجالات، وجاءت الإجابة كالتالي، وبالترتيب الذي ذكره الشباب:

الغناء «أم كلثوم- عبد الوهاب- فريد الأطرش- محمد رشدي» (لاحظ عدم وجود عبد الحليم حافظ)!

الممثلون «شكري سرحان- أحمد مظهر- رشدي أباظة» (لاحظ عدم وجود فريد شوقي)!

الممثلات «سعاد حسني- هند رستم- شادية» (لاحظ عدم وجود فاتن حمامة).

القصة «نجيب محفوظ- يوسف السباعي- إحسان عبد القدوس» (لاحظ أن السباعي هو رئيس تحرير المجلة).

الرياضة «طه إسماعيل- رفعت الفناجيلي- حمادة إمام» (لاحظ عدم وجود صالح سليم).

لكن السؤال اللافت في الاستفتاء كان للبنات، ويقول: هل أنتِ مُدخنة؟ ومتى يمكن أن تفكري في التدخين؟

وجاءت الإجابة أن عددًا لا يعد على أصابع اليد الواحدة قلن إنهن يقمن بتدخين السجائر، وأخريات لا يُدخنّ، وإنما يفضلن الزوج الذي يُدخن، وأخريات على استعداد للتدخين ولكن بعد الزواج!

ولم يتكرر هذا الاستفتاء مرة أخرى.

(٦)

وفي تلك الأثناء سافرت «أم كلثوم» إلى بيروت لإحياء حفلتين في مهرجان بعلبك الدولي يُخصص إيرادهما للمجهود الحربي.

وظهرت لأول مرة على صفحات جريدة «الأخبار» «نُص كلمة» لأحمد رجب، وجاء فيها: «استمعت إلى مذيعات مطار روما يعلنَّ عن مواعيد قيام ووصول الطائرات، وكأنني أستمع إلى صوت فيروز يشدو بنغم منساب! وسمعت مذيعات مطار فيينا كأنهن يغنين للمسافرين أغنية حالمة عذبة لطفل يوشك على النوم! وسمعت المذيعات في مطار القاهرة فندمتُ ندمًا شديدًا لأنني أجريت عملية استئصال للوزتين.. لا للأذنين»!

ونشرت «الأخبار» أخطر جزء في «مذكرات جيفارا» تحت عنوان:

- **جيشنا يتضاعف حماسة دون أن يتزايد عدده**

وأسهمت تلك المذكرات في رفع الروح المعنوية للجنود؛ لكن في العام التالي حدث ما رفع معنويات الشعب والجيش معًا!

١٩٦٩

أغبطك على موتك!

(١)

.. وجاء صباح يوم السبت الثامن من مارس.

وانطلقت نيران العسكرية المصرية على طول خط الجبهة لتكبِّد الإسرائيليين أكبر قدر من الخسائر في ساعات قليلة، ودمرت جزءًا من مواقع خط بارليف، وتمكنت من إسكات بعض مواقع مدفعيته في أعنف اشتباك شهدته الجبهة منذ يونيو ١٩٦٧.

وفي صبيحة اليوم التالي قرر الفريق «عبد المنعم رياض»، رئيس أركان حرب القوات المسلحة حينذاك، أن يتوجه بنفسه إلى الجبهة، وحين حاول البعض إثنائه قال: «إذا حاربنا حرب القادة في المكاتب بالقاهرة فالهزيمة ستكون محققة.. إن مكان القادة الصحيح هو وسط جنودهم، وفي مقدمة الصفوف الأمامية».

وذهب «عبد المنعم» ليشارك جنوده في مواجهة العدو، وتابع تفاصيل المعركة عن قرب، وأسهم في رفع الروح المعنوية للجيش، وقال لجنوده: «أخطاء الصغار صغيرة، ويمكن معالجتها ما دامت بغير قصد، أما أخطاء

الكبار فإنها دائمًا كبيرة».

ولم يكتفِ «رياض» بذلك بل قرر أن يقود المعركة من الموقع «٦٦» ذلك الموقع الذي كان أكثر المواقع المصرية قربًا من نيران العدو، وأول موقع فتح نيرانه على العدو، فلم يكن يبعد عن مرمى النيران الإسرائيلية سوى ٢٥٠ مترًا فقط.

وفجأة انهالت نيران العدو على الموقع الذي كان يقف فيه «عبد المنعم رياض» بين جنوده، واستمرت المعركة نحو ساعة ونصف الساعة إلى أن أُصيب الفريق «رياض» بقذيفة مدفع، ليلقى ربه.

ونشرت الصحف تفاصيل استشهاد البطل «عبد المنعم رياض»، فاشتعل حماس الشعب والجيش، وشعر الناس أن القادة تغيَّروا، وأحسّ الجنود أن المستحيل ممكن.

وصدرت الأوامر لبعض الجنود بعبور القناة في وضح النهار لأول مرة، وأعلنت مصادر أجنبية أن المدفعية المصرية أطلقت نحو ٥٧ ألف طلقة تجاه خط بارليف مما أدى إلى تحطيم أجزاء كبيرة منه.

وكتب «يوسف السباعي» مقالًا بعنوان «عبد المنعم رياض.. استُشهد بطلًا» جاء فيه: «عبد المنعم رياض صديق عمر يربو على الثلاثين عامًا منذ أن التقينا في مستهل الحياة، ونحن طلبة في الكلية الحربية، وليس من السهل أن يداوم الإنسان على صداقة ما بنفس الحرارة، والمودة مع فرقة الأيام، والبعد الذي تحتِّمه ظروف العمل إلا إذا تميز الصديق بقدرٍ من صفاء القلب، ورحابة الصدر، ونقاء النفس، ولُطف المعشر، وذكاء العقل بحيث لا تستطيع الأيام أن تُوهن من قوة الصلة، وعمق المودة التي تشد الإنسان إليه».

واستطرد «السباعي» قائلًا: «لقد مات عبد المنعم رياض كما عاش.. ميتةً طيبةً.. لقد عرف كيف يعيش.. باسمًا.. شجاعًا.. والأبطال يموتون ميتة الأبطال».

وأردف «السباعي» مخاطبًا «عبد المنعم رياض»: «مِتَّ في أول صف.. بين الجنود.. ووسط نيران المعارك.. فلم تُنصف نفسك فحسب، بل أنصفت جيلك، وأنصفت بلدك، وأنصفت قوميتك العربية.. إنك بموتك قد جعلت من أقوالنا أفعالًا».

واختتم «السباعي» مقاله قائلًا: «لا أملك إلا أن أبتلع مرارة حزني، وأهنئك على استشهادك، وأغبطك على ميتتك المشرفة الطيبة، وأدعو الله أن يكرمنا بمثل ما أكرمك، فلقد قدمت بها لجيلك، ولأمتك ولقوميتك الشيء الكثير».

(٢)

وفي نفس اليوم طرحت مجلة «آخر ساعة» فكرة مختلفة للنقاش تحت عنوان:

- نحن الآن سنة ٢٠٠٠

وقدمت المجلة تحقيقًا علميًّا فريدًا من نوعه، أجابت فيه عن عديد من الأسئلة منها: «كيف تبدو الحياة سنة ٢٠٠٠؟ وكيف تتشكل ملامحها بعد هبوط الإنسان فوق القمر؟ ومحاولاته الأخرى لغزو الفضاء؟».

وتابعت: «إن أطفال اليوم سيكونون رجالًا سنة ٢٠٠٠، والذين سيعيشون حتى عام ٢٠٠٠ سيشهدون حياة مختلفة تمامًا، تبدو الآن كأنها حياة بعيدة التصور، وبعيدة عن الخيال، وبتصور علمي صادق، ومبنيٌّ

على الحقائق والأرقام.. تصور عدد من علماء الحياة والطبيعة والفضاء والكيمياء ورجال الاقتصاد والسياسة».

ورصدت المجلة تصور مجموعة من علماء الطبيعة والكيمياء والفضاء والاقتصاد عن الحياة عام ٢٠٠٠.

وتوقع التحقيق أن يكون في استطاعة ربة البيت أن تدخل محلًا به رف يحمل أكياسًا أشبه بأكياس بذور الزهور، تحتوي على أجنّة متجمدة عمرها يوم.واحد، وعليها أوصاف الجنين، ومنها: لون عينيه، وشعره، وحجمه المحتمل، ودرجة ذكائه، وضمان خلوه من الأمراض الوراثية؛ فتأخذه لطبيبها ليزرعه لها في الرحم كأنه ابنها الطبيعي.

وتوقعت المجلة أيضًا أن عدد سكان مصر في عام ٢٠٠٠ سيصل إلى ٧٨ مليون، وسيكون متوسط دخل الفرد هو ٣٦٠٠ دولار، وأن مصر ستكون من أفضل ١٩ دولة على مستوى العالم.

(٣)

وفي تلك الأثناء، ذهب «عبد الرحمن الأبنودي» بصحبة صديقيه «سيد حجاب»، و«سيد خميس» لزيارة وزارة السد العالي، حيث كانت في نفس الشارع الذي يسكن فيه «الأبنودي»، وكان وقتها «سيد حجاب» قد نشر قصيدة جديدة في «الأهرام» (في مربع «صلاح جاهين») وعندما وصل الثلاثة إلى الوزارة وجدوا الموظف المسؤول عن رحلات السد في الوزارة، محتفظًا بقصيدة «حجاب» تحت زجاج مكتبه، فعندما شاهدوا ذلك، قالوا «كده ضمنّا إننا هنروح السد العالي مرتاحين».

لكن عندما طلبوا من الموظف الذهاب إلى السد العالي ليكتبوا عنه، قال لهم: «لا تتفاءلوا كثيرًا إحنا مش في الاتحاد السوفيتي الذي يُرسل الشعراء والكُتاب إلى المشاريع القومية، وأنصحكم بأن لا تحاولوا مرة أخرى، فلن تذهبوا».

وبالفعل تم رفض الزيارة، وعاد الثلاثة؛ لكن «الأبنودي» كرر المحاولة مرة أخرى.

وسافر إلى السد العالي حين كانت الرحلة تستغرق يومين، ومكث مع العمال من أبناء قريته «أبنود» سبعة عشر يومًا، ولم تكن هناك سوى طريقة واحدة فقط «للاستحمام»، وهي أن تملأ صفيحة مياه من نهر النيل، وتغتسل بها، وتنتظر الملابس حتى تجفّ، ولم يكن هناك طعام سوى «المِشّ»، والملوخية الناشفة.

وعاد «الأبنودي» من تلك الرحلة الشاقة بديوان «حراجي القط.. العامل في السد العالي».

الفصل الثالث

أنتم عاوزين صحافة مدرسة مصطفى وعلي أمين في «أخبار اليوم» اللي بتقولك تدخل على الوزير تضرب بابه برجليك.. دي مدرسة لا مؤاخذة ماتنفعش عندنا!

أنور السادات

١٩٧٠

الصلاة على «عبد الناصر»

(١)

في يوم الخميس ١١ سبتمبر أُصيب «جمال عبد الناصر» بأزمة قلبية؛ لكنه تعافى منها، واستقبل بعدها عدة وفود عربية.

وبعد سبعة عشر يومًا.. وفي تمام الرابعة والنصف ودَّع «جمال عبد الناصر»، أمير الكويت بمطار القاهرة، ثم شعر بحالة من الإعياء الشديد، فغادر المطار عائدًا إلى بيته، وفور وصوله أصيب بانخفاض حاد في ضغط الدم.

وفي الساعة السابعة أكد الأطباء حدوث انسداد في الشريان التاجي أعقبته صدمة قلبية أدت إلى وفاة «جمال ع د الناصر».

وفي الثامنة مساءً عقد أنور السادات نائب الرئيس، اجتماعًا طارئًا بمنزل الرئيس الراحل شارك فيه الفريق «محمد فوزي» وزير الحربية، و«شعراوي جمعة» وزير الداخلية، و«سامي شرف» وزير الدولة، و«محمد حسنين هيكل» وزير الإرشاد القومي، و«حسين الشافعي» وزير

الأوقاف، و«علي صبري».

وتم الاتفاق على دعوة مجلس الوزراء واللجنة التنفيذية للاتحاد الاشتراكي لإعلان النبأ، وتقرر أن تكون الجنازة في العاشرة صباح يوم الخميس الأول من أكتوبر، وأن يُدفن الرئيس في المسجد الجديد بحي منشية البكري الذي يسكنه.

وتحركت الجنازة من مبنى قيادة الثورة بالجزيرة تُحمل فوق عربة مدفع تجرها ستة من الجياد يتبعها حَمَلة الأوسمة، ثم رؤساء الوفود، وكبار المشيعين، وبعد دقائق من سير الجنازة اندفعت إليها جموع الشعب وتحولت إلى جنازة شعبية.

أربع ساعات سيرًا على الأقدام، وعشرات الكيلومترات قطعها الشعب المصري بكل طوائفه من حي «الجزيرة» إلى «منشية البكري»، الأجداد والأحفاد، الآباء والأمهات، الشيوخ والشباب، النساء ارتدين الملابس السوداء، والرجال غلبتهم الدموع، وذلك من أجل أن يُلقي كل واحد منهم نظرة الوداع على «جمال».

سكن الحزن في كل بيت، وفي كل قلب، وأقام البسطاء في كل ميدان سرادق عزاء.. الكل يبكي، ويتألم، ويتوجع، والدموع تنهمر رغمًا عن الجميع، ولا أحد يصدق أن «الهرم الرابع مات» -مثلما وصفه نزار قباني.

لكن الناس لم تبكِ على الزعيم، ولا الرئيس، ولا القائد، ولا المعلِّم؛ بل بكت على الأب، والأخ، والسند، وكبير العائلة، فالبسطاء كانوا يعزّون أنفسهم، فكل واحد منهم كان يشعر أنه قد فقد واحدًا من عائلته، ومن أقرب الأقرباء إلى قلبه.

(٢)

وفي اليوم التالي جاءت مانشيتات الصحف كالتالي:

«الأهرام» (رئيس تحريرها محمد حسنين هيكل):

- **عبد الناصر في رحاب الله**

وخرجت «الجمهورية» (ورئيس تحريرها فتحي غانم) تقول:

- **«الخُلد لك يا ناصر»**

بينما خرج عنوان «الأخبار» (ومدير تحريرها محمد التابعي، ورؤساء تحريرها أحمد الصاوي محمد، وحسين فهمي، ومحمد زكي عبد القادر، وموسى صبري) يقول:

- **يوم الوداع**

وفي صباح يوم السبت كان مانشيت «أخبار اليوم» (ورئيس تحريرها إحسان عبد القدوس) يقول:

- **«الصلاة على عبد الناصر»**

وأسفل هذا المانشيت عنوانان آخران:

- **صلاة الغائب على روح عبد الناصر في جميع مساجد العالم الإسلامي.. والملوك والرؤساء يشتركون في الصلاة**

- **٢٠ ألف عربيٍّ يسيرون إلى المسجد الأقصى بالقدس المحتلة لأداء الصلاة**

وأفردت مجلة «صباح الخير» (ورئيسا تحريرها محمود السعدني ولويس جريس) عددًا خاصًّا عن «جمال عبد الناصر» تحت عنوان:

- «المبادئ لا تموت»

وهذا ما فعلته أيضًا مجلة «المصور» في عددين عن «عبد الناصر»، الأول: صدر في الأسبوع الأول لرحيله، والثاني: في الثامن من نوفمبر تحت عنوان: «١٨ سنة خالدة»

واللافت أن افتتاحية المجلة كانت بقلم الرئيس أنور السادات الذي كتب مقالًا تحت عنوان «هذا عملك جمال».

وقبل أقل من شهرين من رحيل «عبد الناصر» كان قد تم الانتهاء من بناء السد العالي، وتم تكثيف العمليات العسكرية ضد العدو، وقام رجال القوات البحرية المصرية بتفجير قطعتين من الأسطول البحري الإسرائيلي مُحملتين بالدبابات والجنود.

(٣)

وفي الثامن من أكتوبر كان مانشيت جريدة «الأخبار» يقول:

- **«بيان أنور السادات إلى الشعب»**

وأسفل هذا المانشيت عناوين أخرى منها:

- **أعلن لكم بشرف أنني سأواصل السير على طريق عبد الناصر**
- **غياب البطل يعني أن المسؤولية تصبح كلها واجب الجماهير**

وفي الثامن عشر من أكتوبر قال الرئيس «السادات» في أول بيان له بعد انتخابه رئيسًا:

- **«لا ينبغي لهذا الشعب أن يضع ثقته المطلقة لفرد بعد عبد الناصر»**

وفي اليوم التالي قال «السادات»:

- «أَعِدكم أن أكون للجميع.. من قالوا نعم.. ومن قالوا لا»

(٤)

في هذا التوقيت تصدَّر غلاف مجلة «الكواكب» عنوان يقول:

- «مذكرات تحية كاريوكا» بقلم «صالح مرسي»

وفي صباح اليوم الأول لنشر المذكرات، ذهب «صالح مرسي» إلى مقهى «بترو» بالإسكندرية مبكرًا، فوجد أمامه «نجيب محفوظ» و«توفيق الحكيم» وأمامهما البحر بكل امتداده، والكورنيش خالٍ من المارة، ومن السيارات في ذلك الوقت من الصباح.

وفي المقهى عدد من الرواد لا يزيد على أصابع اليدين، وعندما اقترب منهما كان كلٌّ منهما ساهمًا، وكل منهما يضع تحت يده فوق المائدة عددًا من «الكواكب» التي كانت قد صدرت في هذا اليوم.

ألقى «صالح» بالتحية، فجاءه الرد فاترًا، وجلس إليهما فإذا بالفتور يسري إليه، ظن أن ثمة ما يشغلهما، فهمَّ بالانصراف، فإذا بـ«توفيق الحكيم» يهتف فيه غاضبًا:

«إيه اللي انت عملته ده يا أستاذ؟!».

وبدت كل علامات الدهشة على وجه «صالح» قبل أن يقول مخاطبًا «الحكيم»: «هو أنا عملت إيه يا أستاذ؟!».

فصاح «الحكيم» قائلًا: «ليه سمّيت اللي انت كاتبه ده كاريوكا؟!».

فرد «صالح» قاطعًا، وهو مذهول: «لأنها تحية يا توفيق بك».

فإذا بـ«نجيب محفوظ» يقاطعه والأسى يقطر من بين شفتيه: «طب ما تسمِّيها (قصة راقصة) يا أخي»!

نظر إليهما «صالح» وهو لا يعي ما يسمع، وانهال عليه التقريع من كليهما، لكنه أنصت في إجلال ليتعلم درس عمره من العم «نجيب محفوظ» الذي مال نحوه وقال له: «اللي انت كاتبه ده أدب.. أنا لو سميت (اللص والكلاب) «محمود سليمان» -الذي أطلقوا عليه لقب السفاح في الستينيات- ماكانتش بقت رواية»!

ثم أشعل العم «نجيب» سيجارة حان موعدها، وقال في ابتسامة حانية: «وبرضه كانت حتبقى كاريوكا، مش حد تاني»!

لقد منحه سر الصنعة، وتعلم «صالح مرسي» الدرس الأهم في عمره، وربما كان ذلك اليوم هو مفترق الطرق الذي غيَّر مجرى حياته لينتقل من قاصٍّ جيد إلى صانع أدب جديد.

كانت مذكرات «كاريوكا» هي البداية، لكن «صالح مرسي» قاوم كتابتها كثيرًا؛ فقد كانت المرة الأولى في نهاية الخمسينيات حين ذهب إلى «كاريوكا» وقال لها «نفسي أكتبك» فوافقت، وهرب ونسي أو تناسى.، ثم عاد وكرر الطلب بعد تسع سنوات، فوافقت ثم اختفى للمرة الثانية، لكنه عاد بعد أسابيع قليلة ليبدأ معها تسجيل رحلة حياتها في عشرين ساعة، لتُنشر في مجلة «الكواكب»؛ لكن المدهش أن هذه المذكرات لم تُنشر في كتاب، بل إنها اختفت!

١٩٧١

محظور من صفحة الوفيات!

(١)

أعلن الرئيس «السادات» أن هذا عام الحسم، وأن المعركة مع إسرائيل حتمية.

ولما تأخر الحسم، اشتعلت المظاهرات الطلابية تنديدًا بحالة اللا سلم واللا حرب، وشارك فيها عدد كبير من المثقفين، من بينهم الدكتور «عبد الوهاب المسيري» الذي قام بحملة لجمع توقيعات من الأساتذة تأييدًا لمظاهرات الطلبة.

وكتب الدكتور «فؤاد زكريا» بيانًا وقَّع عليه عدد من كبار مثقفي مصر، وكان «المسيري» من أوائل الموقِّعين، وقد ظن رئيس جامعة القاهرة أنه المسؤول عن البيان فاستدعاه إلى مكتبه، وأخذ يعنِّفه لأنه تسبب في إغلاق الجامعة، فجاء رده حاسمًا قاطعًا: «لا فائدة من جامعة مفتوحة في بلد محتل».

(٢)

وبعد أشهر قليلة وقعت قصة العام بلا منافس!

ونشرتها جريدة «الأهرام» بتوقيع «محمد حسنين هيكل».

القصة بدأت في ٢٠ أبريل عام ١٩٧١ حين ذهب ثلاثة من رجال «عبد الناصر» إلى جلسة «تحضير أرواح» لاستشارة الجن في مستقبلهم السياسي!

الثلاثة هم «الفريق محمد فوزي، وزير الحربية الأسبق، واللواء شعراوي جمعة، وزير الداخلية الأسبق، وسامي شرف، سكرتير الرئيس عبد الناصر»، وقد تم تسجيل الجلسة!

وما حدث في ٢٠ أبريل تكرر في ٤ مايو من نفس العام، وتم تسجيله أيضا، ويومها قام الرئيس «السادات» بإرسال التسجيلات في منتصف الليل مع ابنته إلى الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، لينشر نص التسجيلات التي تُدين رجال «عبد الناصر» في جريدة «الأهرام»، لكن «هيكل» تردد في نشرها، وذهب إلى المفكر الكبير «توفيق الحكيم» ليُطلعه عليها.

ويروي «هيكل» تفاصيل ما جرى بقوله: «أعطيت توفيق الحكيم جلستين من جلسات تحضير الأرواح منقولتين بالحرف على الورق كما نطقت بها أصوات أصحابها على أشرطة التسجيل المغناطيسية. وقرأ توفيق الحكيم، ثم قال لي: لو أنني كتبت مثل هذا في رواية لا تّهمني الناس بأنني شربت نهر الجنون إلى آخر قطرة. ثم شرد لدقيقة مع خواطره، وعاد يقول: إنني مع النشر.. إن أسبابك للنشر أقوى من أسبابك في الامتناع عنه». هنا قرر «هيكل» النشر.

قد تُصدِّق الواقعة وقد ترى أن التسجيلات مُختلَقة، لكن الثابت الوحيد أن لدينا على هذه التسجيلات شاهدين هما «توفيق الحكيم ومحمد حسنين هيكل»، وهناك ثلاثة أسباب تؤيد صحة هذه الواقعة:

أولها، أن الرئيس السادات اختار «هيكل» دون غيره ليرسل إليه التسجيلات التي ستكون مبررًا في تصفية رجال «عبد الناصر».

ثانيها، أن «هيكل» اختار «توفيق الحكيم» ليكون شاهدًا على التسجيلات، رغم أنه بعد عام واحد فقط من نشر التسجيلات صار كلاهما طرفًا في معركة كبيرة بسبب هجوم «الحكيم» على «عبد الناصر».

ثالثها، أن الدجال (وكان يعمل أستاذًا جامعيًّا!) الذي ذهبوا إليه أوحى إليهم بأن يتقدموا باستقالاتهم، بهدف عمل فراغ دستوري، ليضعوا «السادات» في مأزق يضطر بعده إلى الرضوخ لهم، وقد فعلوا ذلك بالفعل في ١٥ مايو، أي بعد الجلسة الثانية لتحضير الأرواح بـ١١ يومًا فقط.

لكن العرَّاف لم ينفعهم؛ فالسادات مثلما استطاع أن يخترق الجلسة بوضع أجهزة «التنصُّت» في حضرة ملك الجن، يبدو أنه «جَنَّد» العرَّاف نفسه، لينصحهم بتقديم استقالاتهم التي كان في انتظارها، فقَبِلَها على الفور، وأصدر قرارًا باعتقالهم، وبرَّر ذلك بعبارته الشهيرة «دُول المفروض يتحاكموا بتهمة الغباء السياسي»!

(٣)

وعلى خلفية ما جرى في ١٥ مايو صدر قرار بالقبض على الكاتب الساخر «محمود السعدني» رئيس تحرير مجلة «صباح الخير» السابق.

وذهب «السعدني» إلى النائب العام، وتم توجيه عدة اتهامات إليه منها أنه روى أكثر من نكتة سخر فيها من رئيس الجمهورية.

وفي ١٦ ديسمبر صدر الحكم بحبس «محمود السعدني» خمس سنوات، بتهمة محاولة قلب نظام الحكم.

وصعد «السعدني» إلى سيارة الترحيلات مع بعض المحكوم عليهم إلى سجن القناطر، وحين اقترب من السجن ظنَّ -وبعض الظن إثم- أنه سيقضي العقوبة في واحدة من القرى السياحية ذات الخمس نجوم.

فالمظهر الخارجي للسجن يوحي أنه مكان شاعري يصلح لتجول العشاق والمحبين، فأشجار السرو العالية تُخفيه عن العيون، وأشجار الجميز العتيقة تحفّه من كل جانب.

ولكن مَن تطأ قدمه البوابة الخارجية للسجن يجد نفسه فجأة في مكان أشبه بمعسكرات الاعتقال؛ أسوار غليظة تعزل السجن عن العالم، وأبراج حراسة مزودة بالكشافات، والحراس مزودون بالمدافع الرشاشة، وفي فناء السجن يتجول الحراس وقد نزع النظام الصارم المفروض على السجن قلوبهم من صدورهم -على حد تعبير «السعدني»- وتسلحوا بالعصيّ الغليظة والسياط، ومع الحراس تتجوّل عشرات من الفئران الضخمة التي تفر القطط من أمامها، وتفسح لها الطريق، فهي تقرض كل شيء، خشب المقاعد، وأبواب الزنازين، وتتحول في النهاية إلى طعام يشارك في حل أزمة اللحوم داخل السجن؛ فالمسجونون القدماء ينصبون الفخاخ لصيدها وشيّها على النار؛ ويُقسم الذين شاركوا في وجبة الفئران هذه أنها ألذ ألف مرة من اللحوم التي تقدمها إدارة السجن.

في أثناء وجود «السعدني» في السجن صدر قرار بفصله من مؤسسة «روزاليوسف»، وبمنعه من الكتابة، وحظر نشر اسمه في الصحف حتى في صفحة الوفيات!

(٤)

وفي تلك الأثناء قرر الرئيس «السادات» رفع القيود التي كانت مفروضة على سفر الصحفيين إلى الخارج، فكان لا يسمح لهم بالخروج هم وأسرهم إلا بعد موافقة الداخلية.

وانتقل الأديب «يحيى حقي» من رئاسة تحرير مجلة «المجلة» ليصبح كاتبًا متفرغًا في جريدة «التعاون».

وقد لعب «حقي» دور كشاف المواهب، واستطاع خلال السنوات الثماني التي قضاها في «المجلة» أن يجعل منها منبرًا للمعرفة، ووجهة للمواهب اللامعة من الشباب في القصة والشعر والنقد والفكر.

وبمجرد أن علمت «الأهرام» بترك «يحيى حقي» لـ«المجلة» طلبت منه الانضمام إليها بالمبلغ الذي يحدده؛ لكن «حقي» اعتذر قائلًا: «يا ليتكم قلتم لي قبل ذلك بأيام، فقد تعاقدت مع جريدة التعاون».

بالطبع كانت بمثابة الصدمة لكل من علم برفض «يحيى حقي» الكتابة في «الأهرام» وتفضيل جريدة عمالية محدودة التوزيع؛ لكن صاحب «قنديل أم هاشم» كان يرى أن الكتابة للعمال ضرورة وطنية لا تقل عن الكتابة للمثقفين أو للعالم العربي كله.

وقيل إن سببًا آخر كان وراء رفض «يحيى حقي» الانضمام لكبار الكتاب في «الأهرام».

فحين سُئل عن سبب رفضه قال: «إنني في (الأهرام) سأكون واحدًا من طابور العظماء الذين يكتبون بالجريدة، إنما في (التعاون) أنا المَلِك».

لكن مرت الأيام، وتعثرت الحالة المادية لـ«يحيى حقي».

فعاود بعض أصدقائه في «الأهرام» الاتصال به، وتجديد العرض مرة أخرى، بالمبلغ الذي يريده، وفي اليوم الذي يحدده، وبالمساحة التي يريدها، إلا أن «حقي» انفعل بشدة، وصرخ في وجه صديقه «سامي فريد» -سكرتير تحرير «الأهرام»- الذي قدم له العرض، قائلًا: «أنت كمان؟ عاوزين منّي إيه؟ هو أنت صدّقت إني باشحت؟».

وظل «حقي» -الذي لم يحصل على حقه- على عهده يكتب في جريدة «التعاون» دون أن يأخذ مليمًا واحدًا!

١٩٧٢

أشباح خائفة

(١)

كانت معركة العام!

بطلها: «جمال عبد الناصر».

أطرافها: توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ في جبهة، ومحمد حسنين هيكل، ومحمد عودة في جبهة أخرى، وبينهما لويس عوض، وآخرون.

في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «عودة الوعي» قال المفكر «توفيق الحكيم»: «غضب الناصريون داخل مصر وخارجها وهاجوا وماجوا كما لو أن الناصرية دينًا مقدسًا لا ينبغي المساس به، وكما لو أن عبد الناصر فوق مستوى البشر، ليس لمخلوق أن يحاسبه على خطأ، ولو كان شخص جمال عبد الناصر هو المقصود لكان من واجبنا التسامح، ولكنت أول المطالبين بالترحم على ذكراه، وعدم إزعاجه في مثواه؛ ولكن عبد الناصر ليس شخصًا واسمًا.. إنه فترة حكم طويل دمغ مصر كلها بطابع معين، ولم يزل هذا الطابع من بعده يدمغ لحم مصر كأنه الوشم الذي يطمس معالم ما تحته».

وتابع «الحكيم»: «لا بد من فتح ملف ثورة ١٩٥٢ بأكملها، والهدف

من هذا هو فتح العيون على الأخطاء والكوارث حتى نتجنبها ونحن نبني مصر من جديد.. ولكن الناصريين الراكبين على حصان عبد الناصر يفزعون من مجرد ذكر فتح الملف.. لماذا؟ أترك الجواب لفطنة من يحب الحقيقة، ويريد لبلاده أن تُبنى على الصدق، وليس له غرض آخر أو مرض، ولن أكفَّ عن المطالبة بفتح الملفات وكشف الحقائق مهما يسخط الساخطون».

وقرر الكاتب الكبير «محمد عودة» أن يفنِّد ما قاله «الحكيم» بقوله: «لا يليق بكاتب أن ينغمس في عصرٍ إلى آخره، ويعيش كل أحداثه ويبارك إنجازاته ثم يخرج بعد نهايته وبعد قيام عصر آخر يرى أنه نقيضه ليعلن أنه سقط وأنه فقد وعيه خلال كل العصر، بهرته أضواء شديدة زائفة، وأعمته عن الحقيقة، ودفعته إلى تمجيد الباطل، وهو لا يطلب سوى التوبة والغفران.. لقد كانت سقطته كبيرة، وهو يكفِّر عنها بأن يعلن أن كل شيء كان دجلًا وعارًا، وزورًا انطلى على العامة والخاصة معًا.. وذلك ما فعل الأستاذ توفيق الحكيم، وقد أعلن أنه في المدة ما بين ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ونفس التاريخ عام ١٩٧٢ فقد وعيه تمامًا، ولم يكن يرى حقيقة الأمور، وأنه استردَّ هذا الوعي.. على أصحاب الشأن أن يسامحوه، وبالطبع أن يعتمدوه، ووعيه الآن في يده، وهو يستطيع أن يتصرف فيه»!

ويستطرد ساخرًا بقوله: «في العصر الفاسد كان توفيق الحكيم يحتل أرفع مكان يحتله كاتب، بل كان الكاتب المفضل المدلل».

ويروي «الحكيم» السبب وراء ما كتبه فيقول: «لم يكن في عزمي ولا نيتي الإذن بنشر هذه الصفحات يوم كتبتها في ذلك اليوم هو انقضاء ٢٠ عامًا على ثورة ١٩٥٢ وتأملي هذه الفترة من تاريخ بلادي، والجو من حولي مكفهرٌّ بالأحداث الأليمة، جعلت أسترجع ما وعته ذاكرتي من

صور الثورة، ومن صلتي بها، وأحاسب نفسي من خلال محاسبتي لها ولم أُطلِع أحدًا على هذه الصفحات».

وتابع «الحكيم»: «أردت أن أدسها بين أوراقي الخاصة، واعتبرتها مذكرات تحدد على الورق مشاعري الشخصية تجاه تلك الحقبة؛ لأن مواقف أهل الرأي التي يجب أن تعلَن هي التي تكون في أثناء الأحداث وفي صميمها -إن استطاعوا- وليس بعدها، ولذلك بقيتْ هذه الصفحات خطية مطوية إلى أن شاءت ظروف في مناسبة من المناسبات أن أُطلع عليها صديقًا قديمًا أثق به كل الثقة، فاستأذنني في استخراج نسخة من المخطوطة يحتفظ بها لنفسه، وكان أن استنسختها على آلة كاتبة، وإذا بعددٍ من النسخ قد تسرّب، حتى إن مجلة فرنسية محترمة قد نشرت ترجمة غير كاملة عن نسخة من تلك النسخ المتسربة، ثم علمتُ أن إحدى الجرائد في لبنان قد نشرت عن النص الفرنسي، وهنا عزمتُ على أن أقاضي قانونيًا كل الذين نشروا هذه الصفحات؛ لكن بعد التروي واستشارة الأصدقاء من أهل الفكر تم الاتفاق على أن أصرِّح بالنشر ما دام النشر قد وقع بالفعل».

ويرد «عودة»: «كل من يعمل بالثقافة أو الكتابة في مصر أو من يعنيهم الأمر يعرفون أن القصة مختلفة تمامًا، وأن الكاتب الكبير استدعى ذات يوم اثنين من الكتاب المعروفين كل منهما على حدة، وسلّم كل منهما نسخة وطلب من كل منهما أن يقرأ ما فيها ثم أن يستنسخ عددًا منها، وأن يوزعها على عدد من الكتاب سمّى أسماءهم.. وقرأ أحدهما (الكتيب) ولم يهتز له، ولم يملك إلا أن يبدي له رأيه فيه، وأنه ليس ذا قيمة، وليس شهادة حقيقية على العصر، ونفذ الكاتب الثاني ما طلبه (الأستاذ)، وتسربت النسخ بعلم كاتبها وتدبيره، وتبين بعدئذٍ أنهما لم يكونا الوحيدين موضع الثقة والسر».

(٢)

وتحت عنوان «مغامرة اليمن» كتب «الحكيم» يقول: «إن تاريخ حرب اليمن سيُكتب يومًا في صفحات صادقة لنعرف حقيقة ما جرى هناك، وماذا كانت النتيجة التي خرجنا بها؟ من المؤكد أنه بالإضافة إلى الأرواح التي ضاعت من جيوشنا وتقدَّر بعشرات الآلاف من الرجال، فإن المعروف أيضًا أن غطاء الذهب الذي نملكه قد ضاع بأكمله في هذه الحرب الضائعة، وضاع معه أملنا في تحسين أحوالنا»!

أما «عودة» فيرى أن «جمال عبد الناصر» لم يفشل في حرب اليمن وتظل كل الأخطاء ثانوية إزاء العمل الكبير الذي تحقق.

ويتحدث «الحكيم» عن «عبد الناصر» قائلًا: «لقد أصبح معبود الشعب، فهذه كانت أول مرة في تاريخ مصر الحديث يحدث أن يظهر معبود أراد أن يكون لإرادته في كل البلاد العربية من القداسة والعظمة والسُّلْطة ما لم يكن يملكه الأنبياء والرسل؛ فالأنبياء والرسل كانوا يجدون من يجادلهم، ويناقشهم، ويعارضهم».

أما «عودة» فيذكِّرنا بما كتبه «الحكيم» بعد وفاة «عبد الناصر» بقوله: «كتب توفيق الحكيم مرثية تمجِّد البطل الذي ذهب، وطالب بأن يقام له على الفور تمثال في أعلى مكان (ليظل بيننا دائمًا) ودفعه أقصى الحماس أن يتبرع من ماله بخمسين جنيهًا ويقول: هذه الخمسون من الجنيهات أسهم في قائمة الاكتتاب، وما أرخص المال إلى جانب فضلك يا جمال، وستبقى دائمًا في ذاكرتنا وأنت في عِلِّيِّين»!

ولم ينكر «الحكيم» أنه قال هذا الكلام؛ لكنه يضيف: «بعد أن توفي عبد الناصر جاءتني خطابات محبِّذة متأثرة مثلي بالعاطفة،

وجاءتني قِلة من الخطابات مترددة، ثم وجدتُ خطابًا يقول فيه صاحبه إنه موافق على إقامة التمثال؛ ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس القاهرة بل في تل أبيب(!!)؛ لأن إسرائيل لم تكن يومًا تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضاري إلا بفضل سياسة عبد الناصر».

(٣)

ولم يكن الأستاذ «محمد حسنين هيكل» بعيدًا عن أجواء المعركة، فقد كتب يقول: «كل من كتب، وكل من تكلم، كان موجودًا أيام عبد الناصر، وأشهد عليهم جميعًا، وأبسط شيء يمكن أن يقال لهم إنهم كانوا أشباحًا خائفة، أشباحًا ضعيفة، مَن يملك الشجاعة لا ينتظر الموت ليمارس شجاعته.. الشجاعة الحقيقية هي أن يقف الإنسان أمام الحياة، ويتحدى، لكن مَن لا يستطيع أن يهمس رأيه إلا بعد الموت، حتى يتأكد أن أحدًا لن يرد عليه، فليس في موقفه هذا نوع من الشجاعة، فضلًا عن أن الذين كتبوا مذكرات، مع الأسف الشديد، وبالرجوع إلى مواقفهم جميعًا، لم يكن هنا أسبق منهم إلى حرق البخور أمام عبد الناصر»!

ورد «الحكيم» قائلًا: «استلفت نظري أن الأستاذ هيكل المدافع عن عبد الناصر قد رد على نفسه بنفسه حين وصف مَن نقدوا اليوم حكم عبد الناصر بأنهم كانوا أشباحًا خائفة ضعيفة، وهذا صحيح. لكن هل توجد الأشباح الخائفة الضعيفة إلا في جوٍّ من الفزع والرعب؟ لماذا إذن لا توجد أشباح خائفة ضعيفة في بلاد مثل فرنسا وإنجلترا وغيرها من البلدان التي لا يعيش أهلها في الرعب والهلع من التعذيب والمعتقلات والاعتداء على الأعراض؟».

ويضيف الحكيم: «أما عن شجاعة الناقد الذي ينقد لأنه متأكد أن أحدًا لن يرد عليه، فليطمئن الأستاذ هيكل إلى أن مَن يتعرض لقداسة عبد الناصر في مصر وغير مصر سوف يجد من يهبّ للدفاع عنه بالحق والباطل، ذلك أن الراكبين على جواد عبد الناصر في كل مكان هم دائمًا أكثر الرابحين، إنها حيل مألوفة للتشويش على الاتّهام لصرف النظر عن جوهر التهمة ليفلت المتهم».

ودخل «نجيب محفوظ» إلى ساحة المعركة برواية «الكرنك» تلك الرواية التي تعرض فيها لما كان يحدث في سجون «عبد الناصر» من تعذيب بأحطّ أنواع الأساليب، فهاجمه «عودة» قائلًا: (لقد قال أحد الزعماء ذات يوم «إذا سكت أعداؤنا عن مهاجمتنا فلا بد أن نقلق وأن نراجع أنفسنا» وهذه الحملة هي أفضل اعتراف بأن عبد الناصر ما زال حيًا وقاهرًا، وليست هناك تحية لعبد الناصر أفضل من أن يتصدر الحملة كتاب ساقطون أو ما دون السقوط؛ لكن هذا هو توفيق الحكيم كما لا يعرفه الكثيرون، ويشترك معه نجيب محفوظ في الكثير من الصفات».

ويُنهي «عودة» كلامه قائلًا: «لا يضير عبد الناصر أن يُكتب ضده بضعة كتب صفراء حمقاء، إن ما يُكتب عنه في الجانب الآخر لا ينتهي، ولن يضيره كتابان ضده خصوصًا وهما يعلنان سقوط كاتبين جازا على الناس لبعض الوقت».

(٤)

وتحت عنوان «وعينا الضائع والمفقود بين توفيق الحكيم ومحمد عودة» كتب الكاتب «عباس أحمد صالح» يقول: «توفيق الحكيم هو أقرب الكتاب الكبار إلى اليسار الوطني، ولعل كتابته كانت ضرورية لكي ينتقل الفكر العربي إلى المفاهيم الثورية الحديثة.. واستقطبت ساحة

المعركة الناصري الكبير كامل زهيري الذي قال: لم يخْلُ تاريخ عظيم من هنات أو كبائر، وليس هذا يُغضب أحدًا، ولكن الذي يُغضب، ويؤلم حقًا أن نبتعد عما نسميه الموضوعية أو ما يسميه الحكيم في فلسفته التي طلع بها علينا ذات يوم التعادلية على الرغم من أن ما كتبه الحكيم في عودة الوعي لا علاقة له بالموضوعية، ولا بالإنصاف، ولا بالتعادلية».

ونزل الدكتور «لويس عوض» ساحة المعركة حين قال: «توفيق الحكيم أكبر نقاد الناصرية الشرفاء، وما كتبه نموذج مهم للنقد الذاتي، فتوفيق الحكيم منذ كتابه (عودة الروح)، وهو صاحب نظرية (الزعيم المعبود) الذي به وحده تُبعث مصر حسب رؤيته، وتوفيق الحكيم يعلم أن المعبود لا يناقَش، فإذا كان اليوم يناقشه فمعنى هذا أنه وصل أخيرًا في تفكيره السياسي إلى ضرورة تحطيم كل المعبودات.. فهل انتهى توفيق الحكيم حقًّا إلى الحل الديموقراطي؟».

وينتقل للحديث عن «هيكل» -وتحديدًا عن ذلك الحوار الذي أجراه مع الكاتب اللبناني «فؤاد مطر» تحت عنوان «بصراحة عن عبد الناصر»- بقوله: «هيكل أكبر دعاة الناصرية الشرفاء؛ لكنني وجدتُ الكتاب مُربِكًا؛ لأني توقعت أن أجد أشياء كثيرة لكني لم أجدها.. كنت أنتظر من هيكل أن يراجع موقفه من بعض مقومات الناصرية لسبب بسيط، وهو أن كل ما يجري الآن في المجتمع المصري داخليًّا وخارجيًّا على غير ما يرضى به الأستاذ هيكل، بدليل أن تنحيه ليس إلا نتيجة مباشرة لفشل الناصرية دعوةً ومواقف».

وفي العام التالي توقفت المعارك الفردية من أجل المعركة الأسمى والأهم والأبقى.

١٩٧٣

إسـرائيل في ذهول

(١)

كانت مصر تغلي من فورة الغضب بعد أن ألقت الشرطة القبض على مئات من الكُتاب، والصحفيين، والعمال.

وجمع «توفيق الحكيم» عددًا كبيرًا من الكُتاب ورجال الفكر في مكتبه بجريدة «الأهرام»، وكتب بخط يده عريضة وقَّع عليها «نجيب محفوظ، وصلاح جاهين»، وبقية المجتمعين لتقديمها للرئيس «السادات»، وجاءت في تلك العريضة جملة جعلت الرئيس يستشيط غضبًا، وهي: «لقد كثر الكلام عن المعركة دون معركة حتى صارت المعركة مضغة في حلوقنا لا نستطيع أن نبتلعها، ولا نستطيع أن نلفظها».

وقبل أن تصل العريضة إلى «السادات» نشرها بعض الصحف الأجنبية؛ فغضب الرئيس، وأصدر قرارًا بعزل كل الموقِّعين على البيان من مناصبهم باستثناء «الحكيم، ومحفوظ، وجاهين».

وصدر قرار من الاتحاد الاشتراكي بإسقاط عضوية عدد كبير من الصحفيين من بينهم: «يوسف إدريس، ومحمد عودة، ولويس عوض وألفريد فرج، ومحمود أمين العالم، ومحمد العزبي، وجمال الغيطاني، ومكرم محمد أحمد، وصلاح عيسى».

وبذلك تم حرمانهم من العمل بالصحافة؛ إذ كان شرط العمل بالصحافة أن يكون عضوًا بالاتحاد الاشتراكي، ثم صدر قرار آخر بفصل مجموعة أخرى من بينها «ثروت أباظة».

(٢)

وحاول الكاتب الصحفي «أحمد بهاء الدين» التوسط لدى الرئيس، ولم تفلح محاولاته، بل صدر قرار بنقله هو الآخر من جريدة «الأهرام» إلى هيئة الاستعلامات، وذهب «بهاء الدين» إلى وزير الداخلية «ممدوح سالم»، وجلسا معًا، وقال «سالم» لـ«بهاء»: «إن كل التقارير التي تتلقاها أجهزة الأمن ضد الصحفيين يكتبها صحفيون منكم».

فردّ «بهاء» قائلًا: «هذا طبيعي، فأدق التقارير عن الطلبة لا بد أن يكتبها طلبة، وهكذا في كل مجال، ونحن نعرف الصحفيين الذين يحترفون كتابة التقارير السرية لأجهزة الأمن ضد زملائهم، ولكنكم لو تحريتم عنهم قبل أن تأخذوا بكلامهم لعرفتهم أنهم من أردأ نوعيات الصحفيين الفاشلين المملوءة قلوبهم بالضغينة ضد كل صحفيٍّ ناجح».

وردّ وزير الداخلية قائلًا: «نحن نعرف ذلك، ولكن هل تتوقع من صحفي مستقيم حسن الخلق، ابن ناس، وناجح في عمله أن يكتب تقارير للمباحث نظير أجر؟! هات لي عشرة من هؤلاء ولو كانوا خريجي أوكسفورد يرضون أن يكتبوا تقارير للمباحث، وسوف تستغني المباحث

فورًا عن النوعية التي تكتب التقارير الآن».

.. وضحك الاثنان!

وفي هذا التوقيت أصدر الرئيسان حافظ الأسد والقذافي قرارًا بتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل قائد القوات المصرية، قائدًا عامًا للقوات المسلحة الليبية والسورية، فكانت واحدة من علامات المعركة.

(٣)

وجاء يوم السادس من أكتوبر...

وخرجت مانشيتات الصحف صباح اليوم التالي تحمل بشارة النصر والعبور وتقول:

«الأهرام». «قواتنا عبرت القناة.. واقتحمت خط بارليف».

«الأخبار»: «عبرنا القناة.. ورفعنا علم مصر.. والأسرى بالمئات».

«الجمهورية»: «إسرائيل في ذهول».

وفي يوم الاثنين الثامن من أكتوبر وصفت وكالة «الأسوشيتد برس» الأمريكية نتائج العمليات الحربية في برقية بعثت بها من تل أبيب نقلًا عن المراقبين العسكريين الإسرائيليين جاء فيها: «سير القتال في اليوم الثاني كان حرجًا للغاية بالنسبة إلى القوات الإسرائيلية».

وفي صباح يوم الثلاثاء كان المانشيت الرئيسي لجريدة «الأخبار» يقول:

- إسرائيل تعلن انسحابها إلى خط دفاع جديد.. سيطرنا تمامًا على الضفة الشرقية للقناة

وفي يوم الرابع عشر من أكتوبر، أعلنت إسرائيل أن مصر تستخدم تكتيكًا جديدًا في الحرب بقوات الكوماندوز، وقال قائد إسرائيلي للصحفيين إن القوات الخاصة المصرية تدخل سيناء من كل مكان، وبكل الوسائل، بالهليكوبتر، وبالقوارب، وعلى الأقدام.

وفي اليوم التالي هدد الرئيس الأمريكي نيكسون بالتدخل في الحرب لحماية إسرائيل واستقلالها، وقامت إسرائيل باستدعاء ضباط خدموا في حربي ١٩٤٨ و١٩٥٦.

وأعلنت واشنطن أن إسرائيل خسرت خلال عشرة أيام فقط ثلث طائراتها ومدرعاتها، وفي يوم الثامن عشر من أكتوبر خرجت الصحف تقول: - **أضخم معارك الحرب حتى الآن دارت بالأمس وما زالت تدور في سيناء**

- **قتال شرس تشترك فيه مئات الدبابات تعاونها السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة والطيران والدفاع الجوي**

ووضع الكاتب الساخر «أحمد رجب» تصورًا للامتحانات في مدارس تل أبيب بعد هزيمة إسرائيل جاء فيها:

من امتحانات اللغة في إسرائيل بعد ٦ أكتوبر:

أولًا- قواعد اللغة: أوجد الفاعل في العبارتين التاليتين:

(أ) يتقن الإسرائيليون اللغة العبرية.

(ب) يتقن المصريون اللغة العبورية.

ثانيًا- الإنشاء: اكتب في أحد الموضوعين الآتيين:

١- عُدتَ من الحرب دون أن تقتل أو تظهر في أي تليفزيون عربي.. اكتب أسباب هجرتك من إسرائيل.

٢- هب أنك موشي ديان.. اكتب استقالتك.

(٣)

وفي يوم الجمعة، التاسع عشر من أكتوبر، خرج سبعة رجال في مهمة خاصة جدًا كانوا يعلمون أنه ذهاب بلا عودة.. القائد كعادته يسير أمامهم، وبدا كأنه ذاهب للقاء ربه.

يسير بخطى ثابتة وواثقة نحو قوات العدو؛ ليواجه قرابة ٥٠٠ دبابة، وآلاف الجنود الذين تحرسهم الطائرات.

أيقن الأبطال السبعة أنهم مُقبلون على الموت، فقرروا أن يقذفوا الرعب في قلب العدو قبل أن يلاقوا ربهم.

وصعد أربعة منهم فوق قواعد الصواريخ، وأعطى قائدهم «إبراهيم الرفاعي» الأوامر بضرب القوات الإسرائيلية بمدفع ٥٧ مترًا، وفتح الأبطال وبينهم قائدهم النيران على قوات العدو، وعندما شاهد العدو دخان المدفع، ظن أن قوات الصاعقة المصرية قد حاصرتهم؛ فأرسل قائد قوات العدو «شارون» عدة استغاثات يطلب النجدة من تل أبيب!

ثم أمر «شارون» قواته بالبحث عن قائد المجموعة المصرية، وتصويب المدافع عليه، ولاحظوا أن هناك رجلًا يقف بين الجنود يبدو من هيئته أنه قائدهم، ويعلق في رقبته ثلاثة أجهزة اتصال فعرفوا أنه القائد وأخرجوا مجموعة كاملة من المدفعية لمواجهته؛ فقفز أعضاء المجموعة من أعلى قاعدة الصواريخ، وحاولوا جذب «الرفاعي» من ملابسه ليختبئ معهم؛ ليكون بعيدًا عن مرمى نيران العدو.

لكن «الرفاعي» أبى أن يختبئ، ورفض أن يحني هامته على أرضه، وظل يوجه سلاحه صوب العدو حتى أصابته شظية مدفع.

فصعد رجال المجموعة «٣٩» وحملوا «الرفاعي» على أعناقهم ووضعوه في سيارة، ليذهبوا به إلى المستشفى؛ لكن نيران العدو ظلت تلاحقهم، واشتدت ضرباته في اتجاههم؛ لكنهم أقسموا أن يحملوا «الرفاعي» معهم، ويذهبوا به إلى أقرب مستشفى؛ لكنهم لم يبلغوا القادة أنه أصيب.

لكن حين وصلوا إلى أقرب تجمع للجنود المصريين، ولم يكونوا يعرفون وجه «الرفاعي» من الدماء، لكنهم علموا أنه القائد من حذائه المميز الذي كان يرتديه كعادته، فأبلغوا القيادة عبر اللاسلكي.

فعلم العدو أن «إبراهيم الرفاعي» قد أصابته نيرانهم، فأطلقوا الهاونات الكاشفة احتفالًا بهذه المناسبة، فقد رصدت إسرائيل جائزة ٧٠ مليون دولار لمن يحضر «الرفاعي» حيًّا أو ميتًا!

ووصل «الرفاعي» إلى مستشفى الجلاء وحضر الطبيب وكانت الدماء تملأ صدره، وقال الطبيب لرجال «الرفاعي»: «دخّلوا أبوكم»، فأدخلوه غرفة العمليات، وألقوا عليه نظرة الوداع، وقبّلوا جبينه، وخرجوا.

وذهب «الرفاعي» للقاء ربه، يوم الجمعة، وهو صائم، والمصحف في جيبه المجاور لقلبه، وتسلم رجاله جثمانه بعد ثلاثة أيام، وقالوا إن جثمانه ظل دافئًا، وتنبعث منه رائحة المسك حتى وُري الثرى.

ولم تستطع إسرائيل أن تدخل إلى الإسماعيلية بسبب بسالة «الرفاعي» ورجاله؛ فاتجهوا إلى السويس.

كانت بطولات «إبراهيم الرفاعي» والذين معه حديث الصحف والمجلات، فهم علامات فارقة في تاريخ العسكرية المصرية.

١٩٧٤

أخذ أربع صابونات.. ومات!

(١)

في الثامن عشر من يناير وقَّعت مصر مع العدو الإسرائيلي اتفاقًا عند الكيلو ١٠١ على طريق السويس لفك الارتباط بين القوات في سيناء.

ونصَّ الاتفاق على انسحاب القوات الإسرائيلية، وانتشار القوات المصرية على شريط بعرض ٢٥٠ كيلومترًا، وتخفيض عدد قوات الجانبين في المنطقة، إلى جانب نشر قوة الطوارئ الدولية.

واندلعت المظاهرات في تل أبيب، وطالبت باستقالة وزير الدفاع الإسرائيلي موشي ديان باعتباره سبب الهزيمة في حرب أكتوبر، وبعد شهرين استقالت «جولدا مائير» رئيسة وزراء إسرائيل.

وهاجمت مجموعة تطلق على نفسها «منظمة التحرير الإسلامي» الكلية الفنية العسكرية للاستيلاء على السلاح، بهدف محاصرة الاتحاد الاشتراكي، واعتقال الرئيس «السادات»، وقلب نظام الحكم، لكنها فشلت وتم إلقاء القبض على أعضائها.

وصدر قرار برفع الرقابة عن الصحف، وتحميل رؤساء التحرير المسؤولية الكاملة عما تنشره صحفهم، وذلك فيما عدا الأخبار التي تمثل النواحي العسكرية، وتم العفو عن ألفي سجين سياسي.

(٢)

وعاد «علي أمين» من منفاه الاختياري في لندن.

ودعاه «هيكل» لزيارة «الأهرام» ولبَّى «علي» الدعوة، وقاما معًا بجولة داخل الجريدة، وحدَّد «هيكل» موعدًا لوليمة غداء تقيمها «الأهرام» للاحتفاء بعودة «علي أمين» بعد غياب دام لسنوات.

وفي ذات اليوم الذي حدده «هيكل» لوليمة الغداء، خرج «مصطفى أمين» من السجن، وطلب من شقيقه «علي» أن لا يلبي دعوة «هيكل»، وذلك لأن «مصطفى» كان يعتقد أن «هيكل» هو السبب في دخوله السجن، واعتذر «علي»، وأُلغيت مأدبة الغداء.

وذهب «هيكل» إلى منزل «مصطفى أمين» مهنئًا، وكانت المقابلة باردة -مثلما وصفها «جلال الدين الحمامصي»- إلى الحد الذي اضطر «هيكل» إلى المغادرة بعد دقائق معدودة من وصوله.

وبعد أيام خرج «هيكل» من «الأهرام» ودخل «علي أمين».

وحاول «علي» أن يغيِّر كل شيء في «الأهرام»، فقد غيَّر التبويب، وترتيب الصفحات، وصياغة الصفحة الأولى، والمانشيتات حتى كادت «الأهرام» تكون نسخة من «أخبار اليوم».

وواجه «علي أمين» ثورة عارمة من أغلب قيادات «الأهرام» رغم حبهم له، لكنهم كانوا يرفضون تغيير شخصية «الأهرام» التي صنعها

«هيكل» على مدار ١٧ عامًا، وعلَّق «مصطفى أمين» على ما فعله أخوه قائلًا: «لا يمكن لعاقل أن يقدِم على تغيير شخصية جريدة عمرها مئة عام في عام واحد».

ولم تستمر تجربة «علي أمين» في «الأهرام» سوى ثلاثة أشهر فقط، بعدها قرر الرئيس «السادات» إعادته إلى «أخبار اليوم» ليكون مشرفًا عليها بصحبة شقيقه «مصطفى أمين» ليبدأ رحلة إعادة هذه الصحيفة الكبيرة إلى مكانتها.

وكانت أول فكرة خطرت على بال «مصطفى أمين» هي عمل كاريكاتير يومي يكتبه «أحمد رجب» ويرسمه «مصطفى حسين».

ويروي «مصطفى أمين» قصة بداية الكاريكاتير اليومي على صفحات «الأخبار» بقوله: «لاحظت أن (الأخبار) تنقصها الصور الكاريكاتيرية، وعلى الفور فكرت في عمل كاريكاتير في الصفحة الأولى، وآخر في الصفحة الأخيرة، ولم يطل تفكيري كثيرًا في الفنان الذي سوف يحقق لي الهدف الذي أنشده؛ إنه أحمد رجب تلميذي الذي بدأ محررًا في مجلة (الجيل)، وكان أسلوبه الساخر لافتًا للنظر للوهلة الأولى، وقد شجعته في البداية أن يقوم برسم الكاريكاتير لكنه لم يكن مستعدًا لذلك، وأكد لي أنه مستعد لإعطاء الأفكار للرسامين وهم يقومون بتنفيذها».

وتابع «مصطفى أمين» قوله: «وبدأتُ أفكر في رسام موهوب ينفذ أفكار أحمد رجب، وعرفت أن عندنا رسامًا يعمل في (الأخبار) اسمه مصطفى حسين يقوم برسم القصص، واخترته لكي ينفذ الفكرة، وبالفعل بدأ التعاون بينهما، وفوجئت في نهاية الشهر الأول بأن توزيع(الأخبار) قد زاد ١٠٠ ألف نسخة».

(٣)

وفي ٢٨ أغسطس عقد الرئيس «السادات» اجتماعًا مع كبار الصحفيين في الإسكندرية، وقال لهم: «لا تراجُع عن حرية الصحافة لأي سبب، ولكن يجب أن تقدم الصحافة الصورة الحقيقية للشعب، يجب أن تبحث عن النغمة الصحيحة، ولا تتخذ من متاعبنا ملهاةً وسخرية».

واستطرد «السادات» قائلًا: «انقدوا السلبيات، انقدوا الحكومة، انقدوا الوزراء؛ ولكن يجب أن لا نتجاهل أن الحكومة تحمل تركة مثقلة، وأن أعباء اقتصاد الحرب وصلت بنا إلى حالة من الإنهاك».

بالطبع لم يتطرق الرئيس إلى الحديث عن نقده، فهذا لم يكن مطروحًا من قريب أو بعيد، فالرئيس يعتبر نفسه فوق النقد، بل هو مَن يحدد من يتم نقده ومن يتم التماس الأعذار له.

لكن كلام «السادات» لم ينتهِ، فقد واصل حديثه قائلًا: «إنني لن أسمح بقيام مراكز قوى تحت أي اسم في الصحافة وفي غير الصحافة».

وتابع الرئيس قوله: «لي عتاب كبير جدًّا على الصحافة، عتابي في كلمتين، هناك نغمة مفقودة يجب أن نبحث عنها، عندما نكون خارجين من معركة بعد ست سنوات معاناة وتمزقنا، وحدث انهيار اقتصادي كامل، هل هذا سبيل للسخرية من جانب صحافتنا على وضعنا، ونقول إن واحدًا أخذ أربع صابونات ومات؟»، وكان المقصود من ذلك الكُتاب الساخرين بصفة عامة، و«أحمد رجب» بصفة خاصة.

واختتم «السادات» حديثه قائلًا: «حرية الصحافة على عيني ورأسي، بل إنني أرجو مزيدًا من الحرية، ونحن نعيد صياغة حياتنا، ولكن هل الصحافة مركز قوى جديد؟ في الصحافة محاولة لتسوية حسابات قديمة

وشخصية.. ليه؟ ويجب أن لا يتوهم أحد أنني أسمح أو أن الشعب سيسمح لمراكز قوى جديدة تحت اسم.. صحافة.. كاتب.. مؤسسة».

كان واضحًا أن الرئيس «السادات» يقصد بكلامه عن مراكز القوى في الصحافة «محمد حسنين هيكل» الذي كان قد صدر قرار بإبعاده عن رئاسة تحرير جريدة «الأهرام».

وعلق «عبد المنعم الصاوي» نقيب الصحفيين، على كلام الرئيس قائلًا: «إن كل صحفي يكنّ كل التقدير لسيادتك، وكل الصحفيين يشاركونني في شكر سيادتك على حرية الصحافة، وحرية المجتمع التي أعدتها».

وأردف نقيب الصحفيين قائلًا: «الحديث الذي تم عن الانفتاح كان فيه مبالغة، وهي مبالغة لا تخدم المواطن، ولا تسهم في بناء المجتمع.. لذلك يلتزم الصحفيون أمامكم برفع مستوى أدائهم».

كلام نقيب الصحفيين كان يقصد الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين» وعبارته الأشهر: «الانفتاح.. سداح مداح».

وهنا تدخَّل «فكري أباظة» قائلًا: «إن مهنة الصحافة هي مهنة المتاعب، لأنه منذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن، والصحافة مقيدة لمدة ٥٧ سنة، وكان هناك كبت للقلم، والآن بعد إلغاء الرقابة لا بد أن يحدث الانفجار، والصحفيون معذورون بعد أن أعطيتنا الحرية يا سيادة الرئيس».

(٤)

وفي نفس التوقيت استقال الرئيس الأمريكي «نيكسون» بسبب فضيحة «ووترجيت».

والقصة بدأت حين قرر «نيكسون» التجسس على مكاتب الحزب الديموقراطي المنافس في مبنى «ووترجيت»، وألقت الشرطة القبض على خمسة أشخاص يقومون بزرع أجهزة تنصت على المكالمات الهاتفية للجنة القومية للحزب الديموقراطي.

وأشارت التحقيقات إلى وجود مبالغ مالية بحوزة المدانين تثير الشكوك، وعند تتبع الحسابات المالية، وُجد أن لها علاقة بمؤسسات ممولة لحملة إعادة انتخاب الرئيس «نيكسون».

وفي هذه الأثناء التقى الصحفيان «كارل برنستين» و«بوب وود ورد» شخصًا مجهولًا أطلقا عليه «الصوت العميق» وكشفا أن هناك علاقة بين عملية السطو والتجسس، ومحاولة التغطية عليها، وبين جهات رسمية رفيعة، مثل وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية، وصولًا إلى البيت الأبيض.

وانفردت صحيفة «واشنطن بوست» بنشر تلك التفاصيل، فقامت الدنيا، وبدلًا من أن تنتهي القضية بإدانة المتهمين توسعت دائرة التحقيقات حتى شملت الرئيس نفسه، وثبت تورطه، وأُدين بتهمة الكذب على مكتب التحقيقات الفيدرالي، واضطر الرئيس «نيكسون» إلى تقديم استقالته.

١٩٧٥

لم أستأذنها قبل النشر

(١)

في صباح يوم السبت، الأول من فبراير، خرج مانشيت «أخبار اليوم» يقول: حالة أم كلثوم حرجة جدًّا

- كونصلتو من الأطباء في مستشفى المعادي
- حالة المخ خطيرة.. الأزمة القلبية تحسنت
- أم كلثوم ما زالت في غيبوبة تامة.. عملية نقل دم الساعة ٢ مساءً
- الرئيس يسأل عن صحة أم كلثوم

وفي يوم الثلاثاء، الرابع من فبراير، كان مانشيت «الأخبار» يقول:

- «ماتت أم كلثوم»
- اضطربت ضربات القلب ثم أبطأت.. وتوقفت الحياة الساعة الرابعة وثلاثين دقيقة
- قصة صراع بين أم كلثوم والموت في ١٠٠ ساعة
- الجنازة غدًا الأربعاء الساعة ١١ صباحًا من مسجد عمر مكرم

وتصدر نبأ رحيل السيدة «أم كلثوم» الصفحات الأولى لكل الصحف اليومية المصرية والعربية والعالمية، وحملت الصحف تفاصيل رحيل أم كلثوم، وجنازتها، وتجاهلت «الأخبار» الرئاسية والسياسية في هذا اليوم.

وخرجت الملايين تودِّعها، وداعًا يليق بمعجزة فنية كبرى، وجاء الناس من كل حدب وصوب، وبكت عليها الجماهير من المحيط إلى الخليج.

ولم يحدث ذلك في تاريخ تلك الصحف لفنان إلا لـ«أم كلثوم»، فلم يبلغ أحد تلك المكانة التي بلغتها، ولم تحتفِ الصحف بأحد مثلما احتفت بها؛ فكل الصحف اتشحت بالسواد، وحوَّلت بعض الصحف لون «اللوجو» الخاص بها إلى اللون الأسود حزنًا على رحيل كوكب الشرق.

ووصفت جريدة «الأهرام» جنازة «أم كلثوم» قائلة:

- **مليون مواطن في وداع أم كلثوم**
- **الجماهير تحمل الجثمان ثلاث ساعات وتذهب للصلاة عليه في مسجد الحسين**

(٢)

وقدمت مجلة «آخر ساعة» عددًا تاريخيًّا عن «أم كلثوم».

وتصدرت العدد صورة نادرة لكوكب الشرق، وهي محمولة بين يدي «عمرو الدسوقي» ابن شقيقتها في رحلة في مياه على شاطئ الخليج العربي، ونشر «أنيس منصور» حوارًا أجراه معها قبيل رحيلها بعنوان: «لم أستأذنها في نشرها هذا الحديث».

وتضمَّن العدد مقالًا لمؤسس مجلة «آخر ساعة «محمد التابعي» بعنوان: «خرجت من قرية مغمورة لتصبح مطربة هذا العصر»، وتزيَّن

العدد برسوم للفنانَين «صلاح طاهر» و«مصطفى حسين».

وشارك في هذا العدد الأستاذ «مصطفى أمين» بمقال بعنوان: «أسرار وراء الصور.. ملف أم كلثوم»، وجاء فيه: «عرفتُ أم كلثوم عن قرب منذ أربعين عامًا وكتبت عن أم كلثوم كثيرًا، ولم أقل شيئًا، ذلك أن أشهر امرأة في العالم كانت زاهدة في الشهرة، وكانت إلى سنوات قريبة تخاف من الصحفيين، ولم تهاجَم فنانة في مصر كما هوجمت أم كلثوم، ونُشرت عنها القصص والأكاذيب، وأُلِّفت عليها الأكاذيب، وأُطلقت الشائعات، ولكن كل الطوب والأحجار التي أُلقيت عليها لم تهدم الهرم بل زادته ضخامة!».

ونشرت «آخر ساعة» حوارًا مع الشاعر الكبير «أحمد رامي» بعنوان: «كنتُ أبكي وأنا أكتب أغانيها»، وكتب عنها الشاعر «عزيز أباظة» قصيدة جديدة، وأعادت المجلة نشر مقال وقصيدة كتبهما «عباس العقاد» عن «أم كلثوم».

لكن مفاجأة العدد حملها الأستاذ «علي أمين» بعنوان:

- **مذكرات أم كلثوم كما كتبتها مع علي أمين**

وجاء فيها: «لم أسمع في يوم من الأيام من أبي وأمي شكوى بصوت مسموع عن الفقر، والحرمان الذي نعيش فيه، كانا يحاولان دائمًا إخفاء الضيق عنا، ولا يكشفان عن هذا الضيق إلا بهمسات بعد صلاة الفجر عندما يتصوران أنني وأخي نائمان لا نسمع شيئًا؛ ولكن هذه الهمسات عاشت معي، كانت تدوِّي في أذني، كنتُ أتصور أن كل ما أستطيع أن أقدمه لأمي هو أن أتطلع إلى السماء وأقول يا رب ساعد أمي».

(٣)

وفي أبريل أصدر الرئيس قرارًا بتعيين الفريق محمد حسني مبارك نائبًا له، وتولى «يوسف السباعي» وزارة الإعلام، بجانب عمله كوزير للثقافة.

وفي الخامس من يونيو أعاد الرئيس «السادات» افتتاح قناة السويس بعد تعطيلها لثمانية أعوام.

ويومها كان يسير «السادات» بصحبة الكاتبين «عبد الرحمن الشرقاوي»، و«أنيس منصور»، وحين نظر إلى الشط، ورأى الفلاحين، قال لـ«الشرقاوي» و«أنيس»: «مش دول بتوع عبد الرحمن الأبنودي بتوع وجوه على الشط، أمال الأبنودي فين؟».

ونشرت الصحف ما قاله الرئيس «السادات».

وفي اليوم التالي اتصل مدير مكتب «السادات»، «فوزي عبد الحافظ» بـ«الأبنودي» وقال له: «سعادة الريس منتظرك في استراحة المعمورة».

وبمجرد أن وصل إلى قصر الرئاسة، وضعه الحرس في غرفة المكتب، ومرت الدقائق ثقيلة على «الأبنودي» حتى جاء «السادات»، وقال له بصوت أجشّ «أنت جيت يا عبد الرحمن؟»، فردَّ عليه: «أهلًا سيادة الرئيس».

لكن «الأبنودي» وجد نفسه يقف أمام ترابيزة طويلة جدًّا، كأنها قد وُضعت من أجله، وبالتالي لا يستطيع مصافحة الرئيس إلا إذا أحنى رأسه!

وفجأة وفي أثناء مصافحته لـ«السادات» وجد مصورًا خلف ظهره يلتقط له صورة، وهو يبدو منحنيًا أمام الرئيس.

وفي اليوم التالي تصدرت الصورة الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام».

(٣)

وفي أحد أيام شهر سبتمبر نشرت الصحف خبرًا صادمًا بعنوان:

- «انتحار درية شفيق»

و«درية شفيق» زعيمة نسائية كبيرة، وكاتبة صحفية كبيرة، ومؤثرة، فقد شاركت في تأسيس عدد من المجلات منها مجلة «المرأة الجديدة» التي شاركتها فيها «الأميرة شويكار»، وأسست مجلة «بنت النيل» وحاولت تحويلها إلى مجلة سياسية فتمت مصادرتها، وتم وضعها تحت الإقامة الجبرية في بيتها.

وقيل إنها في أيامها الأخيرة أُصيبت بالاكتئاب، ووجدوا جثتها ملقاة على الأرض أمام بيتها بعد سقوطها من الدور السادس الذي تسكنه.

١٩٧٦

لا أدَّعي أنني صحفي

(١)

في مساء يوم الأحد ١٤ مارس ألقى الرئيس «أنور السادات» خطابًا في اجتماع مشترك بين مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وكان هذا الخطاب بمثابة رسالة لشخص واحد فقط هو «محمد حسنين هيكل»!

وقد بدأ «السادات» حديثه في تلك الجلسة قائلًا: «أنا باقول الصحافة لا يمتلكها فرد؛ لكن بعض ورثة عبد الناصر متصورين أن لهم حق في حكم هذا البلد.. جمال عبد الناصر بنى جريدة الأهرام، لما حررها من جميع القيود المالية المفروضة على الدولة».

واستطرد «السادات» قائلًا: «سأقص عليكم واقعة واحدة عشان تعرفوا ليه أنا مش موافق على ملكية الصحف لأفراد.. كلكم قرأتم مذكرات موشي ديان عن الحرب، وإزاي لاموه وقالوا له: إنت ليه ما أعلنتش التعبئة العامة لما لقيت السادات بيعمل مناورات في سبتمبر، فرد عليهم: لأنه عملها قبل كده مرتين وفي كل مرة كنت أصرف ١٠ ملايين

جنيه، ويطلع فاشوش، فالنوبة دي طلعت صح.. مش غلطتي بقى».

وضحك الحضور، فواصل «السادات» حديثه قائلًا: «إيه اللي كان بيجرى في العملية دي؟ اللي كان بيجرى أنه في أول أبريل ١٩٧٣ قبل المعركة اجتمعت بالقادة، وتحدد لي المواعيد اللي يصلح فيها القتال، ومن ضمن المواعيد كان شهر مايو؛ لأن دي حاجات مقترنة بعلوم كثيرة في الفلك والمد والجزر وحكاية طويلة قوي، ومجموعة في مايو، ومجموعة في أغسطس، ومجموعة في سبتمبر وأكتوبر، فببساطة أنا علشان أعمل خداع استراتيجي في كل مجموعة من دول لأن مش أنا بس اللي عارف أن التوقيتات دي تصلح، اليهود كمان عارفين آن دي أفضل توقيتات للحرب، فأنا بقيت آجي في كل توقيت من دول وأسخّن البلد، وأدّي أمر للصحف تنزل بحتت صغيرة كده.. آيات قرآنية.. أو أي شيء.. انفعال.. حماس.. وفي نفس الوقت أدّي أمر في الجبهة بتحركات غير عادية».

وتابع «السادات» قوله: «لما اديت الأمر للصحف كنت باديها في التوقيتات التي تصلح للقتال عشان اليهود بيراقبوا الصحافة عندنا، وكانت الصحف كلها تنفِّذ التعليمات إلا (الأهرام).. ليه؟ لأن رئيس تحريرها مش مقتنع، دا أنا اللي مدِّي الأمر.. وطبعًا ماينفعش أقوله أنا باعمل كده ليه؟ تخيلوا ده رئيس تحرير فقط، فما بالكم لو كان هو مالك الجريدة.. عشان كده لا يمكن أن أسمح أن فردًا يمتلك جريدة».

وأردف الرئيس قائلًا: «أنا زيّ ما قلت لن أتراجع عن حرية الصحافة أبدًا، ولن أضع قيودًا على حرية الصحافة، ولكن لا بد أن يعاد تشكيل مجالس إدارات الصحف فورًا من جيل جديد».

.. فصفَّق الحضور للرئيس.

(٢)

وفي الخامس من أبريل، تصدر عنوان كبير غلاف مجلة «روزاليوسف» يقول «الصحفيون والرئيس!».

وفي هذا العدد كتب الأستاذ «صلاح حافظ» مقالًا سخر فيه من شائعة إبعاده هو و«فتحي غانم» من رئاسة تحرير «روزاليوسف» وقد جاء فيه: (يعرفني أصدقائي أني لا أصلي الفجر حاضرًا، وأن الصباح المبكر بالنسبة إليَّ لا يبدأ إلا قبل الظهر بقليل؛ ولكن أحدهم صمَّم على إيقاظي فجر الأحد الماضي بطَرَقات تشبه إلى حدٍّ كبير طرَقات زائري الفجر، ودخل وهو يقول: لم يكن مفر من حضوري، حاولت الاتصال بالتليفون فلم أفلح.

قلت: خير؟

قال: ماذا حدث في «روزاليوسف»؟

ودفع إلى صدري بالصحف التي معه، لأقرأ فيها التشكيلات الجديدة للدور الصحفية، ومضيتُ أقرأ وأنا بين النوم واليقظة، حتى وصلت إلى مجلس إدارة «روزاليوسف»، فلم أرَ أن شيئًا قد حدث!

فنظرتُ إلى صديقي مستفسرًا، فإذا به يقول: إنها مفاجأة طبعًا، ولكن ولا يهمك، أنت في النهاية كاتب، وفتحي غانم كاتب، وقيمتكما هي القلم، لا المنصب!

وهنا بدأتُ أفهم، لقد وجد أن تشكيل «روزاليوسف» يخلو من

اسمينا، فتصور أننا أُبعدنا من رئاسة التحرير، وبصعوبة شديدة تمكنتُ من إفهامه أن القرار صادر بأسماء مجلس الإدارة فقط، وأننا ما زلنا على كراسينا المتواضعة).

والمدهش أنه بعد أقل من عام على تلك الواقعة تم إبعاد «صلاح حافظ» و«فتحي غانم» من رئاسة التحرير.. ولهذا قصة نرويها فيما بعد!

(٣)

وفي نفس الشهر اتشحت «أخبار اليوم» بالسواد حزنًا على رحيل أحد مؤسسيها «علي أمين».

والأستاذ «علي» لمن لا يعرف دوره، كان متخصصًا في تطوير الشكل الفني للصحف والمجلات، وطباعتها وتوزيعها، ولولاه لظلت الصحف عبارة عن مقالات رأي طويلة، وهو صاحب عمود «فكرة» الذي ارتبط باسم أخيه، لكن أكثر أعماله شهرة كان «عيد الأم»، فقد طرح الفكرة لأول مرة في عموده «فكرة» قائلًا: (لِمَ لا نتفق على يوم من أيام السنة نطلق عليه يوم الأم ونجعله عيدًا قوميًّا في بلادنا وبلاد الشرق، وفي هذا اليوم يقدم الأبناء لأمهاتهم الهدايا الصغيرة، ويرسلون للأمهات خطابات صغيرة يقولون فيها «شكرًا» أو «ربنا يخليك»؟ لماذا لا نشجع الأطفال في هذا اليوم أن يعامل كل منهم أمه كملكة فيمنعوها من العمل، ويتولوا هم في هذا اليوم كل أعمالها المنزلية بدلًا منها؟ ولكن أيُّ يوم في السنة نجعله «عيد الأم»؟).

وبعد نشر المقال بجريدة «الأخبار» اختار القراء تحديد يوم ٢١ مارس ليكون عيدًا للأم.

(٤)

في هذا التوقيت تولى الكاتب الكبير «أحمد بهجت» رئاسة تحرير مجلة «الإذاعة والتليفزيون»، كما قرر الرئيس «أنور السادات» أن يُصدر مجلة جديدة، وفي أثناء عودته من إحدى الرحلات الخارجية، استدعى «أنيس منصور» في الطائرة وطلب منه أن يجهز له تصور مجلة جديدة سيكون رئيسًا لتحريرها.

لكن الرئيس لم يخبر «أنيس» بأي تفاصيل، لم يقل له أي شيء، لا عن مكان صدور المجلة، ولا ميزانيتها، ولا اسمها، ولا من سيعملون بها، وكان الاسم المقترح لها هو «٦ أكتوبر»، وأسفلها «١٠ رمضان».

ولجأ «أنيس منصور» إلى صديقه «يوسف السباعي» ليساعده، فخصص له «السباعي» مكتبًا في «الأهرام»، وقرر أن يقوم بطباعة المجلة في «الأهرام» أيضًا، وأن تقوم إدارة الإعلانات بتوفير ما تحتاج إليه المجلة الجديدة، ولولا هذه المساعدة ما كانت لترى مجلة «أكتوبر» النور.

والتقى «أنيس منصور» الرئيس، واتفقا على أن يعد «أنيس» عدة نماذج لكي يبدي رأيه فيها ليبدأ العمل فورًا. أعدّ «أنيس» البروفات الخاصة بالمجلة، واستقرًّا على تسميتها «أكتوبر»، وقرأ «السادت» بروفات الأعداد التجريبية الأولى، وعلّق عليها بورقة بخط يده جاء فيها:

(عزيزي أنيس.. لقد راجعتها وأجريتُ التصحيحات اللازمة مع استخدام أسلوبنا الصحفي أول السطر وغيره، ولكنني أريدك أن تراجعها بنفسك، فقد تكون هناك مواقف تحتاج لإبرازها إلى استعمال

الفن الصحفي، ولا أدّعي اليوم أنني صحفي، مع تحياتي.. توقيع: أنور السادات).

وصدر العدد الأول من مجلة «أكتوبر» في ٣٠ أكتوبر، وانتشرت نكتة تقول إن هذه المجلة خرجت في أكتوبر لتُغلق في نوفمبر!

وأمضى «أنيس منصور» سنوات استغرقه فيها العمل في «مجلة أكتوبر» الوليدة ومجلة أخرى هي «وادي النيل» وما يكلفه به الرئيس السادات من مهام متعددة، ولم يكن مرتبه في ذلك الوقت يزيد على ٤١٦ جنيهًا شهريًا، بينما يوافق على علاوات لمن هم دونه تصل إلى ما يعادل مرتبه مرة ومرتين وزيادة، ولم ينتبه إلى حقه في أن يتقاضى علاوة سنوية، وقد كان نائبه يتقاضى ثلاثة أضعاف مرتبه.

وبعد عشرين عامًا سأل سكرتيره: لماذا لم تنبهني إلى زيادة مرتبي أو تعديله، فكان جوابه عجيبًا: «لقد ظننا أن سيادتك لا تريد فلوسًا!»

(٥)

وفي شهر نوفمبر كتب الشاعر «أمل دنقل» قصيدة جديدة يقول فيها:

لا تُصالِح
ولو منحوك الذهب
أترى حين أفقأ عينيك
ثم أثبت جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هي أشياء لا تُشترى.

خرجت هذه القصيدة قبل عام كامل من زيارة «السادات» لإسرائيل؛ كأن «أمل» كان يقرأ الطالع السياسي للرئيس، فلم تكن هناك أي مؤشرات واضحة حول ذهاب الرئيس إلى إسرائيل، بل كان احتمالًا مستبعدًا حتى بالنسبة إلى قادة الصهاينة ذاتهم!

١٩٧٧

سلطة شرعية أو بلطجية!

(١)

في صباح يوم الاثنين ١٧ يناير كان العنوان الرئيسي في جريدة «الأهرام» يقول:

– **علاوة إضافية لجميع العاملين من أول يناير.. زيادة المعاشات بنسبة ١٠ في المئة**

وفي مساء نفس اليوم وقف «عبد المنعم القيسوني» نائب الوزراء ورئيس المجموعة الاقتصادية، أمام مجلس الشعب، ليعلن عن قيام الحكومة باتخاذ مجموعة من القرارات الاقتصادية الحاسمة والضرورية، وذلك تحت ضغط الصندوق والبنك الدوليين، ومن أجل توقيع اتفاق معهما.

وترتب على تلك القرارات زيادة في أسعار الخبز، الأرز، والسكر، والشاي، واللحوم، والبنزين، والبوتاجاز، والدقيق، والذرة، والحلاوة، والفاصوليا، والمنسوجات، والملابس.

وفي يوم الثلاثاء اندلعت انتفاضة شعبية بدأت بعدد من التجمعات

العمالية الكبيرة في منطقة حلوان بالقاهرة في شركة «مصر حلوان للغزل والنسيج»، والمصانع الحربية، وفي مصانع الغزل والنسيج في شبرا الخيمة، وعمال شركة الترسانة البحرية في منطقة المكس بالإسكندرية، وبدأ العمال يتجمعون ويعلنون رفضهم للقرارات الاقتصادية وخرجوا إلى الشوارع في مظاهرات حاشدة تهتف ضد الجوع، والفقر، وتطالب بسقوط الحكومة رافعة شعارات منها: «سيد مرعي يا سيد بيه كيلو اللحمة بقى بجنيه».

وفي صباح اليوم التالي خرجت عناوين جريدة «الأخبار» تقول:

- **مظاهرات عن الأسعار تتحول إلى مؤامرة وتخريب**
- **عناصر تخريب وجهت المظاهرات إلى حرق سيارات خاصة ووسائل نقل في الإسكندرية والقاهرة بتحريض من عناصر ماركسية**

بينما كان العنوان الرئيسي في «الأهرام» يقول:

- **ضبط وثائق الخطة الكاملة لحرق القاهرة مع أعضاء التنظيم الشيوعي السري**

وفي اليوم التالي تم إعلان حظر التجول، وإلغاء القرارات الاقتصادية؛ فانتشرت قوات الجيش في الشارع، وأدار الرئيس «السادات» الأزمة من استراحته في أسوان، وقرر إجراء تعديل وزاري.

وفي الأول من فبراير أجرى الرئيس استفتاءً شعبيًّا على الإجراءات الاقتصادية والقرارات التي اتخذها في مواجهة أحداث يناير فجاءت نتيجة الاستفتاء ٩٩,٤٢٪ مؤيدين.

(٢)

لكن مجلة واحدة فقط هي التي خرجت عن النص، وخالفت تعليمات الأجهزة، واختلفت مع توجهات الرئيس الذي وصف أحداث ١٨ و١٩ يناير بـ«انتفاضة حرامية».

تلك المجلة كانت «روزاليوسف» التي وصفت تلك الانتفاضة بـ«انتفاضة الخبز»، واشتبكت «أخبار اليوم» بقيادة «موسى صبري» مع «روزاليوسف» بقيادة «صلاح حافظ».

وأطلق «موسى صبري» شرارة المعركة بنشره مقالًا تحت عنوان: «الزواج، والطلاق، ودافيد»، ونشرته جريدة «الأخبار» في صفحتها الأولى، وشكّك «صبري» في وطنية «حافظ» بسبب إعادة نشره لمقال نشرته مجلة أمريكية تهاجم الرئيس.

ورد «صلاح حافظ» بمقال جاء فيه: «لا أستبعد أن أصحو من نومي غدًا فأجد نفسي المتهم الأول بمحاولة حرق القاهرة.. وإذا حدث هذا، فإن الذي يتهمني لن يكون النيابة، وإنما (أخبار اليوم)، وسيكون الاتهام بالتأكيد بقلم رئيسها الزميل: موسى صبري».

وواصل «حافظ» حديثه قائلًا: «أما أن الاتهام سيصدر من (أخبار اليوم)، فلأنها سباقة إلى اتهام الوطنيين بشكل خاص.. أما أن الاتهام سيكتبه موسى صبري فلأنه معجب جدًّا بي، ولا يتصور أن يشن حملة على غيري ويتجاهلني، ولا يطاوعه ضميره أن يضبط مؤامرة لا أكون طرفًا فيها!».

واستطرد «حافظ» قائلًا: «ولما كانت القاهرة قد تعرضت لحريق إجرامي في يناير الماضي، و(أخبار اليوم) قد سبقت النيابة والقضاء إلى اكتشاف جميع الخبايا وراءه، وكتبت قرار الاتهام وأصدرت الأحكام، فقد كان على الزميل موسى صبري أن يسارع بحجز مقعد لي في قطار الاتهام، حتى لا ألومه بعد ذلك على أنه خان صداقتنا، وترك القطار يفوتني!».

وأردف «صلاح حافظ» قوله: «لا شك أن الهوان لم يصل بي، ولا بأي مصري، حد انتظار شهادة بمصريته من الأستاذ موسى صبري، ولا من أي جهة أخرى في هذه البلاد، فالأستاذ موسى ليس إدارة الجوازات والجنسية، وانتماء المصري لوطنه لا تملك أن تنفيه أي سلطة على هذه الأرض، رسميةً كانت أو صحيفة، شرعيةً كانت أو بلطجية!».

(٣)

ولم يصمت «موسى صبري» بل رد بمقال طويل على «صلاح حافظ»، والمدهش أن «روزاليوسف» نشرت هذا المقال، وقد جاء فيه: «إنني مندهش من هذا الذعر الذي أصاب الكاتب الماركسي صلاح حافظ، عندما قلت إنه ماركسي، ولماذا هذا المقال المرتجف الذي كتبه بعد كابوس أقلق نومه، وخلخل أعصابه، وجعله يتصور أنه متهم بحرق القاهرة في المؤامرة التخريبية يومي ١٨ و١٩ يناير»!

واستطرد «صبري» قائلًا: «جاء مقال صلاح حافظ عني تنفيثًا عن عقدة الذنب، ومحاولة للخلاص منها أمام نفسه وأمام القراء، ولا أقصد أنه يحس بعقدة الذنب لأن له صلةً ما بحرق القاهرة أو بجرائم تخريبها، حتى لو صوَّرَت له كوابيس الأحلام هذا الاتهام، ولكني أقصد -فعلًا

وصدقًا- أنه أحس بعقدة الذنب بعد أن نشر مقال صحيفة (الهيرالد تربيون) الأمريكية عن أحداث القاهرة كاملًا، سطرًا بسطر، وكلمة بكلمة، والمقال خبيث، والمقال طعن في استقرار النظام المصري، ورياسة أنور السادات، والمقال يصور ما جرى كأنه ثورة شعبية ضد النظام، والمقال يُسجل أن السلام مع إسرائيل هو الحل الأوحد لإنقاذ النظام».

واستدعى الرئيس السادات «صلاح حافظ» إلى استراحة القناطر، وسأله: «هل ما زلت مصرًا على تسمية ما جرى في أحداث ١٨ و١٩ يناير (انتفاضة الخبز)؟

فأجابه «حافظ»: نعم.

فرد الرئيس: إذن.. رئيس التحرير الجديد لمجلة «روزاليوسف» يجلس في الغرفة المجاورة لنا الآن.

وصدر القرار بإقالة «صلاح حافظ» و«فتحي غانم» و«عبد الرحمن الشرقاوي» رئيس مجلس الإدارة.

(٤)

ولم تكن معارك «موسى صبري» خارج «أخبار اليوم» فقط، بل كانت أيضًا مع مَن هم بداخلها!

فقد أرسل الكاتب الكبير «جلال الدين الحمامصي» خطابًا إلى «موسى صبري» جاء فيه: «عزيزي الأستاذ موسى صبري.. رئيس مجلس إدارة «أخبار اليوم».. امتد قلمك في الأيام الأخيرة، وبعنفٍ بالغ إلى مضمون مقالاتي -رغم اتفاقنا على عكس ذلك- فأحدثت بها تشويهًا وتبديلًا، وظهرت بعض الفقرات مبتورة، وبعض الجمل غير مفهومة

لأن الحذف والتغيير تمَّ عشوائيًّا، لا أريد الافتراض أن هذا كله تم قصدًا».

وأردف «الحمامصي» قائلًا: «وأنا أعود اليوم إلى المطالبة بتنفيذ ما اتفقنا عليه أكثر من مرة، وهو أن ترفع المقال كله إذا اصطدم قلمك المراجع بما تتصور أنه يحمل أفكارًا مخربة! أو ترى أني لا أقدر فيه مسؤولياتي نحو بلادي!».

لكن في الثلاثين من مارس، صمت الجميع.

وأُصيب البعض باكتئاب شديد، وأُصيب البعض الآخر بذهول كبير، وحاول البعض الانتحار، بل هناك من ألقى بنفسه من شرفة منزله من هول الصدمة، وذلك حين خرجت الصحف تقول:

- **مات عبد الحليم حافظ**

وسار كل الفرقاء، والمنافسين، والمختلفين، والمتناحرين، والمتخاصمين في جنازة العندليب، وبكوا عليه جميعًا، وشعروا أن الأجل قد اقترب، فقد رحل عبد الحليم وهو في قمة عطائه، وألقه، وتألقه.. وهكذا الدنيا.

(٥)

لكن يبدو أن هذا العام أبى أن يمر دون أحداث كبرى أخرى.

ففي يوم الأربعاء التاسع من نوفمبر وقف الرئيس «السادات» أمام مجلس الشعب وقال: «أنا مستعد أن أذهب إلى آخر العالم، وسوف تُدهش إسرائيل حين تسمعني أقول إنني مستعد أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاته».

وفي يوم الخامس عشر من نوفمبر وجّه «مناحم بيجين» رئيس وزراء إسرائيل، الدعوة إلى «السادات» لزيارة إسرائيل، وقَبِلَها «السادات».

فاستقال إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، احتجاجًا على سفر الرئيس إلى إسرائيل، فقرر «السادات» تعيين «محمد رياض» الذي كان يتولى وزير دولة للشؤون الخارجية؛ ولكن حين استدعاه «محمد حسني مبارك» نائب رئيس الجمهورية، وأخبره بتجهيز نفسه ليسافر مع الرئيس «السادات» إلى إسرائيل، اعتذر رياض عن قبول المهمة.

وبعد عشرة أيام فقط من خطاب «السادات» في مجلس الشعب المصري، كان يخطب في الكنيست الإسرائيلي، وخرج عنوان جريدة «الأهرام» يقول:

- **السادات في إسرائيل من أجل السلام الدائم**

١٩٧٨

رجل مجنون

(١)

اليوم: الجمعة، السابع عشر من فبراير.

وصل «يوسف السباعي» رئيس مجلس إدارة ررئيس تحرير «الأهرام»، إلى قبرص على رأس الوفد المصري المشارك في مؤتمر التضامن الأفروآسيوي السادس.

وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي نزل «يوسف السباعي» من غرفته بالطابق الخامس بفندق «هيلتون» متوجهًا إلى قاعة المؤتمر بالطابق الأرضي.

وتوقف «السباعي» أمام منفذ بيع الكتب والجرائد المجاور لقاعة المؤتمر؛ لإلقاء نظرة على صحف الصباح، وفجأة وجد أمامه شخص ين مسلحين أطلقا ثلاث رصاصات أصابت رأسه.

وفي يوم التاسع عشر من فبراير كان العنوان الرئيسي لجريدة «الأهرام» يقول:

- اغتيال يوسف السباعي في جريمة سوداء بيد التطرف الفلسطيني

في قبرص

- إرهابيان يقتحمان قاعة اجتماعات مؤتمر التضامن ويطلقان رصاصات تصيب يوسف السباعي في رأسه

وخرج مانشيت جريدة «الجمهورية» يقول:

- اغتيال يوسف السباعي في قبرص

- الجريمة لن تذهب بدون عقاب

فقد زعمَ قاتلا «السباعي» أنهما قد قتلاه لأنه ذهب إلى القدس برفقة الرئيس «السادات».

وبعد اغتيال «السباعي» أخذ القاتلان نحو ثلاثين من أعضاء الوفود المشاركين في مؤتمر التضامن رهائن واحتجزوهم في كافيتيريا الفندق مهددين باستخدام القنابل اليدوية في قتل الرهائن ما لم تستجب السلطات القبرصية لطلبهما بنقلهما جوًّا إلى خارج البلاد.

واستجابت السلطات القبرصية لطلب القاتلَين، وتقرر إقلاعهما على طائرة قبرصية؛ لكن عدة دول رفضت أن تهبط بها طائرة الرهائن من بينها ليبيا، وسوريا، واليمن، وبعد هبوط اضطراري في جيبوتي تقرر عودة الطائرة إلى مطار قبرص مرة أخرى.

(٢)

وفي اليوم التالي أُقيمت المراسم الجنائزية لدفن «يوسف السباعي»، ولم يحضر الرئيس «السادات» الجنازة؛ لكنه خطَّط للثأر.

فقد أرسل في اليوم التالي طائرة تُقلّ مجموعة من رجال الصاعقة إلى قبرص بغرض القبض على القاتلَين، وتحرير الرهائن المحتجزين على متن الطائرة القبرصية.

ودارت معركة ضارية، وبعد عودة رجال الصاعقة تم استقبالهم بالورود، وتكريمهم ومنحهم الأوسمة، وأقيمت جنازة شعبية لضحايا الحادث شارك فيها الرئيس «السادات»، وأعلنت مصر قطع علاقاتها مع قبرص.

وفي التاسع من مارس بدأت محاكمة قاتلَي السباعي «زيد حسين علي» و«سمير محمد خضير» أمام المحكمة القبرصية، ورأس الجلسة المدّعي العام القبرصي، وحضرها فريق من المراقبين المصريين كان على رأسه المدعي العام المصري عدلي حسين، وفي الرابع من أبريل حكمت المحكمة القبرصية على قاتلَي «السباعي» بعقوبة الإعدام.

لكن بعد مرور عدة أشهر أصدر الرئيس القبرصي «سبيروسكابرينو» قرارًا رئاسيًّا بتخفيف الحكم عليهما من الإعدام إلى السجن مدى الحياة، وذلك لأسباب غير معروفة قيل إنها تتعلق بأمن قبرص، وترددت بعد ذلك أنباء تفيد بأن قاتلَي «السباعي» قد رُحلًا من قبرص دون أن يتم تنفيذ الحكم.

(٣)

وفي اليوم نفسه نشرت مجلة «أكتوبر» حوارًا مطولًا لـ«أنيس منصور» مع الرئيس «السادات»، وتصدر الحوار عنوان يقول:

- **القذافي المجنون يحاول فرض حظر على مصر**

حمل الحوار سيلًا من الشتائم والاتهامات للرئيس الليبي معمر القذافي، فحين سأل «أنيس»، «السادات»: لماذا انزعجتْ ليبيا من تسليح أمريكا لمصر؟

أجاب «السادات» قائلًا: «أدهشني أن يبعث القذافي إلى مندوبة الأمم المتحدة ليحتجّ على تسليح أمريكا لمصر، كأن سلاحنا سيوجَّه ضد ليبيا، وذلك بدافع الحقد على مصر، وهذا يؤكد ما قلته من أن القذافي مجنون، وقد ثبت أخيرًا طبيًّا وبصورة قاطعة أن الرجل مجنون».

في هذا التوقيت اجتمع الرئيس «السادات» بالدكتور «مصطفي كمال حلمي» وزير التربية والتعليم، وقال له: «الناس غضبانة في الشارع.. أنا عايزهم ينبسطوا في امتحانات الثانوية.. نجّح الولاد يا مصطفى».

وطبعًا معالي الوزير سمع الكلام ونجَّح الأولاد بناءً على توجيهات السيد الرئيس!

كانت تلك التعليمات في الوقت الذي بدأ فيه الرئيس «السادات» مفاوضات كامب ديفيد، بعد أن دعاه الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» لزيارة الولايات المتحدة، والجلوس مع «مناحم بيجين» رئيس الوزراء الإسرائيلي.

وقد كتب الرئيس الأمريكي «كارتر» في مذكراته يقول: «كان عليَّ أن ألعب بالكل -أي مصر وإسرائيل- حتى يربح الكل، وهو حل لم يكن مريحًا، إضافة إلى كونه خطرًا، لكني لا أملك غيره.. كان عليَّ أن أُقنع السادات وبيجين لقبول التفاوض، تفاوضًا شاملًا، أكون أنا فيه المنظم والحكم معًا، وحددت يوم الخامس من سبتمبر موعدًا للاجتماع في كامب ديفيد».

وكانت الصحف تنشر تفاصيل كواليس ما يجري في منتجع كامب ديفيد، وأشادت صحف الحكومة بالاتفاقية، لكن غالبية الشعب رفضتها.

(٤)

وبعد ثلاثة عشر يومًا فقط، وتحديدًا في صباح يوم الأحد السابع عشر من سبتمبر تم توقيع اتفاقية كامب ديفيد.

وفي اليوم نفسه استقال «محمد إبراهيم كامل» وزير الخارجية المصري، احتجاجًا على هذه الاتفاقية.

وفي اليوم التالي كان العنوان الرئيسي للصحف:

- **الخطوة الأولى على طريق السلام بعد ٣٠ عامًا من الحروب**

وفي التاسع عشر من سبتمبر، خرجت عناوين جريدة «الأهرام» تقول:

- **النصوص الكاملة لاتفاق كامب ديفيد للسلام**
- **المكاسب التي تحققت للفلسطينيين:**
- **انتهاء الحكم العسكري والإدارة المدنية الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة**
- **التزام إسرائيل بوقف إقامة أي مستعمرات جديدة في الضفة والقطاع**
- **بدء انسحاب إسرائيل من الضفة والقطاع فور انتهاء المحادثات**
- **مشاركة الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بمستقبل الضفة والقطاع والقدس**
- **المكاسب التي تحققت لمصر:**
- **انسحاب إسرائيل من سيناء حتى الحدود الدولية لمصر**

- **بدء الانسحاب فور توقيع معاهدة السلام خلال ثلاثة أشهر**
- **السادات في رسالته لشعب مصر: حققتُ ما كنت أريد ولم نعد في حاجة إلى أن نرسل أبناءنا للحرب مرة أخرى**

وكتب «علي حمدي الجمال» رئيس تحرير «الأهرام» مقالًا من واشنطن بعنوان «ما بين رحلة القدس ومحادثات كامب ديفيد»، جاء فيه: «لقد عشنا في واشنطن يوم الأحد يومًا عجيبًا.. قالوا في الصباح إن المحادثات وصلت إلى طريق مسدود، وعند الظهر أعلنوا أن الموقف تحسَّن، وأن فرص الاتفاق والفشل تساوت مع بعضها، وفي العصر جاءت الأنباء أنه لا أمل، وعند نهاية الغروب طلبوا منا التوجه إلى البيت الأبيض لحضور توقيع الاتفاق!».

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من أكتوبر قررت لجنة نوبل منح الرئيس «السادات» جائزة نوبل للسلام مناصفةً مع «مناحم بيجين».

وفي العام التالي حدثت عدة مفاجآت مدوية.

١٩٧٩

الوجه الحقيقي لـ«الانقلاب»!

(١)

في صباح يوم ١٦ يناير غادر الشاه «رضا بهلوي» من طهران إلى أسوان، وتم إعلان الجمهورية الإسلامية في إيران.

وطار «محمد حسنين هيكل» إلى باريس، والتقى «آية الله الخميني» قائد الثورة الإيرانية، وجلسا معًا لساعات، وأجرى معه أول حوار صحفي بعد نجاح الثورة.

وروى «الخميني» لـ«هيكل» قصة خمسة عشر عامًا قضاها منفيًّا في باريس، ورؤيته لإيران في الفترة المقبلة، ودوره في الثورة، وما سيفعله عند عودته لبلده، وعاد «آية الله الخميني» إلى طهران..

وبمجرد عودته قام بتغيير الحكومة، وأعلنت إذاعة طهران أن الجيش الإيراني قد حرر البلاد من ديكتاتورية أباطرة إيران.

وذهب «هيكل» إلى إيران، وقطع التليفزيون الإيراني بثه من أجل أن يُعلن وصول «محمد حسنين هيكل» إلى مطار طهران.

والتقى «هيكل» مع «الخميني» للمرة الثانية، وأجرى معه حوارًا مطولًا.

وفي هذا العام سقط نظام «عيدي أمين» في أوغندا، وصعد نظام «صدام حسين» لحكم العراق، وصار «صدام» رئيسًا لمجلس الثورة العراقية، ليصبح رئيسًا للجمهورية وللحكومة وقائدًا للجيش.

(٢)

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من مارس وقعت حادثة كبرى؛ لكن الصحف المصرية تجاهلت تفاصيلها!

فقد انعقد مجلس جامعة الدول العربية في بغداد، وصدرت عنه عدة قرارات:

- **سحب السفراء العرب من القاهرة.**
- **التوصية بقطع العلاقات الدبلوماسية معها.**
- **تعليق عضوية مصر في الجامعة العربية.**
- **جعل تونس مقرًّا مؤقتًا لجامعة الدول.**
- **إدانة السياسة الأمريكية لدورها في التوصل لكامب ديفيد.**
- **تجميد كل القروض والودائع والضمانات والتسهيلات والمساعدات المالية لمصر.. إلى جانب منع المبادلات التجارية مع الدولة المصرية والشركات المصرية الخاصة.**

كانت تلك القرارات بعد ٤٨ ساعة فقط من توقيع اتفاقية السلام بين «أنور السادات» و«مناحم بيجين» في البيت الأبيض، وقد نصَّ الاتفاق على أن تستعيد مصر سيناء مقابل سلام كامل، وعلاقات دبلوماسية، واقتصادية، وثقافية، طبيعية «تطبيع» مع إسرائيل.

(٣)

وبعد أن انتهى «السادات» من مفاوضات السلام مع العدو، قرر أن يُغيِّر قانون الصحافة الذي وضعه «جمال عبد الناصر».

وفي ٢٢ يونيو تحدث الدكتور «صوفي أبوطالب» رئيس مجلس الشعب، إلى جريدة «الأهرام» قائلًا: «نقابة الصحفيين لن يكون لها نفس الكيان القائم، وإن المجلس الأعلى للصحافة سيأخذ منها حق القيد، وحق التأديب، وإن النقابة في ظل التغيرات الجديدة لن تزيد على كونها ناديًا اجتماعيًّا للصحفيين مثل نادي القضاة، كل دورها تقديم الخدمات، والرحلات، والأنشطة لأعضائها العاملين، والمعاشات لأعضائها المتقاعدين».

ورفض الصحفيون كل ما جاء على لسان «أبوطالب» جملةً وتفصيلًا، واضطر رئيس مجلس الشعب إلى التراجع مؤقتًا، وعاد إلى الكواليس!

وهنا ظهر على المسرح السياسي «منصور حسن» وزير الدولة لرئاسة الجمهورية، واقترح أن يقوم بزيارة للمؤسسات الصحفية ليناقش التعديلات المقترحة على قانون الصحافة الجديد.

وذهب إلى عدة مؤسسات صحفية، وحين جاء الدور على مؤسسة «روزاليوسف» كانت هناك مفاجأة في انتظاره.

ففي أثناء جلوس «وزير رئاسة الجمهورية» في غرفة اجتماعات «روزاليوسف» ليحاور المحررين، ويبشرهم بمزايا القانون الجديد، دخل سكرتير التحرير، وهو يحمل بروفات عدد يوم الاثنين التاسع من يوليو، وتتصدره حملة صحفية كبرى تحت عنوان: «انقلاب في بلاط صاحبة الجلالة» أعدها «عادل حمودة» و«فايزة سعد»، وجاء فيها:

«فجأة.. وقع انقلاب في بلاط صاحبة الجلالة..

استولت سلطة جديدة على العرش.. مات المَلِك يحيا المَلِك..

مات الاتحاد الاشتراكي.. يحيا المجلس الأعلى للصحافة..

وصدر البيان الانقلابي رقم واحد متفائلًا كعادة البيانات الانقلابية الأولى، متحمسًا كعادة البيانات الانقلابية الأولى.. ورديًّا كعادة البيانات الانقلابية الأولى.. ولم يصدق أحد من داخل الصحافة، ولا من خارجها البيان الأول، كالعادة أيضًا!.. والوجه الحقيقي لأي انقلاب ينكشف في قراراته، لا في منشوراته».

وطرح «حمودة» و«فايزة» كل التساؤلات التي تشغل بال الصحفيين، منها: «كيف تصبح الصحافة سلطة رابعة من سلطات الدولة؟ كيف تكون سلطة وهي لا تملك لا حق التشريع، ولا قوة التنفيذ، ولا قدرة إصدار الأحكام؟».

واختار الصحفيان شخصيات من العيار الثقيل لتدلي برأيها في تلك القضية، ومنهم: «إحسان عبد القدوس، ومصطفى أمين، وحافظ محمود، وصلاح حافظ، وكامل زهيري، وعبد الرحمن الشرقاوي»، بالإضافة إلى رئيس الهيئة العامة للاستعلامات «صفوت الشريف»، وآخرين.

(٤)

ونشرت «روزاليوسف» كل الآراء..

وجاءت تصريحات كبار الكُتاب، والمسؤولين مختلفة، ومباشرة، وصادمة أحيانًا، وتصلح للنشر لأمدٍ بعيد، فلم يتغير شيء منذ ذلك التاريخ.

فقد قال «إحسان عبد القدوس»: «إن الحكومة هي رئيس التحرير الوحيد في صحافتنا.. وإن ٦٠٪ من الصحفيين يقبضون ولا يعملون».

وعلّق «مصطفى أمين» قائلًا: «المجلس الأعلى للصحافة هو بمثابة مجلس آباء لتلاميذ في مدرسة ابتدائي».

وقال «كامل زهيري»: «إن الثورات الثلاث التي وقعت في مصر لم تعالج حرية الصحافة».

بينما توقّع صفوت الشريف رئيس الهيئة العامة للاستعلامات، أن تزدهر الصحافة الإقليمية، وأن تختفي خسائر المؤسسات الصحفية.

وتحت عنوان «الصحفيون والضباط» تحدث «صلاح حافظ» قائلًا: «حكومة تأميم الصحافة أفسدت الجو الصحفي، فتحول التأميم من حل إلى كارثة، ولا يوجد صحفي واحد لا يحلم بالثأر من باقي الصحفيين».

ودخلت على تلك الحملة صحيفتا «الأخبار» و«الشعب»، ومجلتا «المصور» و«أكتوبر»، ونجحت الحملة، وأدت إلى صدور قرار بأن يتولى الصحفيون أنفسهم تقنين سلطة الصحافة وصياغة مستقبلها.

وبعد أسبوعين فقط من توقُّف مجلة «روزاليوسف» رحل «مرسي الشافعي» رئيس تحرير المجلة، ودخل «كامل زهيري» انتخابات نقابة الصحفيين رافعًا شعار أن عضوية النقابة كالجنسية لا يمكن إسقاطها، وذلك ردًّا على قرارات الرئيس بفصل الصحفيين.

(٥)

وغضب «السادات» على «علي حمدي الجمال» رئيس تحرير «الأهرام»، ووبّخه أمام زملائه رؤساء تحرير الصحف أكثر من مرة، وأهانه أمام بعض المسؤولين عن الإعلام بسبب عدم رضا الرئيس عن مقالاته في

«الأهرام».

وحين سافر الرئيس إلى نيويورك لم يصطحبه معه، وأمر بمنعه من الصعود إلى الطائرة الرئاسية، رغم أنه اصطحب كل رؤساء التحرير، وتدخلت السيدة «جيهان السادات»، وأقنعت «الجمّال» بالسفر على نفقة «الأهرام» لإذابة الجليد بينه وبين الرئيس هناك.

وقيل له إنه سيجد سفير مصر في انتظاره في مطار نيويورك، وسيجد غرفة باسمه في الفندق الذي سيجلس فيه الوفد المرافق للرئيس، وطار «حمدي الجمّال» إلى الولايات المتحدة، وهناك كان في انتظاره أكثر من مفاجأة.

فلم يجد «الجمّال» أحدًا في انتظاره في المطار، واستقل التاكسي، وذهب إلى الفندق، واتجه إلى الاستعلامات وسأل عن غرفة محجوزة باسمه مع الوفد المرافق للرئيس فلم يجد، فأصابته أزمة قلبية مفاجئة وسقط مغشيًّا عليه!

وعلم «السادات» بما جرى، ولم يَنَم، وقالت زوجته إنه حزن لدرجة أنه صار يأكل بصعوبة بالغة.

(٦)

وفي صباح يوم العاشر من ديسمبر بدأت حقبة جديدة في تاريخ الصحافة حين قرر الرئيس «السادات» تغيير رؤساء تحرير الصحف القومية.

وجاء بأسماء لم تكن في واجهة المشهد، بل لم تكن معروفة للناس،

ولبعض الصحفيين، وبدا للجميع أن هذا هو المطلوب.

فقد أراد «السادات» أن يصنع جيلًا جديدًا من رؤساء التحرير على عينه، وفي الوقت نفسه يضرب أكثر من عصفور بحجر واحد، فقد تخلص من الجيل القديم من الصحفيين الذين صاروا في رأيه بمثابة مراكز قوى في الصحافة.

لذا أصدر قرارًا بترقية اثنين من شباب الصحفيين، وهما: «إبراهيم نافع» رئيسًا لتحرير «الأهرام»، و«إبراهيم سعدة» رئيسًا لتحرير «أخبار اليوم».

ووقف «السادات» أمام الكاميرات ليتباهى برؤساء التحرير الجدد، ويخص بالإشادة «إبراهيم سِعدة» الشاب الذي رفض أن يسيء إلى بلده، مقابل دولارات كثيرة -على حد تعبير الرئيس.

كان واضحًا أن «السادات» يوجه رسالة إلى كبار الصحفيين الذين يكتبون بالدولار في الصحف غير المصرية ويهاجمونه، وعلى رأسهم «محمد حسنين هيكل» و«محمود السعدني».

وبعد ثلاثة أشهر فقط، قامت «أخبار اليوم» بعمل خبطة صحفية كبرى بطلها الرئيس!

الفصل الرابع

إن أكبر جهاز شعبيّ عانى في عصر «عبد الناصر» و«السادات» و«مبارك» هو الصحافة، وستظل صحافتنا تعاني لفترة طويلة؛ لأنها «اتمرمغت» في الوحل.

يوسف إدريس

١٩٨٠

العيب

(١)

كتب المصور «فاروق إبراهيم» خطابًا إلى الرئيس «السادات»، وذهب إلى قصر الرئاسة، وسلم خطابه إلى أحد المسؤولين.

ولم يكن الخطاب يحوي سوى كلمات قليلة مفادها: «أتمنى أن تسمح لي أن أسجل يومًا في حياة سيادتك بالكاميرا فقط.. توقيع: فاروق إبراهيم». قرأ الرئيس الخطاب، وابتسم، ووافق على الفكرة.

واستدعى «السادات» المصور «فاروق إبراهيم»، وأبلغه بموافقته على فكرته، واتفقا على أن تكون البداية من صباح اليوم التالي، ليسجل «فاروق» بكاميرته يومًا في حياة الرئيس منذ بدايته.

وذهب «فاروق» حاملًا الكاميرا، والأفلام، والعدسات، ودخل إلى القصر، وجلس ينتظر الرئيس، لينزل.

لكن السادات طلب من الحرس أن يصعدوا بالمصوِّر إلى غرفة نومه ليلتقط صورته، وهو في فراشه بالبيجامة، وصعد «فاروق» وصوَّر الرئيس في سريره.

وقبل أن يدخل إلى الحمام لحلاقة ذقنه، استأذن «فاروق» لينصرف، ويجلس في الأسفل؛ لكن «السادات» قال له: «لو عايز تسجل اليوم بتاعي صح.. يبقى لازم تصورني وأنا باحلق دقني.. أنا يومي بيبتدي كده»!

ووقف الرئيس أمام المرآة في الحمام ممسكًا بماكينة الحلاقة، ومرتديًا ملابسه الداخلية البيضاء، ليحلق ذقنه، ويمشِّط شعره، ويقص الزوائد من شاربه.

وكانت عدسة «فاروق إبراهيم» جاهزة، تلتقط صورًا غير مألوفة للرئيس، ونزلا معًا، وأكملا رحلة تصوير الرئيس مع زوجته، وأبنائه، وأصدقائه، ووزرائه، وكبار الكتاب والصحفيين، وفي أثناء ركوبه الدراجة مع حفيده، وممارسته اليوجا، ونومه على الأرض.

وعاد «فاروق إبراهيم» إلى جريدة «أخبار اليوم» منتشيًا بما حقق من سبق صحفي، واتجه مباشرة إلى مكتب رئيس التحرير «إبراهيم سِعدة» واتفقا على نشر بعض هذه الصور في الصفحة الأولى لأخبار اليوم في الباب الجديد المسمَّى «قصة صورة».

ولم يكن حينها قد مرَّ سوى ثلاثة أشهر على تصعيد «إبراهيم سِعدة» لرئاسة تحرير «أخبار اليوم»، وقرر كتابة الموضوع بنفسه ثم استأذن الرئيس «السادات» في ذلك فرحَّب على الفور.

وبمجرد أن نُشرت الصور، قامت الدنيا ولم تقعد!

فقد اعترض عدد من مستشاري الرئيس على نشر هذه الصور، وقال بعضهم إن تلك الصور خطيئة كبرى من «أخبار اليوم» ومسؤوليها.

وانتقل الهجوم إلى مرحلة أخرى، حين دخلت السيدة «جيهان السادات» على الرئيس، وهو جالس بصحبة «أنيس منصور» في القناطر الخيرية،

وقالت له: «أساتذة الجامعة كلموني.. وقالوا لي: إزاي رئيس البلد يتعمل فيه كده؟!».

فرد السادات قاطعًا، وحاسمًا، ومُغلقًا باب النقاش بقوله: «أنا قرأت الموضوع.. واخترت الصور.. إنتم مابتشوفوش الصحافة العالمية؟ إنتم مابتفهموش حاجة.. هيّ دي الصحافة».

(٢)

وفي تلك الأثناء طلب الرئيس أنور السادات -وطلبات الرئيس أوامر- أن يتم سن قانون جديد يُسمّى «العيب».

وفي سرية تامة عقدت اللجنة التشريعية بمجلس الشعب برئاسة «حافظ بدوي» عدة جلسات غير محددة المكان لتمرير المشروع، وبالفعل تمت الموافقة على القانون، وخرج قانون «حماية القيم من العيب» لحيز التنفيذ في الخامس عشر من مايو.

ونصَّ القانون على أن «كل من ارتكب ما ينطوي على إنكار الشرائع السماوية أو ما يتنافى مع أحكامها، إما تحريض النشء والشباب على الانحراف عن طريق الدعوة إلى التحلل من القيم الدينية وإما عدم الولاء للوطن، يتعرض للعقوبة، وذلك وفقًا لما نصَّت عليه المادة ١٧١ من قانون العقوبات».

وانتقدت صحف المعارضة القانون، وأطلق نواب المعارضة في البرلمان عليه اسم «قانون سيئ السمعة»، ووصف الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين» القانون بأنه «كارثة».

كان هذا القانون مؤشرًا قويًّا أن الرئيس السادات قرر قمع المعارضة،

ومحاصرة الحريات، واستكمال رحلة التضييق على الصحافة، فقد كان الهدف الرئيسي من القانون معاقبة كل من يحاول انتقاد سياسة الدولة.

(٣)

وفي تلك الأثناء عرض التليفزيون المصري للمرة الأولى مسلسل «زينب والعرش» للمخرج يحيى العلمي، واشترك في بطولته عدد كبير من النجوم من بينهم «محمود مرسي، وكمال الشناوي، وسهير رمزي، وحسن يوسف، وصلاح قابيل، وعبد المنعم إبراهيم».

والقصة للأديب «فتحي غانم»، والسيناريو والحوار لـ«صلاح حافظ وفتحي غانم»، ولهذا قصة طريفة.

فبعد أن قرر الرئيس «السادات» إبعاد «حافظ» و«غانم» عن رئاسة تحرير مجلة «روزاليوسف» تفرّغا لكتابة سيناريو وحوار مسلسل «زينب والعرش».

والمدهش أنهما اتفقا أن يكتب أحدهما الحلقات الفردية، والآخر يكتب الحلقات الزوجية، ولم يلاحظ أي أحد أي ثغرة في كتابة الحلقات، فالروح كانت واحدة، وكأنه أوركسترا يعزف نغمة واحدة بآلات مختلفة.

وحقق هذا المسلسل نجاحًا كبيرًا؛ خصوصًا أن أدب فتحي غانم ليس خيالًا خاليًا من الواقع، وليس واقعًا مجردًا من الخيال.

واعتبر البعض أن البطل الحقيقي لهذا العمل هو «مصطفى أمين» الذي جسّده دوره الفنان «محمود مرسي».

وبسبب هذا الخلط بين الواقع والخيال، هناك واقعة تناقلتها الأقلام وهي أن «هيكل» التقى «فتحي غانم»، وبدلًا من أن يلقي كلاهما التحية على الآخر،

قال له «غانم»: أهلًا بـ«الرجل الذي فقد ظله»، إشارةً إلى بطل روايته.
فردَّ «هيكل» غاضبًا: أهلًا بـ«الرجل الذي فقد عقله»!

(٤)

وفجأة وقعت الواقعة الأخطر خلال العام؛ لكنها لم تأخذ حقها في الصحف!

ففي يوم الجمعة ١٣ يونيو، وفي الحُجرة رقم ٩٤١ بفندق الميريديان في باريس، عُثر على جثة هامدة مُهشمة الرأس، ودماؤها تغطي سجادة الحجرة، تم اكتشاف أنها جثة العالم الدكتور «يحيى المشد»، وقد تم إغلاق التحقيق الذي قامت بها الشرطة الفرنسية على أن الفاعل مجهول.

وبعد سنوات اعترفت إسرائيل رسميًّا باغتيال العالم المصري «يحيى المشد»، من خلال فيلم تسجيلي مدته ٤٥ دقيقة، عرضته قناة «ديسكفري» الوثائقية الأمريكية تحت عنوان «غارة على المفاعل»، وتم تصويره بالتعاون مع الجيش الإسرائيلي، ويتناول الفيلم تفاصيل ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١.

وفي هذا السياق كان لا بد للفيلم من التعرض لعملية اغتيال «يحيى المشد» في الدقيقة ١٢:٢٣، باعتبارها «خطوة تأمينية ضرورية لضمان القضاء الكامل على المشروع النووي العراقي، وحتى لا يتم إعادة التفكير في إنتاج مفاعل نووي عراقي في المستقبل.

(٥)

وفي هذا التوقيت قرر الرئيس «السادات» أن يُصدر جريدة جديدة تكون ناطقة بلسان الحزب الوطني، واختار لها اسم «مايو» لتخليد ذكرى ما جرى في ١٥ مايو حين أطاح برجال «جمال عبد الناصر».

وقد كان لتلك الجريدة مكانة خاصة في قلب الرئيس، فقد كان يريدها أن تتصدر المشهد، وتصبح مناطحة لـ«الأهرام» و«أخبار اليوم».

ولعل أبرز دليل على ذلك أنه كان مساهمًا فيها بماله، فقد كانت قائمة الأعضاء المؤسسين تضم «أنور السادات، وحسني مبارك، وعثمان أحمد عثمان»، وتبرع كل واحد منهم بمبلغ رمزي قدره مئة جنيه مصري.

وساهم أيضًا في تأسيس الجريدة عدد من الصحفيين من بينهم «إبراهيم سعدة» رئيس تحريرها، الذي تبرع بألفي جنيه، هذا بجانب عدد من البنوك المصرية، ومنها بنك مصر، والبنك الأهلي، وبنك الإسكندرية، وبنك القاهرة.

وصدر العدد الأول من جريدة «مايو» في ٢٤ صفحة، وطُبع منها نصف مليون نسخة، وقيل إن توزيعها لم يتجاوز عشرة آلاف نسخة طوال تاريخها.

١٩٨١

خريف الغضب

(١)

في شهر أبريل، اصطحب «أنيس منصور» رئيس تحرير مجلة «أكتوبر» ٧٠ محررًا ومحررة إلى قرية «ميت أبو الكوم» للقاء الرئيس «السادات».

واستهل «أنيس منصور» اللقاء قائلًا: «يا سيادة الرئيس أقدم لك أحفادك، فهؤلاء هم أبناء مجلة أكتربر، إحدى بنات أفكارك، أي أحفادك»، وابتسم «السادات»، ورحب بالمحررين قائلًا: «طبعًا.. طبعًا.. اتكلموا يا أولادي».

وتكلم مدير تحرير المجلة نيابةً عن زملائه قائلًا: «عاوزين يا ريس مجلة أكتوبر تبقى دار صحفية مستقلة عن دار المعارف مثل (الأهرام) و(أخبار اليوم)».

وقاطع الرئيس «السادات»، مدير التحرير، وعلق قائلًا: «أنتم عاوزين صحافة مدرسة مصطفى وعلي أمين في (أخبار اليوم) اللي بتقولّك تدخل على الوزير تضرب بابه برجليك زيّ ما بيحصل في (واشنطن بوست) في أمريكا.. الكلام ده في أمريكا.. ودي مدرسة لامؤاخذة ماتنفعش

عندنا.. وصحافة مصر مش زيّ صحافة أمريكا».

(٢)

وبعد أشهر قليلة صدر قرار بمصادرة جريدة «الشعب» الناطقة بلسان حزب «العمل»، ومجلة «الدعوة» لسان حال جماعة «الإخوان».

وأصدر الرئيس السادات قرارًا بنقل ٦٧ صحفيًا من صحفهم إلى العمل ببعض المصالح الحكومية.

وفي اليوم التالي، الخميس، الثالث من سبتمبر، عاد زوار الفجر، بعد أن وقّع الرئيس على قائمة باعتقال ١٥٣٦ شخصًا من قادة الفكر والأدب والسياسيين ورجال الدين من معارضيه، وقد قام وزير الداخلية النبوي إسماعيل بتنفيذ أوامر الرئيس.

وكان من بينهم الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، ورئيس حزب الوفد «فؤاد سراج الدين»، والدكتورة «عواطف عبد الرحمن»، والدكتور «ميلاد حنا»، والشيخ «حافظ سلامة»، والكاتبة الصحفية «صافيناز كاظم»، و«شاهندة مقلد»، و«حمدين صباحي»، و«عبد المنعم أبو الفتوح».

خلال تلك الأحداث تذكر «فؤاد سراج الدين» واقعة حدثت قبل أكثر من ثلاثين عامًا، وذلك حين ارتكب ضابط صغير مخالفةً كبيرة، كانت تستوجب التحقيق معه وطرده من الخدمة وربما حبسه، لكنه عفا عن الضابط، وقال له في مكتبه: «أنا هاعتبرها غلطة ومش هتتكرر.. عشان ماضيّعش مستقبلك».

ومرت ثلاثون عامًا، وكبر الضابط الصغير، وصار وزيرًا للداخلية، وقام باعتقال «فؤاد باشا سراج الدين».

فقد كان الضابط الصغير هو «النبوي إسماعيل» وزير داخلية «السادات»!

وبعد ٢٤ ساعة من حملة الاعتقالات الكبرى، أصدر الرئيس قرارًا آخر بإقالة «البابا شنودة»، وعزله من منصبه، ونفيه في دير وادي النطرون، واتهمه بتحريض الأقباط على العصيان عند توقيع اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل؛ إذ أصدر «البابا شنودة» مرسومًا بمنع حج الأقباط إلى القدس، واتهمه أيضًا بالتحريض على تظاهرات حدثت في أثناء زيارة السادات للولايات المتحدة منذ عام.

(٣)

وفي اليوم التالي، وقف «السادات» أمام مجلس الشعب، وألقى بيانًا إلى الأمة، جاء فيه: «إن هناك فئة من الشعب تحاول إحداث الفتنة الطائفية، وإن الحكومة حاولت نصح تلك الفئة أكثر من مرة، وإن الآونة الأخيرة شهدت أحداثًا هددت وحدة الوطن، واستغلتها تلك الفئة، وسلكت سبيل العنف وتهديد الآمنين، وحاولت تصعيد الأحداث، الأمر الذي استلزم إعمال المادة ٧٤ من الدستور، والتي تنص على أن لرئيس الجمهورية إذا قام خطر يهدد الوحدة الوطنية أو سلامة الوطن أو يعوق مؤسسات الدولة عن أداء دورها الدستوري أن يتخذ الإجراءات السريعة لمواجهة هذا الخطر».

وتابع «السادات» خطابه قائلًا: «وبناءً عليه تقرر حل بعض الجمعيات التي هددت سلامة الوطن، وإلغاء تراخيص بعض الصحف والمطبوعات مع التحفظ على أموالها ومقراتها، ونقل بعض أعضاء هيئة

التدريس والجامعات والمعاهد العليا، الذين لهم تأثير ضارّ في تكوين الرأي العام، ونقل بعض الصحفيين وغيرهم من العاملين في المؤسسات الصحفية القومية، وبعض العاملين في اتحاد الإذاعة والتليفزيون والمجلس الأعلى للثقافة».

(٤)

وبعد ثلاثين يومًا من تلك الواقعة، وتحديدًا في يوم السادس من أكتوبر، كان الرئيس «السادات» وإلى يمينه نائبه «محمد حسني مبارك»، ثم الوزير العماني «شبيب بن تيمور» مبعوث السلطان «قابوس»، وإلى يساره المشير «عبد الحليم أبو غزالة» وزير الدفاع، ثم «سيد مرعي»، ثم «عبد الرحمن بيصار»، شيخ الأزهر.

وكانوا جميعًا يشاهدون العرض العسكري، وينظرون إلى طائرات «الفانتوم» وهي تمارس ألعابًا بهلوانية في السماء، ثم انطلق صوت المذيع الداخلي «الآن تجيء المدفعية».

وتقدم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وحوله عدد من راكبي الدراجات النارية، وفجأة توقفت إحدى الدّراجات بعد أن أصيبت بعطل مفاجئ، ونزل قائدها وراح يدفعها أمامه، لكن سرعان ما انزلقت قدَمه، ووقع على الأرض، والدّراجة فوقه فتدخّل جندي كان واقفًا إلى جوار المنصة، وأسعفه بقليل من الماء.

وفي تمام الثانية عشرة وعشرين دقيقة، كانت سيارة الضابط «خالد الإسلامبولي» تجرّ المدفع الكوري الصنع عيار ١٣٠مم، وقد أصبحت أمام المنصة تمامًا ووقفت، وظنّ الجميع أنها تعطلت هي الأخرى.

وفي لحظات وقف القناص «حسين عباس» وأطلق دفعة من الطلقات، نحو الرئيس «السادات»، ونزل «الإسلامبولي» من سيارته، وتحت ستار الدخان وجّه «الإسلامبولي» دفعة طلقات جديدة نحو المنصة، وألقى قنبلة، ثم جاء «عطا طايل» وأطلق عشر طلقات على الصف الأمامي الذي يجلس فيه «السادات».

وسقط الرئيس على الأرض مضرجًا في دمائه، بينما اختفى جميع الحضور أسفل كراسيّهم.

لكنّ شخصًا وحيدًا لم يجرِ، ولم يهرب، ولم يختبئ في تلك اللحظة، بل أظهر شجاعة نادرة، ولافتة؛ إنه مصور «أخبار اليوم»، «مكرم جاد الكريم» فقد أمسك بالكاميرا، ورصد لحظة اغتيال الرئيس، وأطلق عدسته صوب القتلة، والتقطهم.

وحققت «أخبار اليوم» سبقًا صحفيًّا عالميًّا في هذا اليوم، وبيعت تلك الصور -التي كان يمكن أن تكلِّف المصور حياته- بمئات الآلاف من الدولارات لوكالات الأنباء العالمية.

(٥)

وخرجت صحف اليوم التالي مُتشحة بالسواد تقول:

- **السادات شهيدًا يوم انتصاره**
- **طلقات غادرة وآثمة اغتالته بين جنوده وأبطاله**
- **إعلان حالة الطوارئ لمدة سنة**
- **صوفي أبو طالب رئيسًا مؤقتًا للجمهورية**
- **المكتب السياسي للحزب الوطني.. بالإجماع يرشح حسني**

وصار «حسني مبارك» رئيسًا للجمهورية، وأرسل إلى المثقفين، والصحفيين، والسياسيين الذين اعتقلهم الرئيس «السادات» في سبتمبر رسالة مفادها: «إنه تقرر الإفراج عن المعتقلين السياسيين على دفعات، وإن ذلك سوف يبدأ تنفيذه بعد أربعين الرئيس السادات».

واستقبلهم «مبارك» في قصر العروبة، وكانت الدفعة الأولى تضم ٢٥ شخصًا، من بينهم الأستاذ «هيكل»، والدكتورة «نوال السعداوي»، والكاتب «فتحي رضوان»، و«فؤاد سراج الدين» الذي تحدث نيابةً عن الحاضرين، وبعد أنهى «سراج الدين» كلامه علّق «مبارك» قائلًا: «إحنا آسفين على اللي حصل، ونتمنى نفتح صفحة جديدة، ولا نريد أن ننبش في الماضي».

١٩٨٢

مواكب المُهلِّلين

(١)

أصدر «حسني مبارك» توجيهات بعدم نشر إعلانات التهاني في الصحف، وأكد رفضه لهذه المظاهر الكاذبة التي تستنزف المال العام، وقد نشرت الصحف توجيهات الرئيس، واعتبرتها حدثًا يستحق الاحتفاء، لكنَّ إعلانات التهاني لم تتوقف!

وأعلن «مبارك» أنه لا يحب التصوير، ولا يميل إلى مواكب المهلِّلين، والمصفِّقين، ويفضِّل أن يحمل أوراقه بنفسه، وكان يقول: «مابحبّش حد يفتح لي باب العربية.. كفاية تصوير بقى، بلا هوسة».

مبارك كان حريصًا أن يظهر في صور مختلفة عمّن سبقوه، فقد كان يردد دائمًا أنه يصحو مبكرًا، ويلمِّع حذاءه بنفسه، ويرتدي بذلات صُنعت في المحلة الكبرى التي تشبه بذلات موظفي الحكومة، وأن «الكفن مالوش جيوب»!

وحين ألقى «مبارك» أول خطاباته قال: «لن أُخفي الحقيقة عن الشعب، ولن أتهاون مع الفساد والفوضى وانتهاك القانون».

وبالفعل بدأ «مبارك» في محاسبة بعض المقربين من «السادات»، فتمت محاكمة «عصمت السادات» شقيق الرئيس، وأبنائه بتهمة الفساد المالي، والتربح، والاتجار غير المشروع، وتم القبض أيضًا على «رشاد عثمان» المليونير السكندري الذي كان يقود الحزب الوطني في الإسكندرية، وهي محاكمات تحدثت عنها الصحف الحكومية باعتبارها دليلًا عمليًّا على تغير السياسات، ومحاربة الفساد.

وكانت تلك المحاكمات هي المانشيتات الرئيسية للصحف، حتى ظهرت قضية «توفيق عبد الحي» رجل الأعمال الذي اتُّهم باستيراد ٤٢٦ طنًّا من الفراخ الفاسدة، وبيعها للمصريين، علاوة على حصوله على قروض بلا ضمانات؛ لكن عندما استدعته النيابة اكتشفت هروبه إلى سويسرا.

(٢)

وفي الوقت نفسه سعى «مبارك» لإرضاء الجميع، فعندما كان يسأله الصحفيون عن توجهاته السياسية والاقتصادية، وهل سيسير على نهج «جمال عبد الناصر» أم «أنور السادات»؟ كان يجيب مبتسمًا: «أنا اسمي حسني مبارك».

واستمر في سياسة المصالحة مع السياسيين والمثقفين، ففي السابع والعشرين من أبريل أفرج عن دفعة أخرى من المعتقلين السياسيين الذين اعتقلهم الرئيس «السادات» تضم ٣٥٣ معتقلًا.

وفي هذا التوقيت حرص «مبارك» على أن يجلس مع كبار الكتاب والمثقفين ويستمع إليهم، وكانت عادته أن يلتقي معهم في الصباح الباكر في قصر العروبة، وكان من بين مَن حرص على عقد لقاءات منفردة معهم الأستاذ «محمد حسنين هيكل».

وبجانب اللقاءات أرسل «هيكل» إلى «مبارك» ست رسائل، الرسالة الأولى عنوانها «خطاب مفتوح إلى الرئيس حسني مبارك»، والثانية عنوانها «أسباب التأييد وأسباب الصمت»، والثالثة «الرأي العام في مصر غير مرتاح وغير مطمئن»، والرابعة «ملاحظات على سياسة مصر العربية»، والخامسة «العالم الذي نعيش فيه وقواه وصراعاته»، أما الرسالة الأخيرة فكان عنوانها «ما العمل؟ إذا كانت المشكلات مستحيلات، فمن يصنع المعجزات؟».

وتوقفت الخطابات...

وسافر «مبارك» إلى فرنسا، وهناك أحضر له الدكتور «بطرس غالي» منجِّمة فرنسية شهيرة في أوساط الدبلوماسيين، وقالت المنجِّمة لمبارك ضمن نبوءات أخرى كثيرة: «ستموت في السنة التي تعيِّن فيها نائبًا لك».

ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل «مبارك» يرفض طيلة حكمه تعيين نائب له، وحين وافق تم خلعه، ودخل السجن!

(٣)

وفي الذكرى الأولى لرحيل «السادات» أعد «إبراهيم سعدة» رئيس تحرير جريدة «مايو»، الناطقة بلسان الحزب الوطني، عددًا خاصًّا عن الرئيس الراحل، وتصدرت الصفحة الأولى عناوين على لسان «مبارك» تقول:

- **السادات كان عظيمًا في مصريته**
- **حياة السادات كانت سلسلة متصلة من القرارات التي غيَّرت مسار التاريخ**
- **مهما كانت المحاولات التي تسعى إلى طمس إنجازاته فإن**

وقد شارك عدد من كبار الكتاب والسياسيين في هذا العدد من بينهم «صلاح منتصر، ومحمود سالم، ومحسن محمد، وصبري أبو المجد، وكمال الشاذلي».

والمدهش أن الأديب العالمي «نجيب محفوظ» كتب مقالًا جاء فيه: «بدأ السادات حكمه بأن وهب الناس الأمان بعد خوف، والطمأنينة بعد القلق، والقانون بعد العصا، وعرف المواطن أن اللسان قدرة تعبير لا مجرد آلة تسجيل للألم، وأن القلم رأيٌ لا سجن ولا قهر، وأن الإنسان كائنٌ مقدس لا فأر تجارب».

واستطرد «محفوظ» قائلًا: «ثم فاجأنا بحربٍ، ولم نكن نعرف أن الحرب تعني إلا الهزيمة، في أسبوعٍ أو أيامٍ أو ست ساعات، فإذا بنا نتعلم أنها يمكن أيضًا أن تكون اقتحامًا وعبورًا ونصرًا، وإذا بأمة العرب تولَد من جديد نافضةً عن جسدها المتهالك غبار الهزيمة واليأس والخمول».

واختتم «محفوظ» مقاله قائلًا: «الإنجازات أكثر من أن يحيط بها حصر، ولا أُنكر ما صاحبها من أخطاء وتناقضات، ولكن العبرة بما يبقى مما ينفع الناس لا بالزبد الذي يذهب جُفاءً، رحم الله السادات، وأنعم علينا بإتمام رسالته».

وقد كتب «أنيس منصور» مقالًا بعنوان: «الأمير سلمان يسأل السادات: ما هي غلطتك الأولى يا فخامة الرئيس؟».

وبدأ «أنيس» مقاله قائلًا: «إنه من أحجار صغيرة يتكون الهرم، ومن ذرَّات لا نهاية لها يتكون الجبل، فكذلك الشخصية الإنسانية تتكون من كلمات وأهداف، وكلما كانت الشخصية كبيرة كانت جوانبها متعددة».

واستطرد «أنيس» قائلًا: كنتُ الصحفي الوحيد الذي رافق الرئيس

السادات في مؤتمر الرياض، وعندما خرج الرئيس من أحد الاجتماعات سألني الأمير سلمان أمير الرياض -ملك السعودية فيما بعد: نريد أن نعرف من فخامة الرئيس ما هي غلطته الأولى؟

فقال السادات: غلطة إيه؟

فرد «أنيس»: في مذاكرتك المنشورة في مجلة «أكتوبر» هذا الأسبوع تقول إنك ارتكبت غلطتين في حياتك.. ثم اكتفيت بذكر واحدة.

وضحك الرئيس، ولم يقل، وأدرك الأمير سلمان أن الرئيس لا يريد أن يذكر هذه الغلطة.. أما الغلطة الثانية: فهي أنه عندما أجريت القرعة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة على شكل الحكم فكتب كل واحد منهم ورقًا، كلهم قالوا: نريد حكمًا ديموقراطيًّا إلا السادات فكتب نريد حكمًا ديكتاتوريًّا، وغضب عبد الناصر من ذلك.

وأردف «أنيس منصور» قائلًا: أما الغلطة الأولى فقد همستُ في أُذن الأمير سلمان بها، فتغير وجه الأمير، وقال: «معه حق.. فليس من اللائق نشر شيء كهذا».

وفي رحلة العودة إلى القاهرة سأل الرئيس «السادات»، «أنيس منصور» قائلًا: «هل ذكرت للأمير سلمان الغلطة؟».

فأجاب «أنيس»: نعم.

وعادو «السادات» السؤال: «وماذا كان رأيه؟».

فأجاب «أنيس»: «قال إن الحق معك.. فليس هذا مما يقال».

١٩٨٣

حديثٌ مع الله

(١)

من دون مقدمات، وقعت معركة كبرى؛ لكنها ليست كسائر المعارك؛ لأنه قد يترتب على نتيجتها تكفير أحد طرفيها!

المعركة بدأت في الأول من مارس على صفحات جريدة «الأهرام» بسلسلة مقالات كتبها المفكر «توفيق الحكيم» على أربع حلقات بعنوان «حديثٌ مع الله».

ورفض الشيخ «الشعراوي» كل ما ورد في تلك المقالات، وقرر أن يرد على ما جاء فيها بحواره لجريدة «اللواء الإسلامي» بقوله: «لقد فتحتُ النار على هذه الحوارات لأنها دعوة للفكر والتطاول على الذات العليّة، ولو أن الدولة كانت تحتضن الدين كما احتضنت نظامًا، وفرضته لما استطاع واحد مثل هذا الكاتب أن ينال من الدين الحنيف»، ويستطرد: «إن الدين ليس له صاحب في مجتمعنا بدليل أن المنسوبين إلى الدين حينما تعرضوا لنظام الحكم سُجنوا».

وطالب «الشعراوي» بعقد ندوة تليفزيونية يحضرها هو من ناحية،

و«توفيق الحكيم، ويوسف إدريس، وزكي نجيب محمود» من ناحية أخرى، واشترط أن تكون على مسمع من المجتمع كله.

وسارع وزير الإعلام «صفوت الشريف» بالموافقة قائلًا: «إن مثل هذه الندوات تساعد على تبصير المجتمع بالقضايا الدينية».

وجاء الرد على الدعوة من الدكتور «يوسف إدريس» الذي علّق ساخرًا: «كنت أتصور أن المتعاركين حول من الأفضل، ومن الأقوى ومن الفارس الأوحد من جمهرة المستهلكين للشِّعر أو للكتابة، أما أن يصل الأمر إلى حد أن يعتنق شاعر وكاتب هذه الفكرة، فهو ما لم يحدث أبدًا إلا من قليل جدًّا من مراهقي الشعراء أو صغارهم حينما كانوا يفعلون مثلما كنا نفعل في ثانوي أو ابتدائي، ويزعم كلٌّ منَّا أنه الأطول ويتحدى الآخرين ليثبت لهم أنه الأطول، لكن ذلك زمن ولَّى ومضى، وفي عصرنا الحديث حلَّ الجدل محل التبارز».

ودافع الشيخ «الشعراوي» عن دعوته للمناظرة قائلًا: «لقد طلبت عقد ندوة يحضرها الحكيم، وإدريس، وزكي نجيب محمود بالتحديد، وتذاع من التليفزيون لكنهم هربوا من المواجهة، إنهم مدرسة واحدة تدَّعي الاشتغال بالفكر، ولقد ضاق الشباب ذرعًا بهذا الاحتيال والتزييف والنصب، وفقدوا الثقة في كل شيء إلا حكم الله، ولقد قصدتُ في دعوتهم إلى هذه الندوة أن لا أترك لأعداء الإسلام فرصة؛ لأن يخلو واحد منهم إلى نفسه يكتب ويُعدِّل ويمحو ويُثبت، هذا معناه تحريك العقل الماكر ليمكر، وأردت أن أدخل معهم في مواجهة مباشرة حتى لا يكون لديهم الوقت ليفرغوا ما لديهم من دعاوى، فالحقائق المختمرة في النفس لا تتطلب إلا المناسبة لتبرز، أما الأمور الملفَّقة فتحتاج إلى وقت لكي تلفَّق، وآخر ما يبقى بالنفس البشرية هو الحقائق».

(٢)

وبعد أن هاجم الشيخ «الشعراوي» معارضيه بصيغة الجمع بدأ مرحلة جديدة أكثر ضراوة بهجومه على كل واحدٍ منهم بمفرده.

فقال واصفًا «الحكيم»: «عجبتُ من رجل يعتبرونه شيخ الكتّاب يعلن أنه لم يعد صالحًا لأن يكتب مسرحيات وروايات، أي أنه لا يصلح لكتابة بشر إلى بشر ثم يتسامى إلى أن يتكلم مع الإله أو يستقبل كلامًا من الإله»، وينتقل «الشعراوي» إلى الحديث عن الدكتور «زكي نجيب محمود» قائلًا: «إن كتابات الدكتور وآراءه المنشورة في الكتب المطروحة في الأسواق ليس فيها ما يدل على توبته.. أليس هو مَن قال: (مهما قال العلماء بأن حديث الذبابة صحيح فلن أصدق فإنه يصيبني بالغثيان؟)، يقول الدكتور زكي إن حديث رسول الله يصيبه بالغثيان، هذا القول بعد قوله: مهما قال العلماء، يدل على إصرارٍ منه على (....)، وهذا يعني أن هناك خطة مدبَّرة للنَّيل من الإسلام».

وينتقل الشيخ «الشعراوي» إلى معركة جانبية مع «يوسف إدريس» على صفحات جريدة «الشعب»–لسان حال جماعة الإخوان– التي جعلت صفحاتها أرضًا للمعركة.

وطرح «يوسف إدريس» في حواره مع الجريدة عدة تساؤلات منها: «كيف أن عالمًا جليلًا في هذه المكانة يسمح لنفسه أن يتهم الآخرين بالكفر وإذا كان هو فعلًا غيورًا على الإسلام، فالإسلام ينص على أنه قبل الحكم على إنسان لا بد أن يحاكَم أولًا، ونعطي له فرصة الدفاع عن نفسه،

ولكن ليس هكذا، وبشكل غيابي يُصدر حكمًا بالرِّدة أو بالارتداد عن الدين، وهي التهمة التي يعلم جيدًا الشيخ الشعراوي أن عقوبتها الإعدام في ميدان عام، وإعدام مَن؟! إعدام رؤوس كبيرة في البلد تتلمذت على أيديهم أجيال وأجيال».

ورد «الشعراوي» قائلًا: «إن الشيء الذي أُحب أن أحدده ولا أدري كيف غاب عمن يتصيد ما يأخذه على شخصي أنني لم أرمِ أحدًا بالضلال أو الإضلال أو الكفر، ولا أدري ما الذي يجعلهم يجذبون هذه الألفاظ إلى جهتهم».

(٣)

وفجأة أعلن «يوسف إدريس» موافقته على عمل مناظرة مع الشيخ «الشعراوي» ولكن بشروط، هي: «أولًا، أن يفسر فضيلته لماذا أخذ موقفًا مؤيدًا تمامًا لمبادرة القدس التي كانت بداية الكوارث على الأمة العربية والإسلامية، بل عمل وقتها وزيرًا للأوقاف وبعيني رأيته مع الرئيس السابق السادات يحيِّي الذين وقفوا للتهنئة بمبادرة القدس.

ثانيًا، أريد أن أناقشه في موقفه المشهور في مجلس الشعب الذي قال فيه ما معناه إن على السادات (لا يُسأل عما يفعل) فصاح به الشيخ صلاح أبو إسماعيل عضو مجلس الشعب، قائلًا (يا راجل.. هذا معناه أنك ترفع السادات إلى مراتب الألوهية)!

فقط أريد إجابة عن هذا السؤال: يعني الرئيس السادات لا يُسأل «بضم الياء»، ونحن يتم تكفيرنا دون أن نُسأل، أم لأن السادات رئيس؟!

ثالثًا، كيف تقوم حرب لبنان، ولا يجنّد فضيلة الشيخ الشعراوي نفسه

لإثارة المسلمين ضد هذه الحرب وضد المذابح؟ أنا لم أقرأ أو أسمع له كلمة واحدة هجومًا على إسرائيل ولا على المذابح، إنه يقيم ندوة كل يوم جمعة بالتليفزيون، ومع ذلك لم يقل شيئًا عنها، كان المفروض أن يخصصوا ولو ندوة واحدة، ولكن كون الشيخ الشعراوي يترك المسلمين يُذبحون ويتكلم في إعراب القرآن، لذلك لا بد من مساءلة فضيلته عن هذا وهو رجل مسؤول بقدر عدد مَن يؤمنون به، وأنا لا أُدينه، ولكن أنا فقط أضع النقاط ونتكلم حولها».

لم يكتفِ الشيخ «الشعراوي» بالمعركة مع ثلاثة من أقطاب الفكر، بل صعَّد من حملته وهاجم صحيفتي «الأهرام» و«أخبار اليوم» لوقوفهما إلى جوار خصومه، وذلك في حواره مع جريدة «الأحرار» الذي جاء فيه: «إن تلك الصحف تحولت إلى وكر لنشر الإلحاد بين الناس بإفساح صفحاتها لمقالات توفيق الحكيم الذي يتطاول على الذات الإلهية ويتهجم على منهج الله تحت ستار ما يسمونه الاجتهاد وحرية الفكر، وأنه لا إكراه في الدين»، ولا تندهش حين تعلم أن تلك المعركة قد وصلت إلى ساحات المحاكم.

فقد قام «توفيق الحكيم» بمقاضاة الشيخ «الشعراوي»، وقام الشيخ بمقاضاة جريدة «أخبار اليوم» لنشرها خبر الدعوى التي أقامها «توفيق الحكيم» ضده قبل أن تصله عريضة الدعوى، الأمر الذي يعد مخالفة قانونية ارتكبتها «أخبار اليوم» في حقه، علاوة على التحيز الواضح من «أخبار اليوم» ضده لحساب «توفيق الحكيم» -على حد قوله- والدفاع عن أفكاره الغريبة، والترويج لها بين الناس رغم مخالفتها لأبسط قواعد الإسلام.

(٤)

ولم يصمت أساتذة «علم المعارك» في «الأهرام» و«أخبار اليوم» على هجوم الشيخ «الشعراوي».

فقد أجرت «الأهرام» حوارًا مع الشيخ حول ما ذكره في حديثه مع «الأحرار» من هجوم على «الأهرام» و«أخبار اليوم».

وقام الكاتب الصحفي إبراهيم سِعدة رئيس تحرير «أخبار اليوم» بنشر مقال تحت عنوان «الشعراوي وأخبار اليوم» جاء فيه: «فضيلة الشيخ الشعراوي شن هجومًا عنيفًا على صحيفتي الأهرام وأخبار اليوم، واتهم الأهرام بأنها أصبحت وكرًا للإلحاد، واتهم أخبار اليوم بأنها استغلت القضية التي بينه وبين الأستاذ توفيق الحكيم للإساءة إليه، والتحيز إلى جانب الحكيم».

وتابع «سِعدة» قوله: «بالأمس أجرت الزميلة الأهرام حديثًا مع فضيلة الشيخ الشعراوي حول هذا الموضوع قال فيه: إنه من العسير أن أحدِّثك عن المناخ الذي حدث في لقائي مع مندوب الصحيفة -يقصد الأحرار- ولقد كنت مشحونًا عاطفيًا بالنسبة إلى أشياء كثيرة وأنا لا أبرِّئ نفسي، ولكن فوجئت به حقيقةً وما أفزعني هو أن يُنشر ما قلتُه في صحيفة معارضة، لقد قال لي المحرر إنه قادم من أخبار اليوم».

ويستطرد «سِعدة»: «لقد أدهشني ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوي، فالذي قرأته عنه كان جديدًا بالنسبة لي، فالمحرر الذي أجرى معه الحديث الأول، والذي نُشر في صحيفة الأحرار هو زميل يعمل معنا في

أخبار اليوم، وسعى إلى مقابلة الشيخ الشعراوي دون أن يُخطرني بذلك، وأجرى الحوار، ولم يعرضه على المسؤولين عن النشر في أخبار اليوم وقد فوجئت بنشره في صحيفة أخرى، فقد ظن أن هجوم فضيلة الشيخ الشعراوي على الأهرام وأخبار اليوم سيكون مبررًا أمامي لمنع النشر، فآثر أن ينشره في صحيفة معارضة».

ويضيف «سِعدة»: «انزعجتُ كثيرًا لما قاله الشيخ الشعراوي عن موقفي منه الذي لا يجد مبررًا له، ربما يقصد فضيلته ما نشرتْه أخبار اليوم حول الخلاف الفكري بينه وبين الحكيم في أعقاب سلسلة المقالات التي نشرتها الأهرام للحكيم بعنوان (حديث مع الله) وهي المقالات التي انتقدها فضيلة الشيخ الشعراوي، والعديد من علماء الدين، وكان الهجوم على الحكيم قاسيًا وعنيفًا، ولم تتدخل أخبار اليوم في هذه المعركة الفكرية إلا من زاوية واحدة أعتقد أن فضيلة الشيخ الشعراوي يوافقنا عليها، فنحن لم نناقش ما كتبه الحكيم، ولم نؤيد ما كتبه على لسان الله سبحانه وتعالى، وإنما كل ما فعلناه هو أننا انتقدنا الذين شنوا حملة ضارية ضد كاتبنا الكبير توفيق الحكيم، واتهموه بكل كبيرة وصغيرة، فشككوا في إيمانه وأثاروا الرأي العام ضده، وطالبنا كل طرف باحترام الآخر، ومناقشة فكره، لا الطعن في مبادئه، ومعتقداته، وإسلامه».

وتابع «سِعدة»: «كل ما قاله الزملاء في أخبار اليوم انصبّ فقط في دائرة احترام الرأي والرأي الآخر، وطالبنا بالمناقشة الموضوعية التي لا تجرح ولا تتهم ولا تنتهك الحرمات، فمن حق كل كاتب أن يكتب رأيه -فما بالك بكاتب كبير مثل الحكيم- ويعلن إيمانه بالأسلوب الذي يراه».

واختتم «سِعدة» مقاله بقوله: «هذا موقف أخبار اليوم من هذه الزوبعة التي لم تكن نحب أن تطفو أو تُثار فأخبار اليوم ليست طرفًا في النزاع بين الشعراوي والحكيم، وإنما هي طرف في أي قضية يثار فيها حق الرأي الآخر

في أن يعلن رأيه ويحدد موقفه، ويطرح وجهة نظره في حرية وموضوعية، وهو الموقف الذي أثق تمامًا أن عالمنا الكبير فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي يوافقنا عليه، ويطالبنا بالتمسك به».

وعقب نشر تلك المقالة أصدر «إبراهيم سِعدة» قرارًا بمنع العاملين في «أخبار اليوم» من العمل في صحف أخرى، ومَن يخالف القرار يتم فصله فورًا.

(٥)

وفي الخامس عشر من أبريل أُسدل الستار على هذه المعركة، وذلك حين كتب توفيق الحكيم مقالاً قصيرًا في «الأهرام» بعنوان «يا رب»، جاء فيه:

«ألهمني الصواب يا ربي.. فأنا أخشى أن أكون مخطئًا في حديثي إليك.. فلقد أنشأت في هذا الحديث علاقةً بذاتك العليّة ليست مما يستسيغه الناس بين الخالق والمخلوق، ولم يفهموا أنها مجرد مناجاة حبٍّ علويٍّ ليس مما يُفهم أو يُؤخذ بالمدلول العادي من أنه تطاوُل على الذات الإلهية، وهو ما لا يمكن أن يخطر على بال أي (مؤمن بالله ورسوله) وحسبي الله ونعم الوكيل فيمن يفهمني خطأ ورماني بالضلال دون أن ينتظر حسابك أنت يا ربي يوم الحساب، ومع ذلك ألتمس منك المغفرة لمن ظلمني ولي إن كنتُ (سهوتُ) أو (أخطأتُ) وأنت الغفور الرحيم».

وجاءت نهاية تلك المعركة الكبيرة بالنهاية السعيدة.

فقد كتب الكاتب الصحفي «صلاح منتصر» في عموده اليومي بـ«الأهرام» أن «توفيق الحكيم» كان مريضًا، ورأى الشيخ «الشعراوي»

في المنام، ورآه يربت على كتفه وذكر في نهاية عموده أن كل ما يطلبه «الحكيم» أن يزوره الشيخ في المستشفى التي نُقل إليه للعلاج، وبالفعل زاره الشيخ «الشعراوي»، وتصالحا.

١٩٨٤
للحقيقة وجوه كثيرة.. جدًّا!!

(١)

«إذا لم أتكلم الآن فمتى.. وإذا لم أتكلم أنا فمن؟!»..

هكذا بدأ الأستاذ «محمد حسنين هيكل» كتابه «بين الصحافة والسياسة» الذي بمجرد أن خرج إلى النور، أقام حربًا كبرى بين القوى العظمى في صاحبة الجلالة.

الأول: هو هرم الصحافة الأكبر «مصطفى أمين».

والثاني: هو الجبل المتحرك بالوثائق «محمد حسنين هيكل».

لكن -مع الأسف- رغم كل ذلك، للمعارك قوانين أخرى تحكمها، تلك القوانين لا تعرف شيئًا اسمه الرحمة، فبمجرد أن تدخل إلى ساحة المعركة عليك أن تضع قلبك تحت قدميك ثم تنحِّي المبادئ جانبًا، ولا تفكر إلا فيما يُدين خصمك كي تبدو نجمًا أمام محكمة الرأي العام.

بمجرد أن بدأت تلك المعركة التاريخية بين أسطورتي الصحافة «مصطفى أمين» و«هيكل» كان على كلٍّ منهما أن يفتح ملفاته المغلقة، ويفتش في دفاتره القديمة، ويبحث عن أي معلومة يُدين بها الآخر

حتى ولو كانت نسبة صحتها واحد بالمئة، فعليه فقط أن يبرِّئ ساحته، فللحقيقة وجوه كثيرة، ولا توجد مُسلمات في أرض المعارك.

فـ«هيكل» عاد بذاكرته الوثائقية إلى عام ١٩٤٥ ويقول:(فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ظهرت فجأة في طهران دار صحفية كبرى كان أبرز ملامحها دعوتها المستمرة لمجموعة قيم جديدة وطريقة جديدة في الحياة وهي «دار كيهان» المشهورة، ولم تترك الوثائق التي وُجدت في مبنى السفارة الأمريكية في طهران -حين احتلها طلبة الثورة الإسلامية في إيران- مجالًا لأحد أن يشكّ في الملابسات التي اكتنفت تأسيس الدار وظهور صحفها.. ويخطر على البال أن «أخبار اليوم» ظهرت في نفس هذه الفترة -أواخر ١٩٤٤- فهل كانت «أخبار اليوم» حلقة في هذه السلسلة؟ إن الأستاذ «مصطفى أمين» في رسالة له اعترف بأنه قابل «كيرمت روزفلت وإرشي روزفلت» لأول مرة في نفس هذه السنة.. فهل هي مصادفة أم هي أكثر؟).

واستطرد «هيكل» بقوله: (خاطرٌ آخر يطرح نفس السؤال وهو أن مراسلي «أخبار اليوم» في الخارج وقت إنشائها كانوا -كما يبدو لنا الآن- طرازًا غريبًا من الصحفيين، فكان مراسلها في نيويورك -مثلًا- هو «جوزيف ليفي» واتضح فيما بعد أنه لم يكن يهوديًّا فقط وإنما كان واحدًا من أبرز الدعاة للوكالة اليهودية المقدِّمة الأولى لحكومة إسرائيل، وكان مراسلها في لندن «جون كيمشي» والآن نعرف أنه ابن عم «دافيد كيمشي» وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية، ولم تكن المسافة بعيدة بين الصهيونية والسياسة الأمريكية خصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية.. مصادفات هي أم شيء أكثر؟).

(٢)

أما «مصطفى أمين» فلم يقف صامتًا أمام هذا السيل من الاتهامات، فيقول: (ذات يوم كان «هيكل» يغطي اجتماعات جامعة الدول العربية بمدينة «بلودان» في لبنان، وعندما عاد إلى القاهرة دخل إلى مكتبي، وقال لي: سبقٌ صحفي.. حصلت على تصريحات خاصة لـ«أخبار اليوم» من رؤساء وزراء لبنان والعراق والسعودية و.. و.. و.. واعتقدت يومها أن «هيكل» صادق فيما يقول، ولهذا أمرت بتخصيص الصفحة الأولى لهذه التصريحات المهمة، وإذا بي أفاجأ أن وكالات الأنباء تذيع نصوص رؤساء الوزراء في افتتاح جامعة الدول العربية بلبنان، وهي طِبق الأصل مما ادّعى «هيكل» أنها تصريحات خاصة حصل عليها بمفرده، فقد فبرك هذه الخطب، وأعدَّها على أنها حديث معه شخصيًا، واكتشفتُ هذه الفضيحة، وكدتُ أفصله لولا تدخل شقيقي «علي»).

وتابع «أمين» قوله: («هيكل» ادَّعى أن «عبد الناصر» قد زاره في مكتبه في «أخبار اليوم» ليحصل على نسخة من كتابه «إيران فوق البركان» الذي أصدره قبل الثورة، والحقيقة أن «عبد الناصر» لم يَزُر «أخبار اليوم» إلا بعد الثورة، وكان سبب الزيارة المؤتمر الصحفي لقادة الثورة مع الصحفيين الأجانب، وقد حضره «عبد الناصر» ومعه كل زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة).

أما «هيكل» فيذهب للحديث عن علاقات «مصطفى أمين» قبل الثورة فيقول: (كان الأستاذ قد تعود على الاتصال بالحُكام قبل الثورة، وكان اتصاله بالقصر المَلَكي قد توثّق في أثناء توليه رئاسة تحرير مجلة «الاثنين» فقد لعب دورًا كبيرًا في الحملة على حزب الوفد، وعلى رئيسه

«مصطفى النحاس باشا» وكانت المهمة التي قام بها هي العمل على ترويج شعبيه المَلِك، فكان ضمن المجموعة التي صحبت المَلِك في رحلته للصعيد سنة ١٩٤٤ في أثناء انتشار وباء الملاريا، وكانت مجلة «الاثنين» هي التي خلعت على المَلِك فاروق أوصافًا مشهورة مثل «الوطني الأول» وحتى عام ١٩٥٢م فإن «أخبار اليوم» خرجت ذات يوم تصف المَلِك فاروق بأنه «الفدائي الأول» وبأنه تبرع للفدائيين المصريين العاملين في منطقة قناة السويس ضد الاحتلال البريطاني بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه).

ويستطرد قائلًا: (اشترك الأستاذ «مصطفى أمين» اشتراكًا فعليًّا في المناورات التي سبقت إقالة وزارة «مصطفى النحاس» في أكتوبر ١٩٤٤ وأُنعم عليه برتبة الباكوية، وفي أثناء حكم وزارات الأقلية من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٠ كان الأستاذ هو الصحفي المعبِّر عن السراي واتجاهاتها).

(٣)

كان منطقيًا أن تلاميذ «مصطفى أمين» لن يتركوه وحيدًا في مواجهة هيكل، فقد كشف الكاتب الصحفي «محسن محمد»، رئيس تحرير جريدة «الجمهورية» الأسبق، عن وثيقة سرية كانت محفوظة في دار الأرشيف الوطني في واشنطن، تتحدث عن المعلومات التي كان يقدمها «محمد حسنين هيكل»، المحرر بمجلة «آخر ساعة» حينذاك، إلى السفارة الأمريكية بالقاهرة عن أسرار السياسة المصرية، والاتصالات التي كانت تجري بين القصر، والإنجليز، والوفد، والأحزاب الأخرى.

وخرجت مجلة «الحوادث» اللبنانية بمفاجأة من العيار الثقيل عندما نشرت صورة للقاء تم بين «هيكل» و«خروشوف»، رئيس الاتحاد السوفيتي الأسبق، وذكرت أن «خروشوف» قال لـ«هيكل» في أثناء هذا اللقاء

إنه يعلم أنه يتقاضى مبالغ من المخابرات الأمريكية، وعندما أنكر «هيكل» ذلك، وقال إنه يحصل على هذه المبالغ مقابل مقالات أرسلها لـ«نيويورك تايمز» ولـ«الواشنطن بوست»، رد عليه «خروشوف» ساخرًا: «لا يُعقل أن تقبض مئة ألف دولار على هذه المقالات»!

وتنتقل المعركة إلى ميدان آخر لعله الأهم على الإطلاق، ذلك الميدان الذي يكشف فيه «هيكل» تلك الرسالة التي سماها «الرسالة الوثيقة» والتي تتضمن اعترافًا كاملًا من «مصطفى أمين» على نفسه بالعمالة لصالح الأمريكان، لكنه أيضًا يشير فيها إلى أنه كان يفعل ذلك بحُسن نية، حيث إنه ينقل المعلومات للأمريكان بهدف الحصول على معلومات أهم يبلغها للقيادة المصرية، وهنا يتساءل «هيكل»: (لماذا لا يفسِّر ما كان الأستاذ «مصطفى أمين» يقوله لـ«بروس تايلور أوديل» وغيره ممن كان يتصل بهم باعتباره حوارًا يستهدف الحصول على أخبار؟! يمكن؟ لكن المشكلة أن بعض ما قيل يستعصي تطويعه لهذا التفسير، فعلى سبيل المثال: هل يمكن أن تُخضع أخبارًا من نوع:

- أن الشيوعيين استولوا على كل شيء في مصر خصوصًا في الصحافة، وأن «عبد الناصر» يتصور خطأ أنه يستطيع اعتقالهم في نصف ساعة.
- أن هناك انفجارًا وقع على مدمرة مصرية في ميناء الإسكندرية.
- أن هناك صفقة أسلحة جديدة مع الاتحاد السوفييتي.
- أن قادة القوات المصرية المسلحة يفعلون كذا في يوم كذا.
- أن مصر اتفقت مع الصين على صنع قنبلة ذرية (كانت هناك اتصالات بالفعل بين مصر والصين بشأن التكنولوجيا الذرية).
- أن «جمال عبد الناصر» مريض بالسكر.

- أن الوضع الاقتصادي لمصر ينهار لدرجة أنها تبيع احتياطيها من الذهب.

- أن سيارة عسكرية ضُبطت محملةً بأكثر من ٣٠٠ كجم من الديناميت وأن رقمها ٣٩٠٣٦.

وأن.. وأن.. من كل ما حوته الملفات والأشرطة، ثم جاءت لتؤكده الرسالة الأخيرة التي كتبها الأستاذ «مصطفى أمين» لـ«جمال عبد الناصر»، فضلًا عن المواعيد المحددة كل أسبوع والأسئلة المكتوبة الموجَّهة، والحقائب المطلوب إخراجها، والأموال المطلوب تهريبها إلى الخارج.. إلى آخره... قضية معقدة).

ويروى «مصطفى أمين» الظروف التي كتب فيها هذه الرسالة بقوله: (ساقني القدر في منتصف ليلة سوداء لأدخل «الأوبرج» وكان في استقبالي اللواء «حمزة البسيوني» مدير السجون الحربية وملكها المتوج، والخبير العالمي في شؤون التعذيب، استقبلني ومعه «ميمي» و«ليلي» وهما الكلبان المعدَّان لاستقبال النزلاء، واستمر هذا النوع من التعذيب أحد عشر يومًا، وفي اليوم الثاني عشر أخذوني ليلًا إلى مكتب اللواء «حمزة البسيوني» ووجدته في انتظاري ومعه عدد من ضباط «صلاح نصر» وأمر كبيرهم أن أخلع ملابسي ليرى آثار التعذيب على جسمي! ثم التفتَ إلى «حمزة» قائلًا: لا يا حمزة بك.. أنتم دللتموه جدًّا.. وهنا هوى الشاويش المصاحب لي بالسوط الذي يحمله على صدري بضربة ظللت أتألم منها لمدة عام كامل).

(٤)

أما قرار الإفراج عن «مصطفى أمين» -بعد أن قضى قرابة تسع سنوات خلف القضبان- فله قصة يحكيها الكاتب الكبير «موسى صبري» بقوله:

(بدأتُ الاتصالات بـ«السادات» للإفراج عن «مصطفى أمين» منذ أن تولى الرئاسة، ولكنه كان يجيب إجابات عامة لا توحي بأي شيء، وشارك معي في ذلك الصحفي اللبناني «سعيد فريحة»، وأراد -يقصد «فريحة»- من «هيكل» أن يسهم معنا في ذلك؛ ولكنه رفض، بل لامَ «فريحة» على جهوده، لكني انتهزتُ فرصة وجودي وزوجتي في حفل زفاف كريمة الرئيس «السادات» ومعي «أحمد رجب» وزوجته و«محمود أبو وافية» وزوجته والفنان «عبد الحليم حافظ»، وتحدث كل منّا طالبًا الإفراج عن «مصطفى أمين»، وركزتُ في حديثي على أن حالته الصحية خطيرة، وأنه يعاني من ارتفاع ضغط الدم وجفاف الأوعية الدموية، وقال «أحمد رجب» في عصبية: إذا كان لا بد من سجن إنسان بريء فأرجو أن تأمر بسجني بدلًا من «مصطفى أمين»، وقال «أبو وافية»: «إنك وعدتَ بإنصاف كل مظلوم».. ولم يُعقب الرئيس السادات.

وتابع «موسى» قوله: (في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالي فوجئتُ بمكالمة تليفونية من الرئيس «السادات»، وقال لي: أنا وقّعت الآن قرار الإفراج عن «مصطفى أمين».. تستطيع أن تنشره لكن بشرط أن لا يعرف «هيكل» الخبر)!

وجاءت رواية «هيكل» لتلك الواقعة مخالفة تمامًا لما قاله «موسى صبري» فقد قال: (سألني «السادات» على غير انتظار أو توقّع: ما رأيك في الإفراج عن «مصطفى أمين»؟ ألم تطلب مني أكثر من مرة أن أُفرج عنه؟ إنهم يطلبونه مع الجواسيس وأنا أريد أن أجاملهم فيه.. وتساءلت مَن هم؟ قال: كثيرون.. الأمير سلطان وكمال أدهم، الوسيط السعودي لدى المخابرات الأمريكية).

وتابع «هيكل»: (سكت «السادات» -لحظة ثم استطرد: ولماذا لا أجامل الأمريكان فيه؟! وقلت: الأمر لك بالطبع، وإن كنت أخشى من

الإفراج عنه في هذا الإطار الذي يعد إساءة إليه.. لماذا لا تجعل فاصل أسبوع أو أسبوعين بين الإفراج عنه والإفراج عن كل هؤلاء الذين طلبتهم إسرائيل وطلبهم «هنري كسينجر»؟ وأضفتُ: إنني جئتُ إليك الآن وفي نيتي أن أنقل إليك رسالة من «علي أمين» يرجوك فيها الإفراج عن توأمه وهو على استعداد أن يأخذه من باب السجن إلى باب طائرة تذهب بهما إلى أي مكان خارج مصر.. فقال «السادات» بسرعة: «عال.. ياخدوه.. ويغوروا»، ثم نظر إليَّ بنصف ابتسامة ونصف عين، وقال: «أنت تدَّعي أنك تفهم في السياسة وأنا أقول لك العكس.. لو أنك تفهم في السياسة لَوافقتني في ما قلت، فمن الأفضل الإفراج عن مصطفى ضمن هذه الصفقة حتى لا يتجاسر يومًا ويفتح فمه، وإذا فتحه فنقدر نضربه بـ...).

(٥)

ونتنقل إلى الشهود على تلك المعركة التاريخية، فلكلٍّ منهم رأي، فالكاتب الصحفي «صلاح منتصر» عرض فكرة أن يتم التصالح بين «مصطفى أمين» و«هيكل» فكان يرى أن الظروف تغيرت وسكنت المعارك، وكان «هيكل» جالسًا وقت طرح هذه الفكرة لكنه رفض التعليق، أما «مصطفى أمين» ففي حواره مع الكاتبة الصحفية «نوال مصطفى» كان كلامه قاطعًا فقال: (شرطي الوحيد لمصافحة «هيكل» أن يعترف بأنه افترى عليَّ، وأنا ما قاله ليس صحيحًا).

أما الكاتب الصحفي «عادل حمودة» فيقول: «كنت في البداية متحمسًا لفكرة التصالح لكن بعد أن أمعنت النظر وجدتُ أن القضية ليست قضية شخصية، وليست صراعًا أشبه بصراع الديناصورات أو الحيتان الهائجة،

القضية قضية اختلافات في رؤية النظام وطبيعته، وتوجهاته، ونوعية القوى التي يجب أن تديره أو تسيطر عليه، ومهما كانت المواقف الشخصية فإن المواقف السياسية هي التي تغلب وتحسم في النهاية».

لكن كان هناك سؤال جوهري في تلك المعركة وهو: هل كان «مصطفى أمين» جاسوسًا؟ وهل كان «هيكل» وراء ما حدث له؟

ذهبتُ بهذا السؤال إلى الكاتب الصحفي «محمود فوزي» الذي جلس مع الاثنين وكتب كتابًا عن كلٍّ منهما، وأجاب: («مصطفى أمين» لم يكن جاسوسًا على الإطلاق، ولكنه كان على خلاف مع «عبد الناصر» سببه الوشاية من بعض المقربين من السياسيين والصحفيين، لكني أستبعد أن يكون «هيكل» وراء ما حدث له؛ لأنها ليست هذه أخلاق «هيكل»).

١٩٨٥

القنبلة

(١)

صدر قرار سرِّي؛ لكن الجميع كان يعلمه!

القرار: منع ذكر اسم الفنان «عادل إمام» في كافة إصدارات «دار أخبار اليوم».

متخذ القرار: «إبراهيم سِعدة» رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير «أخبار اليوم».

السبب: كتب «إبراهيم سِعدة» سلسلة مقالات بعنوان «القنبلة»، وطلب من «عادل إمام» أن يقرأ السلسلة بأكملها كي يحوِّلها إلى عمل سينمائي، لكن الزعيم رفض بشدة، وبرر رفضه قائلًا: «إن هذا لا يصلح للسينما».

وغضب «إبراهيم سِعدة» بشدة، وشنت «أخبار اليوم» هجومًا عنيفًا على «عادل إمام» باعتباره أخطأ في حق أكبر رأس في المؤسسة.

ولم يعد ممكنًا أن يقوم صحفي في «أخبار اليوم» بإجراء حوار مع «عادل إمام» أو الحديث بالإيجاب عن أفلامه أو مدح مسرحياته أو الإشادة بمسلسلاته.

لكن الأكبر من ذلك أن صفحة التليفزيون كانت تحذف اسم «عادل إمام» من أعماله، فتجد فيلم «المولد» بطولة «عبد الله فرغلي ويسرا»، وفيلم «طيور الظلام» بطولة «رياض الخولي وأحمد راتب»، ومسرحية «الواد سيد الشغال» بطولة «عمر الحريري، ومشيرة إسماعيل»!

ولم يتم الاكتفاء بذلك...

فقد صدرت أوامر السيد رئيس مجلس الإدارة بالتنبيه على كُتاب المقالات بعدم ذكر اسم «عادل إمام»، ومَن يخالف لا يُنشر مقاله.

وبعد سنوات حين صدرت مجلة «أخبار النجوم» شنت حملة كبرى ضد «عادل إمام»، وكان غلاف المجلة يقول: «هل انتهت ظاهرة عادل إمام؟».

وبالطبع كان الجواب جاهزًا قبل طرح السؤال، فقد اعتبرته المجلة الفنية ظاهرة انتهت، واستعانت بكل مَن يهاجمه من القراء، والنقاد، والصحفيين.

(٢)

وفي إحدى المناسبات العامة التقى الأستاذ «محمد حسنين هيكل» النجم «عادل إمام» والكاتب الصحفي «إبراهيم سِعدة».

وفي لحظة صفاء باح «إبراهيم سِعدة» لـ«هيكل» بالغضب المكتوم تجاه «عادل إمام»، ونظر «هيكل» إلى كلٍّ من «عادل» و«إبراهيم» ثم سأل عن سر الغضب فحكى «سِعدة» قصة «القنبلة» وكيف أن «عادل» رفض الفكرة، وبسلاسته المعهودة رد «هيكل»: «دي وجهة نظر فنان كبير، ولا مجال لمناقشة وجهة نظر فنية».

فصمتَ «سِعدة» وتهللت أسارير «عادل إمام»-على حد تعبير «أكرم السعدني» الذي روى الواقعة- وأُغلق النقاش إلى الأبد، لكن لم تهدأ المعركة.

وفي هذا التوقيت كانت السينمات تعرض فيلم «الإنس والجن» لـ«عادل إمام»، وهو أول فيلم يتم تطبيق الحظر عليه، فلم يأتِ ذكره في «أخبار اليوم».

وظل الوضع هكذا لمدة تقترب من عشرين عامًا، ولم يجرؤ أحد على مخالفة القرار، وحتى إن خالفه، فلن يعلم أحد؛ لأن الجريدة لن تنشر مقاله.

ربما الاستثناء الوحيد من تلك القاعدة كان الكاتب الكبير «أحمد رجب» الذي خرق حظر النشر، وحملة التشويه، والمقاطعة، وكتب مشيدًا بالزعيم «عادل إمام» في «نص كلمة».

(٣)

وفي تلك الأثناء توالت الأحداث في دول الجوار، ففي السودان حدث انقلاب وتمت الإطاحة بالرئيس «جعفر النميري» خلال زيارته لمصر!

وفي ليبيا قرر «معمر القذافي» طرد ثلاثين ألف تونسي، وتم قطع العلاقات الدبلوماسية بين تونس وليبيا.

وكانت العلاقات المصرية الليبية مهددة بنفس المصير، وذلك بعد أن خطفت جماعة مسلحة طائرة مصرية في أثناء رحلتها من أثينا إلى مالطة، وقتلت ثلاثة من ركاب الطائرة.

واتهمت السلطات المصرية نظيرتها الليبية بأنها وراء الحادثة، وظلت تلك الحادثة هي الأبرز في الصحف حتى تم تحرير الرهائن بعد أن هاجمت القوات الخاصة المصرية المُسلحين.

(٤)

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس نشرت مجلة «صباح الخير» الحلقة الرابعة من سلسة حلقات بعنوان: «يوسف إدريس يتذكر: صحافة عبد الناصر والسادات».

وفي داخل العدد أفردت المجلة ست صفحات لحوار طويل أجراه الكاتب الصحفي «رشاد كامل» مع الأديب الكبير «يوسف إدريس»، وقد سأله «رشاد» عن سر الخلاف الكبير بين «السادات» و«هيكل»، وأجاب «إدريس» قائلًا: («هيكل» كان لُقمة كبيرة على «السادات»، ولما تيجي تحسبها بأن نضع كلًا من «السادات» و«هيكل» وحدهما في غرفة واحدة، تأكد أن «هيكل» سيأكل «السادات» بمنطقه المتكامل، ثم إن الأمور تغيرت فـ«السادات» صار رئيسًا للجمهورية ثم أنجز حرب أكتوبر وأصبح كبيرًا في حق نفسه، ومحتاجًا إلى أحجام أقل من «هيكل» بكثير، وفي نفس الوقت «هيكل» لم يكن لديه الاستعداد أن يُحجّم أو يُصغّر نفسه!).

وروى «إدريس» الطريقة التي تم تعيينه بها في جريدة «الجمهورية» قائلًا: (في إحدى الفترات جاءت هوجة تعيين الكتاب والأدباء في «الجمهورية»، وأذكر في أحد الأيام وكنت أصعد في الأسانسير وتصادف أن كان معي في نفس الأسانسير «صلاح سالم»، وسألني: أنت عايز تتعين

في «الجمهورية» بكام؟ فقلت: عايز مئة جنيه مرتب.. وفوجئت بالرجل يقول لي ببساطة: خلاص.. أنا موافق).

واكتشف «يوسف إدريس» أن هذا المبلغ الذي طلبه هو بالضبط نصف ما يتقاضاه زملاؤه في الجريدة!

وذكر «إدريس» واقعة طريفة حدثت معه حين كان كاتبًا في «الجمهورية»، وفي أحد الأيام كتب مقالًا بعنوان «الحرية الحقيقية هي أكل العيش»، وذلك تعليقًا على خطاب للرئيس «جمال عبد الناصر» ذكر فيه نفس الجملة، ولكنه بعد أن سلَّم المقال الذي ينتقد فيه كلام الرئيس، فوجئ بالمقال في اليوم التالي يحمل معنى عكس ما كتبه، وبدلًا من أن ينتقد الرئيس صار يؤيده، ويدافع عنه!

وعندما سأل «يوسف إدريس» عما جرى علم أن رئيس التحرير قام بإعادة ترتيب المقال، وقام بعمل مونتاج في غاية الذكاء -على حد تعبير «إدريس»- بحيث أصبح المقال تأييدًا لخطاب الرئيس في عيد العمال.

لكن أخطر ما قاله الدكتور «يوسف إدريس» في حواراته مع «رشاد كامل» قوله: (إن أكبر جهاز شعبي من أجهزة الدولة عانى في عصر «عبد الناصر» و«السادات» و«مبارك» هو الصحافة، وستظل صحافتنا تعاني لفترة طويلة؛ لأنها «اتمرمغت» في الوحل، ولم يُترك صحفي واحد شريف أو غير شريف إلا وتم إذلاله، وإهانته، واضطهاده، ولم تكن الفرصة متاحة أبدًا للصحفي النابغ، وإنما كانت الفرصة متاحة باستمرار للصحفي «الذيل» والعميل).

١٩٨٦

البريء

(١)

- حظر التجول في القاهرة نتيجة أعمال شغب لبعض قوات الأمن المركزي
- بيان خطير للرئيس مبارك يؤكد فيه «لا تهاون مع مَن يتورط في خيانة الوطن»
- شائعات مغرضة حول مد فترة تجنيد قوات الشرطة تفجِّر موجة من العنف والتدمير
- عناصر التخريب تُشعل النار في الفنادق والمنشآت السياحية والاقتصادية بالهرم والمعادي
- الشغب يمتد إلى ٦ محافظات.. والعناصر المخربة تقتحم سجن طرة وتطلق سراح بعض المسجونين

هكذا خرجت مانشيتات جريدة «الأهرام» في صباح يوم الخميس ٢٧ فبراير.

لكن قبل يومين، وتحديدًا في السادسة من مساء يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير،

قام ثمانية آلاف جندي بمظاهرات احتجاجية بعد أن ترددت بينهم أنباء تفيد بأنه تقرر مد فترة التجنيد الإجباري لأفراد الأمن المركزي من ثلاث سنوات إلى أربع سنوات.

وخرج الآلاف من الجنود الغاضبين من معسكرين للأمن المركزي في منطقة «الأهرامات مندفعين بخوذاتهم، ورشاشاتهم، وبنادقهم في مظاهرات مسلحة إلى فندق «الجولي فيل» وهو واحد من أحدث وأضخم فنادق القاهرة، ويقع في مواجهة أحد المعسكرين اللذين بدأ منهما التحرك مباشرة.

وحطم الجنود الواجهات الزجاجية ثم اقتحموا الفندق، وبدؤوا يحرقون كل ما فيه، كما قاموا بإحراق فندق «هوليداي سفنكس»، ومبنى قسم شرطة الهرم، وفندق «سيناهاوس»، وبعض المحلات التجارية الكبيرة في المنطقة.

وخلال ساعات استطاع الجنود احتلال منطقة الهرم بأكملها بما في ذلك مداخل طريق الإسكندرية الصحراوي، وطريق الفيوم، وترعة المنصورية.

(٢)

وفي الثالثة من صباح الأربعاء ٢٦ فبراير أُعلنت حالة الطوارئ، وتم فرض حظر التجول في تلك المنطقة.

وفي نحو السادسة صباحًا تم استدعاء الجيش، وانتشرت مدرعاته، وحاصرت جنود الأمن المركزي، وسيطرت على الأوضاع.

لكن في الساعات الأولى من صباح الأربعاء، تطورت الأحداث،

وامتدت إلى ستة معسكرات مختلفة من الجمهورية (القاهرة، والجيزة، والقليوبية، وسوهاج، وأسيوط، والإسماعيلية).

وتعالت أصوات اشتباكات الرصاص مع قوات الجيش التي كُلِّفت بسحب السلاح من جنود الأمن المركزي، ووقعت أول هذه الأحداث في معسكر الهايكستب القريب من مطار القاهرة.

وفي الثامنة والنصف تجمهر جنود الأمن المركزي في معسكر لهم يقع في شارع جسر السويس، وحين وصلت القوات المسلحة إلى المعسكر اشتبك معهم الجنود، وتحول الاشتباك إلى مطاردة في الشوارع الجانبية المتفرعة من جسر السويس، وتم إغلاق شارع جسر السويس وتعزيز قوات الجيش.

وفي الدرّاسة، حيث يقع معسكر ضخم لقوات الأمن المركزي، تبادل الجنود المحتشدون النار مع قوات الجيش، ولجأ بعض جنود الأمن المركزي إلى البيوت المحيطة بالمعسكر ومنطقة المقابر بعد نفاد ذخيرتهم.

أما في معسكر شبرا فقد رفض الجنود الاستسلام للجيش وانتشروا في المنطقة المحيطة بهم، وحاولوا تحطيم أكبر محطة للكهرباء في القاهرة.

ويعد تحرك الأمن المركزي في منطقة طرة، أخطر التحركات جميعًا، ففي أثناء محاولة الجيش استلام المعسكر واجههم الجنود بإطلاق النار، وبدأت طائرات الجيش الهليكوبتر بقذفهم بالرصاص.

وخرج جنود المعسكر بالآلاف فارّين إلى الشوارع حاملين معهم أسلحتهم، فتم إعلان حظر التجول في كل مناطق العاصمة، وتم تحذير المواطنين من البقاء في شوارع المدينة بعد ساعتين من قرار الحظر.

كان الوضع خارج القاهرة أقل حدّة، حيث انحصرت انتفاضة الجنود في القليوبية والإسماعيلية وسوهاج داخل المعسكرات، واستطاعت

قوات الجيش أن تحاصرهم وتنزع أسلحتهم.

وكان الاستثناء الوحيد في أسيوط حيث كانت الأحداث أشد عنفًا، ولكنّ «زكي بدر» محافظ أسيوط، وقتها، كان أكثر عنفًا، فتم قمع الجنود بجميع الوسائل، وإحكام السيطرة عليهم.

ونتيجة تلك الأحداث أصدر الرئيس «مبارك» قرارًا بإقالة اللواء «أحمد رشدي» وزير الداخلية، وتعيين «زكي بدر» بدلًا منه.

(٣)

المدهش أنه في هذا التوقيت كان السينمات تعرض فيلم «البريء» للمخرج «عاطف الطيب»، والذي كتبه «وحيد حامد» قبل تلك الأحداث، وقام ببطولته «أحمد زكي» ومعه «محمود عبد العزيز وصلاح قابيل وممدوح عبد العليم».

وكان إهداء الفيلم «إلى عشاق الحرية والعدالة في كل زمان ومكان»؛ لكن الرقابة لم ترضَ عن الفيلم، فقامت بحذف بعض المشاهد منه، خوفًا من أن يتسبب الفيلم في إثارة تعاطف الناس مع جنود الأمن المركزي.

وفي اليوم الذي حرق فيه جنود الأمن المركزي الملاهي الليلية بشارع الهرم، صدر الديوان الأول للشاعر «بهاء جاهين» وسمّاه «الرقص في زحمة المرور».

ويومها ربط «صلاح جاهين» في كاريكاتيره بجريدة «الأهرام» بين أحداث شارع الهرم، واسم ديوان ابنه «بهاء»، وقال ما معناه: «بعد أحداث الشغب أين يرقص الناس، لا بد أن يرقصوا في زحمة المرور».

وفوجئ «جاهين» بحذف اسم «بهاء» من الكاريكاتير على يد

المسؤول عن الديسك المركزي -وكان وقتها الصحفي «مرسي عطا الله» الذي صار فيها بعد رئيس مجلس إدارة «الأهرام»- ويومها علّق «جاهين» على منتقديه أنه يروّج لديوان ابنه قائلًا: «والله يا جماعة أنا لو شفت إن الديوان ده لواحد غير ابني كنت كتبت نفس التعليق واسم المؤلف».

ولم تمر تلك الحادثة مرور الكرام بل تركت أثرًا عميقًا داخل «جاهين»، خصوصًا أنه في ذات التوقيت قام المسؤولون عن المسرح القومي بسحب مسرحيته «إيزيس» التي كانت تحقق أعلى إيرادات في تاريخ القطاع العام ليضعوا بدلًا منها مسرحية أخرى.

وفي ليلة ١٦ من أبريل، أغارت القوات الجوية الأمريكية على ليبيا، وسقط مئات المدنيين، ودخل «صلاح جاهين» غيبوبة الموت، ورحل بعد خمسة أيام فقط من دخوله المستشفى.

(٤)

وعاد «محمد حسنين هيكل» إلى الكتابة في الصحف المصرية بعد سنوات طويلة من الغياب، لكنه لم يعد إلى «الأهرام» وإنما إلى «أخبار اليوم» بناءً على دعوة من رئيس تحريرها «إبراهيم سعدة».

وبدأ «هيكل» سلسلة مقالاته بمقالين متتاليين بعنوان «صُنع القرار السياسي في مصر»، واستهلَّ مقاله الأول قائلًا: («تكتب أو لا تكتب؟!» سؤال كان مطروحًا عليَّ طوال الأسابيع الأخيرة، يليه مباشرة سؤال ثانٍ: «وإذا كتبت فمن أين تبدأ؟!».. ولم أكن متأكدًا من الجواب عن السؤال الأول، ولم يكن لديَّ شك في الجواب عن السؤال الثاني، فقد كان اختياري للموضوع الذي قدرت أن أبدأ به واضحًا في تفكيري وشبه محدد: «عملية صُنع القرار السياسي في مصر»!).

ولم تستمر مقالات «هيكل» في «أخبار اليوم» سوى أسابيع معدودة، وسيقت أسباب كثيرة لإيقاف تلك المقالات؛ وقال البعض إن استكتاب «هيكل» في «أخبار اليوم» أغضب «مصطفى أمين»، بينما أكد البعض الآخر أن المقالات أغضبت الرئيس!

وفي العام التالي ظهرت قوائم الإعدام، وشغلت الرأي العام!

١٩٨٧

خطة اغتيال وزير الداخلية

(١)

خرجت مجلة «روزاليوسف» بغلاف باللون الأحمر مكتوب عليه:

قوائم الإعدام:

سياسيون..

صحفيون..

فنانون..

أطباء تجميل وأمراض نساء

كان هذا الغلاف صادمًا، ومُدهشًا للقراء؛ لكنه لم يكن مجرد غلاف عابر، ففي هذا العام خرج أكثر من غلاف جريء، بعناوين قوية، وأفكار لامعة، فقد كان الإرهاب مسيطرًا، والكل مهدَّد، وهناك محاولات لاغتيال سياسيين وفنانين وصحفيين.

لكن «روزاليوسف» لم تتراجع في معركتها ضد الإرهاب، وظلت على عهدها بالأغلفة الجريئة، ففي شهر مايو كان أحد الأغلفة يحمل عنوان:

- **محاولة اغتيال أبو باشا**

ثم تلاه غلاف آخر في نفس الشهر بعنوان:

- خطة اغتيال وزير الداخلية»

وعنوان آخر يقول: «متطرفون يحكمون السجون»، وتصريح خاص للنجم «عادل إمام» يقول: «كلنا إرهابيون».

كانت «روزاليوسف» في هذا العام تضرب بقوة مهنية لافتة، ففي نوفمبر خرج غلاف المجلة يقول: «عفوًا فضيلة الإمام الأكبر.. أين دور الأزهر في مواجهة الإرهاب؟».

وفي ظل موجة الإرهاب السائدة رسم الفنان «حجازي» كاريكاتيرًا، جاء فيه: «الأمن مستقر والحمد لله، بس شوف لنا مين انضرب بالرصاص النهارده»!

(٢)

وفي تلك الأثناء خرجت الجماهير من البيوت، وجاءت من كل حدب وصوب، بعضهم بالسيارات وأغلبهم داخل الأوتوبيسات ومن أغلب المحافظات، وبعضهم أصرّ على أن يأتي سائرًا على الأقدام، والبعض اصطحب زوجته، والبعض اكتفى بأبنائه، والبعض فضَّل أن يكون بصحبة أصدقائه، والبعض أراد أن يذهب بمفرده حتى لا يرى رفاقُه دموعَه.

كل مشجع ذهب إلى الاستاد كان يحمل ذكرى فرحة حملها له «محمود الخطيب»، فخلال ٢٦٦ مباراة لعبها أحرز ١٥٤ هدفًا خلف كل منها قصة وذكرى.

لم يكن في يوم اعتزاله موضع لقدم، فالجماهير سكنت كل شبر من مساحة استاد القاهرة، وافترش الآلاف السلالم الفاصلة بين المدرجات،

ونزل بعضهم إلى أرضية الملعب، ولم يتركوا أعمدة الإنارة بل وقفوا فوقها، وصار التقاط الأنفاس يحتاج إلى جهد.

وجاءت لحظة النهاية، وبكى مئة وعشرون ألف مشجع كانت قد امتلأت بهم جنبات استاد القاهرة، وتساقطت الدموع من الملايين الذين تابعوا الاحتفال عبر شاشة التليفزيون.

كان مشهدًا مؤثرًا وتغمره مشاعر الحب والتقدير؛ لكنه حاول أن يتماسك ويَثبت ويهدأ فأمسك بالميكروفون وقبل أن ينطق بكلمة واحدة هتف ١٢٠ ألف مشجع في لحظة واحدة: «لا يا بيبو.. لا يا بيبو».

فانهمرت دموعه ولم يستطع أن يقول سوى كلمتين فقط ورددهما أربع مرات: «ألف شكر.. ألف شكر.. ألف شكر.. ألف شكر».

هكذا جاء مشهد اعتزال محمود الخطيب.

(٣)

ونشرت جريدة «الأهالي» عدة صور فوتوغرافية التقطها مصور هاوٍ خلسةً لصاحب شركات «السعد» في أثناء اجتماعاته مع الكاتب الكبير «أنيس منصور».

ولم يستطع «أنيس منصور» أن يكذِّب صلته بالرجل، كما أنه لم يقل شيئًا عن سر اجتماعه به، وانتشرت نكتة بين الصحفيين تقول: «إنه كان يدعو السعد لزيارة إسرائيل».

وكان «الريان» قبل اعتقاله يحيط نفسه بحاشية تضم مجموعة من الإعلاميين والصحفيين الذين كانوا ينطقون بلسانه، وينظِّمون له

حملات الدعاية، والإعلانات التي ساعدته على التغرير بعشرات الألوف من المواطنين، وعرف أنه كان يغدق على الصحفيين من أموال ضحاياه من المودعين.

كما ترددت حكايات كثيرة عن كشوف البركة (الرشاوى) وعن الأسماء التي تضمنتها، وكان من بينها عدد من كبار الصحفيين بالإضافة إلى بعض كبار المسؤولين.

وأكثر من ذلك، أراد «الريان» أن يفرض سيطرته على نقابة الصحفيين عندما عرض عليها تقديم قرض من إحدى شركاته قيمته مليون جنيه من دون فوائد لحل مشكلة الإسكان لشباب الصحفيين.

وقام أحد الصحفيين من أصدقاء «الريان» بتوزيع استمارات تحمل اسم «الريان» على الصحفيين الذين أبدوا استعدادهم للحصول على هذا القرض، وكان طبيعيًا أن يتخطّف بعض الصحفيين الشبان هذه الاستمارات بعد أن وجدوا فيها الحل السعيد لمشكلة الإسكان -على حد تعبير الكاتب الصحفي «جميل عارف»- ولم يكن أغلب الصحفيين يعلمون ما يخفيه «الريان».

لكنّ هناك من التفت إلى اللعبة التي تدبَّر في الخفاء، وكشف خبايا ما يدور في الكواليس، إنه الكاتب الصحفي «جلال عارف» عضو مجلس نقابة الصحفيين الذي كتب في جريدة «الأهالي» محذرًا من «الريان» ومؤكدًا أن الهدف الرئيسي من قرض «الريان» هو السيطرة على الصحافة المصرية، وبمعنى آخر أن يضعها في جيبه.

وهاجم «عارف» أيضًا مجموعة الاتفاقيات التي كان «الريان» قد عقدها مع عدد من المؤسسات الصحفية القومية بعشرات الملايين من الجنيهات مقابل نشر حملاته الإعلانية، ولطباعة الكتب أيضًا.

وفي الخامس من يوليو نشرت جريدة «صوت العرب» تحقيقًا عن آراء بعض الصحفيين حول هذا القرض، وعلّق «حافظ محمود» أحد مؤسسي نقابة الصحفيين، قائلًا: (إن قبول أموال «الريان» في صورة قرض تكون النقابة بعيدة عنه بالتحايل، سابقة خطيرة؛ لأنه يجوز لو قبلنا المبدأ أن تأتي جهة أخرى أقوى من «الريان» لمنافسته في تقديم مثل هذا القرض؛ لتصبح العملية شراءً نهائيًا للمهنة والنقابة، ثم ماذا نفعل لو ثبت أن «الريان» له مواقف غير مشروعة من ناحية تجارته في العُملة أو غيرها، بالطبع سيسيء ذلك إلى سُمعة النقابة، وهذا أمر مرفوض).

وفي العام التالي حدثت مفاجأة غير منتظَرة!

١٩٨٨

بطَّلي أحلام

(١)

فجأة صدر قرار من المدعي العام الاشتراكي بعمل جرد ومراجعة لحسابات شركات «الريان».

وكشفت التحقيقات عن تورط غالبية المؤسسات الصحفية، واضطرت بعض المؤسسات لتسوية حساباتها التي كانت مفتوحة مع شركات «الريان»، وكان عليها أن ترد مبالغ ضخمة بملايين الجنيهات كانت قد دُفعت إليها من هذه الشركات مقدمًا، ولم تُستخدم.

وكان رد هذه الملايين من الجنيهات وتسليمها إلى خزينة جهاز المدعي العام الاشتراكي هو الحل السعيد -على حد تعبير الأستاذ «جميل عارف»- حتى تنقذ نفسها من تهمة التورط في صفقات «الريان».

وتنصَّل من «الريان» كل من ساعده، ووقف معه، وشارك في حملاته الدعائية، وروَّج لأفكاره، ونشر إعلاناته، واستضافه في مكتبه، ورحَّب به في صحيفته.

(٢)

وفي أحد أيام شهر أكتوبر كان «نجيب محفوظ» نائمًا في سُبات عميق وقت الظهيرة كعادته، ودخلت زوجته السيدة «عطا الله إبراهيم» حجرة النوم، دون أن تتأكد من أنه مستيقظ، وقالت له بفرحة غامرة:

«نجيب.. أنت فزت بجائزة نوبل».

فرد عليها نجيب محفوظ غير عابئ:

«أنا مش قلت لك تبطَّلي أحلام»!

لم يصدِّق «نجيب» للوهلة الأولى أنه أول أديب عربي يفوز بجائزة نوبل، ربما لأنه قبل إعلان فوزه بأيام قالت بعض الصحف العالمية إن الفائز سيكون الأديب «يوسف إدريس»، وقد تسببت تلك الشائعة في فجوة إنسانية بين «نجيب» و«إدريس».

لكن من المؤكد أن «نجيب محفوظ» صدق أنه حصد الجائزة حين سمع بنفسه الخبر في نشرات «الأخبار»، وحين قرأه في الصفحة الأولى من أغلب صحف الكرة الأرضية.

وقد خصصت «الأهرام» نصف صفحتها الأولى لهذا الحدث الجلل، تحت عنوان:

- **نجيب محفوظ يفوز بجائزة نوبل العالمية**

وجاءت عناوين أخرى منها:

- **مبارك يتصل بالأديب الكبير لتهنئته**
- **الجائزة تكريم لمصر وللأدب العربي**

لكن أكثر عنوان كان لافتًا هو قول «نجيب محفوظ»:

- **أتذكر في هذه اللحظة بالعِرفان أساتذتي من كبار الأدباء «طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم»**

وقد خرجت مجلة «الهلال» -التي كان يرأس تحريرها الكاتب الكبير «مصطفى نبيل»- بغلاف لا يحمل سوى صورة «نجيب محفوظ»، وعنوان رئيسي من كلمة واحدة فقط هي:

- **مبروك**

وأفردت المجلة نصف صفحاتها لهذا الحدث، وشارك في الملف الضخم الذي أعدته «الهلال» كبار الأدباء مثل «يحيى حقي، وسهير القلماوي، وألفريد فرج، والدكتور غالي شكري»، وغيرهم كثير.

لكن المدهش أن بعض الجماعات المُنتسبة إلى الأدب والثقافة وبعض الصحف، هاجمت نجيب محفوظ باعتباره وافق على جائزة صهيونية!

(٣)

وفي يوم الثلاثاء السادس من ديسمبر، أرسل «نجيب» ابنتيه إلى استوكهولم لاستلام جائزة نوبل، وألقى الكاتب الصحفي «محمد سلماوي» كلمة «محفوظ» باللغة الفرنسية نيابةً عنه.

وفي هذا العام رحل الكاتب الكبير «جلال الدين الحمامصي» الذي كان واحدًا من نبلاء صاحبة الجلالة، الذين صنعوا مجدًا، وتاريخًا مشرفًا، فقبل ثورة يوليو كان عضوًا بمجلس النواب، وفي ذات الوقت شارك في إعداد «الكتاب الأسود» الذي قدمه «مكرم عبيد» كدليل على فساد حزب الوفد، فصدر قرار باعتقال «الحمامصي».

وحين قامت ثورة يوليو آمن بها، وتحمس لها، ودافع عن مبادئها، واقترب من «جمال عبد الناصر»، واختاره لرئاسة تحرير جريدة «الجمهورية»، ثم كلّفه بتأسيس وكالة أنباء الشرق الأوسط، وبعدها ذهب لجريدة «الأخبار»، ولكن استقلالية «الحمامصي» واعتداده بنفسه، ورفضه لقرار تأميم الصحف جعل الرئيس يُصدر قرارًا بفصله من «أخبار اليوم»، بل ويوقِّع على قرار اعتقاله في ديسمبر ١٩٦٠.

وقبل سنوات قليلة من رحيل «جلال الدين الحمامصي» اتصل به مكتب رئيس الجمهورية.

ولم ينبهر «الحمامصي» باتصال «حسني مبارك»، واستغل المكالمة، وطالب «مبارك» بالديموقراطية، وإطلاق الحريات العامة، وحرية الصحافة، لكن الكلام لم يَرُق للرئيس، فلم يعاود «مبارك» الاتصال مرة أخرى!

١٩٨٩

سر أبو غزالة

(١)

في صباح يوم السبت الخامس عشر من أبريل، قرر الرئيس «محمد حسني مبارك» إقالة المشير «محمد عبد الحليم أبو غزالة» من منصبه كوزير للدفاع والإنتاج الحربي، ومنحه منصبًا شرفيًا بلا صلاحيات، وتعيين الفريق أول «يوسف صبري أبو طالب» خلفًا له.

كان ذلك القرار بمثابة صدمة لكثيرين، وتوقع البعض أن هناك ثلاثة أسباب لإقالته:

الأول، شعبية «أبو غزالة» الكبيرة بين الجنود والضباط داخل الجيش، وحب الشعب المصري له، حتى إن البعض رشحه لخلافة مبارك على كرسي الحكم.

الثاني، قال المراقبون الغربيون إن سبب إقالة «أبو غزالة» هو تهريب أجزاء تُستخدم في صناعة الصواريخ من الولايات المتحدة مخالفًا بذلك قوانين حظر التصدير.

الثالث، أنه أسّس برنامجًا سريًا لصناعة الصواريخ الباليستية بالتعاون مع الأرجنتين وبدعم عراقي لمشروع برنامج صاروخ بدر

٢٠٠٠ «كوندور٢»، وكان هذا التطوير يُشكل خطرًا كبيرًا على العدو الإسرائيلي، وبالتالي تدخلت أمريكا لوقفه، ووقف من خلفه!

لكن الصحف الحكومية لم تذكر شيئًا عن تلك الأسباب، ولم تناقش أسباب إقالة وزير الدفاع، بل اكتفت «الأهرام» و«الأخبار» و«الجمهورية» بنشر خبر يفيد بأنه تم تعيين «عبد الحليم أبو غزالة» مساعدًا لرئيس الجمهورية، وتعيين «يوسف أبوطالب» وزيرًا للدفاع.

(٢)

وجاء قرار إقالة «أبو غزالة» بعد أقل من شهر من رفع العلم المصري على طابا؛ لتعود آخر بقعة من أرض سيناء، ويتم تحرير الأرض المصرية كاملة.

وتصدرت الصفحة الأولى لكل الصحف الحكومية صورة «حسني مبارك» وهو يرفع علم مصر على طابا.

وقد بدأت القصة حين وقَّعت مصر مع العدو الإسرائيلي اتفاقًا يقضي بحل الخلاف عن طريق التفاوض؛ فإن لم تصل إلى حل يكون عن طريق التوفيق تذهب إلى التحكيم.

وقررت مصر الذهاب إلى التحكيم الدولي، وصدر قرار بتشكيل اللجنة القومية لطابا برئاسة «عصمت عبد المجيد»، وعضوية ٢٤ خبيرًا، منهم تسعة من خبراء القانون، واثنان من علماء الجغرافيا والتاريخ، وخمسة من كبار الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، وثمانية من العسكريين وخبراء المساحة العسكرية.

وبعد مساجلات عُقدت جلسة تاريخية في جنيف، برئاسة القاضي

السويدي «جونار لاجرجرين» وصدر الحكم بأحقية مصر في طابا بأغلبية أربعة أصوات، واعتراض وحيد من القاضية الإسرائيلية.

وجاء الحكم في ٢٣٠ صفحة، وجاء منطوق الحكم في تأكيد أن «طابا» بأكملها وبما عليها من منشآت سياحية ومدنية أرض مصرية خالصة.

(٣)

في هذا التوقيت ودَّعت الصحافة المصرية اثنين من الكبار هما الكاتب الصحفي «أحمد الصاوي محمد» أول مصري يرأس تحرير جريدة «الأهرام»، والفنان «عبد المنعم رخا» أول رسام كاريكاتير في تاريخ الصحافة المصرية.

وفي مساء يوم السابع عشر من نوفمبر أُقيمت مباراة الحسم بين مصر والجزائر.

منتخب واحد فقط منهما سيصعد إلى كأس العالم، وأقيمت المباراة على استاد القاهرة بحضور ١٢٠ ألف مشجع، وبعد أربع دقائق فقط من بداية المباراة أحرز حسام حسن الهدف الذي وصل بمنتخب مصر إلى كأس العالم ١٩٩٠ في إيطاليا.

وفي اليوم التالي احتلت نصف الصفحة الأولى من جريدة «الأهرام» صورة كبيرة للاعبي منتخب مصر، يسبقها عنوان كبير يقول:

- **مبروك.. مصر تصعد إلى كأس العالم في كرة القدم بعد غياب ٥٦ سنة**

(٤)

وفي الساعة الثامنة من صباح أحد أيام شهر فبراير رن جرس الهاتف في منزل الكاتب الصحفي «محمد العزبي»، وأبلغه المتصل بضرورة حضوره فورًا إلى مقر جريدة «الجمهورية».

وحين وصل «العزبي» إلى الجريدة علم بقرار اختياره رئيسًا لتحرير جريدة «إيجيشيان جازيت» كأول رئيس تحرير لها من الصحفيين المصريين، وثالث مصري يتولى رئاسة تحريرها بعد اثنين من أساتذة اللغة الإنجليزية بالجامعات المصرية.

وأعاد «العزبي» للجريدة العريقة -التي كانت يتدرب بها الأستاذ «محمد حسنين هيكل» في الأربعينيات- شبابها، وروحها، ورونقها، وبهاءها، واستكتب فيها عددًا من السفراء المصريين في الخارج، والسفراء الأجانب في مصر، بالإضافة إلى كبار الكتاب، والفنانين، والسياسيين، وكان شرطه أن لا يكتب بها إلا من يجيد الكتابة باللغة الإنجليزية، ولن تتم عملية الترجمة الصحفية لمقال يتم كتابته باللغة العربية.

تبدل حال الصحيفة مع «العزبي» فصارت من جريدة تعتمد على المترجمين فقط إلى صحيفة تنافس الصحف الأخرى في «الأخبار»، والانفرادات، والتحقيقات، والحوارات، ومنح الشباب أجندة مصادره، وساعدهم في إجراء حوارات سياسية على أعلى مستوى مع السفراء والوزراء والسياسيين وغيرهم، ونقلهم من مترجمين جيدين إلى صحفيين أكفاء.

وتتويجًا لجهد «محمد العزبي» اختاره الأستاذ «مصطفى أمين» في عموده «فكرة» ليحصل على جائزته الصحفية لما قام به من جهود لتطوير جريدة «إيجيشيان جازيت».

الفصل الخامس

ماذا يُراد للصحافة في مصر؟ هل نريدها مثل الصحافة في الدول الديموقراطية المتقدمة؟ أم نريدها مثل الصحافة في أنجولا والصومال وهاييتي أو على الأكثر مثل الصحافة في ليبيا والعراق وإيران؟

سلامة أحمد سلامة

١٩٩٠

سُلطتنا عَدل يا ولاد الـ....!

(١)

تقدم نواب المعارضة بمجلس الشعب بطلب استجواب لوزير الداخلية حول تعذيب المعتقلين في السجون.

وذهب «زكي بدر» إلى المجلس، ووقف على منصة مجلس الشعب، وأطلق قذائفه في كل اتجاه، فعل كل شيء، وارتكب كل الجرائم.. سب، وقذف، وإهانة، وتوبيخ، وتحقير، وتكدير، وتسفيه، وطعن في الشرف، والذمم...

وحين اعترض أحد النواب على كلامه صفعه وزير الداخلية على وجهه وسبه بأقذر الألفاظ، وتدخل حرس الوزير لإبعاد النائب!

وبعد أن انتهى «زكي بدر» من وصلة «الردح» أمسك بورقة في يده، وقال:

«السيد الدكتور رئيس المجلس..

السيدات والسادة الأعضاء..

أقول أمام هذا المجلس الموقر إن كل المحاولات التي تتجه إلى الشرطة عقيمة، وفاشلة فلن ترتعش أيدينا، ولن تتخاذل قراراتنا، وطالما نلتزم بالقانون؛ فقوتنا حق، وسلطتنا عدل، وإجراءاتنا هي من ألزم الضرورات للحفاظ على جبهتنا الداخلية، ووحدتنا الوطنية، وسلامنا الاجتماعي».

وتابع «بدر» قوله: «أقولها في ختام كلمتي طالما بقي فينا قلب يخفق، وعرق ينبض فلن يشيع الخوف بدلًا من الأمن، ولن تُنشر الفوضى عوضًا عن الاستقرار، ولن تقوم النفعية والانتهازية مكان الشرعية والنظام.

عاشت مصر.. عاشت مصر.. عاشت مصر..

وعاش الرئيس محمد حسني مبارك».

واختتم «زكي بدر» بالآية الكريمة: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

ثم أردف وزير الداخلية قائلًا: «دول... ولاد...».

هنا تكلم رئيس مجلس الشعب وقال: «جاءني اقتراح من ٥٧ عضوًا يطلبون غلق باب النقاش في هذا الموضوع، وتأكيد الثقة في السياسة الأمنية، وتجديد الثقة في وزير الداخلية، وجهاز الشرطة الذي يقوم بتنفيذ هذه السياسة.. الموافق على هذا الاقتراح فليتفضل برفع يده.. موافقة»!

وفي اليوم التالي نشرت الصحف الحكومية قرار الرئيس حسني مبارك بقبول استقالة «زكي بدر» وزير الداخلية، وتعيين اللواء «محمد عبد الحليم موسى» خلفًا له.

المدهش أن تلك الواقعة ليست الأولى، إذ سبقتها وقائع كثيرة، فقد قال واصفًا بعض الأدباء والسياسيين: «دلاديل، وشواذ جنسيًا، وحرامية، وهُبل وشيوعيين، ونصابين، ومُهربين، ويقبضون العمولات».

لم يترك «زكي بدر» أحدًا إلا سبَّه وطعن في شرفه من أدباء ومثقفين إلى سياسيين، ومن قانونيين إلى نواب مجلس الشعب، ووزراء أيضًا، لكنه استمر في الوزارة لمدة أربعة أعوام متتالية، وحتى عندما خرج من الوزارة بعد ما فعله في مجلس الشعب لم تتم محاكمته أو مساءلته أو حتى التحقيق معه.

(٢)

وبعد عشرة أيام من تلك الواقعة فاز الأديب «يحيى حقي» بجائزة المَلِك فيصل، لكن فرحة الجائزة لم تستمر سوى أربعة أيام، بعدها فقدت مصر الأديب «إحسان عبد القدوس» الذي تولى رئاسة تحرير مجلة «روزاليوسف» وعمره لا يزيد عن أربع وعشرين عامًا.

كانت مصر كلها مشغولة بمتابعة كأس العالم، وأحرز «مجدي عبد الغني» هدف التعادل للمصريين من ضربة جزاء حصل عليها «حسام حسن»!

وشاء القدر أن يصبح «مجدي عبد الغني» بهذا الهدف الذي لم يفعل شيئًا للمنتخب، ولم تذهب به مصر للدور الثاني في البطولة، بل خرجت بتعادلين وهزيمة.. أشهر نجم مصري في كأس العالم، وواحدًا من نجوم الإعلانات بفضل هذا الهدف، الذي لم يتقاضَ مكافأة عليه في حينه، لكن بعد أكثر من ربع قرن أصبح الهدف الأهم الذي يجذب المعلنين، وحصل بسببه على ثروة لم يحصل عليها طوال حياته كلاعب!

وبعد عودة اللاعبين من كأس العالم، كانت عناوين الصفحات الأولى تتحدث عن الرئيس العراقي «صدام حسين» الذي أعلن فجأة الجهاد لإنقاذ مكة والمدينة من الاحتلال!

وفي اليوم التالي كانت الصحف المصرية تنشر خبر مشاركة مصر في التحالف الدولي لإجبار العراق على الانسحاب من الكويت، فقررت قطر والسعودية والإمارات والكويت إلغاء ديونها لدى مصر.

(٣)

وفي شهر فبراير شرعت «سناء البيسي» في إصدار مجلة «نصف الدنيا»، وطلب منها ثلاثة من جبابرة الكتابة أن تحجز لهم صفحات أسبوعية يكتبون فيها، وهم:

الأول، الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين».

الثاني، الأديب العالمي «نجيب محفوظ» الذي قرر أن يمنحها كل ما يجود به قلمه ليكون حكرًا عليها وحدها، فخرجت على صفحات «نصف الدنيا» أصداء سيرته الذاتية.

الثالث، الأديب الكبير «يوسف إدريس» الذي طلب منها أن تحجز له الصفحة الأخيرة ليكتب فيها مذكراته، وقال لها يومها: «سأكتب لأول مرة قصة حياتي الحقيقية من بداية مولدي طفلًا في قرية البيروم، سأكتب أخطر أعمالي الأدبية التي فيها تعرية للنفس والتاريخ والأصل والنسب والأسباب والمسببات ودور الأم والأخت والجدة وأصل المعرفة».

وبدأ «إدريس» يكتب فصلًا وآخر وآخر، ويواصل اعترافاته بجرأة لم يصدقها أحد، فقد كانت عبارات الأديب الجريء تتجول بحرِّية جامحة، وظل يكتب أحداثًا حياته وفجأة اعتذر عن التكملة، وحاولت «سناء» أن تثنيَه عن قراره الانقطاع عن الكتابة لكن دون جدوى، ولم يكتمل هذا العمل الأدبي الذي حمل عنوان «ملكة» الذي كان يعتبره «إدريس» الأهم

في حياته.

ما حققته «سناء البيـــي» في مجلة «نصف الدنيا» كان بالدنيا كلها، فلا يمكن أن يدَّعي أحد أنه أتى بها لم تأتِ به «سناء البيسي»، فقد صنعت كل شيء، ما يخطر ببالك، وما سيخطر في بال الأجيال المقبلة؛ فقد كانت رائدة فن «المرتجع صفر»!

وهو فنٌّ لو تعلمون عظيم!

١٩٩١

مجتمع صغار اللصوص

(١)

«لأول مرة في الصحافة.. نحن ننشر النصوص الممنوعة»

- الليالي الحمراء في «ألف ليلة وليلة»
- يوسف إدريس: مسرحية السادات في حرب أكتوبر
- نجيب محفوظ: فصل من رواية «أولاد حارتنا»
- نزار قباني: محاكمة علنية للزعماء العرب
- سلمان رشدي: صفحات من «آيات شيطانية»

بتلك العناوين خرجت مجلة «روزاليوسف» قبيل معرض القاهرة الدولي للكتاب، وذلك بعد أن صدر قرار من مؤسسة الأزهر بمنع وتحريم وتجريم تداول بعض الكتب والروايات.

«روزاليوسف» في ذلك التوقيت كانت الأعلى سقفًا، والأكثر جرأة وتنويرًا بين الصحف والمجلات المصرية، وكان توزيعها يقارب المئة ألف نسخة، وكان الكاتب الصحفي «عادل حمودة» نائبًا لرئيس التحرير، لكنه كان بمثابة رئيس التحرير الفعلي للمجلة.

وقد كتب «حمودة» معلقًا على قرارات منع الكتب: «ما الذي يُخيف

في هذه الكتب.. لقد أصبحت الكتب رمزًا لكل ممنوع ومحرَّم وآثم! قراءتها رجس من عمل الشيطان، وتداوُلها جريمةٌ تعاقِب عليها القوانين الشرعية والوضعية، وتبادُل أفكارها ذنبٌ قد يؤدي إلى القتل! ما الذي يُخيف في هذه الكتب حتى يصادرها الأزهر ويطاردها وتمنعها الحكومة وتعتقلها؟».

وتابع «حمودة»: «ما الذي يُخيف في هذه الكتب؟ أفكارها.. آراؤها.. حريتها.. صفحاتها.. أصحابها.. شجاعتها.. تمردها.. عنادها؟ هذه الكتب موجودة لدى المثقفين سرًا وتباع لدى بعض المكتبات سرًّا، وتتوافر لدى المهتمين والمشتغلين بالبحث والرأي والفكر.. إذن لماذا لا نقرأ هذه الكتب؟ المشكلة أنها كُتب، لا تحمل مدافع رشاشة، ولا قنابل مسيلة للدموع، ولا عبوات ناسفة، ولا مسامير حارقة.. كتب، كتبها مفكرون، مسالمون، آمنون لا يملكون من يومهم ولا من غدهم سوى ورقة وقلم».

واستطرد «حمودة»: «إن أبسط قواعد العدل أن يتاح للناس قراءة هذه الكتب، ومناقشتها، ورفضها أو قبولها، لكن المصادرة عليها ومنعها، واعتقالها جريمة، ونحن ننشر نصوصًا ممنوعة من كتب محرَّمة نفعل ذلك ليس اتفاقًا ولا اختلافًا مع هذه النصوص، بل دفاعًا عن حقها وحريتها في أن تكون متاحة للناس، للناس جميعًا، وتدافع عن نفسها بنفسها».

وعقب صدور هذا العدد من «روزاليوسف» علَّق الأستاذ «محمد حسنين هيكل» قائلًا: (ليست شجاعة أن ننشر «أولاد حارتنا» اليوم.. لكنها شهادة على زمن بلغت به الرداءة أن نفخر بنشر ما كان سهلًا ومعتادًا منذ ٣٥ سنة».

(٢)

في هذا التوقيت كان الكاتب الكبير «موسى صبري» قد انتهى لتوِّه من كتابة مذكراته التي جاءت في ما يزيد على ألف صفحة، وحملت عنوان «٥٠ عامًا في بلاط صاحبة الجلالة».

وقد امتلك الأستاذ «موسى» جرأة الاعتراف بأشياء لم يكن أحد يعرفها، وذكر قصصًا عديدة غيرها تجرَّع بسببها مرارة الألم والندم، رغم أن بعضها تمت مكافأته عليها.

ولعل أخطر ما جاء في تلك المذكرات ما ذكره «موسى صبري» في الصفحة الثالثة بعد الألف تحت عنوان «حساب الأخطاء والخطايا» قائلًا:

(هل أنا الملاك الذي هبط إلى بلاط صاحبة الجلالة، متجردًا من كل الأخطاء والخطايا، مقدمًا دائمًا في سلوكه وسطوره كل ما هو جميل وطاهر ونقي؟ ألم تطارد صدري حِراب الندم على تصرف خاطئ، أو كلمة ظالمة، أو اقتناع أناني، أو تسخير للكلمة في غير هواها الشريف؟

أعترف أنني ارتكبت خطأ فاحشًا عندما قدمت إلى «أخبار اليوم» قصة صحفية استغرقت صفحة كاملة، كتبتها والنار تحرق قلبي، والقلق ينهش صدري، لقد أمضيت الليل طوله في كتابتها حتى مطلع الفجر، وكنت أول من قصد «أخبار اليوم» في الصباح، لكي أقدمها إلى «مصطفى أمين»، الذي قرأها، وأجاز نشرها، واسترحت لقراره فقد كنت أخشى أن يرفض نشرها.

كنت أواجه أزمة عاطفية قاسية، عندما اكتشفت أن الفنانة التي عرفتُ معها الحب وعشتُ معها حلمًا جميلًا كطائر مغرِّد بين أحضان رجل آخر،

هو زوج لفنانة صديقتها، وكانت صدمة حطمت كياني، ولم أنم ثلاثة أيام منصلة، وخشيت أن أُصاب بالجنون بسبب هذا الأرق والقلق، ولجأتُ إلى الدكتور «أنور المفتي» الذي أقنعني بأن الحياة لم تنتهِ لأن امرأةً خانت حبي، ودائمًا نحن نبدأ حياتنا من جديد، ولكنني كنت أضعف من أن أتحمل الصدمة، وقررت الانتقام، وأمسكت بالقلم، أكتب قصة هذه الخيانة بأسمائها حتى الفجر، كتبتُ كل شيء، إلا أنني المحبّ الذي مزّقته الخيانة، ولم أوقّع المقال.

وعندما ظهرت «أخبار اليوم» أحسستُ ببعض الراحة خصوصًا عندما اتصلت بي الفنانة بالتليفون تسألني: هل تعرف مَن كتب هذا المقال عني؟ وأجبت: لا أعرف.. وسبَّب لها المقال متاعب قاسية، وكانت تخشى أن تظهر على المسرح بعد أن أطلقتُ عليها صفة «سارقة الأزواج»)!

المدهش أن مذكرات «موسى صبري» لم تُنشَر في حياته، لكنها نُشرت في العام التالي عقب رحيله مباشرةً، وكانت اعترافاته بمثابة زلزال صحفي.

(٣)

في تلك الأثناء كثر الحديث عن الصحفيين الفاسدين، وانتشرت ظاهرة رجال الأعمال، والأمراء الذين ينفقون ببذخ على الحفلات الصاخبة، ويشترون ضمائر بعض الصحفيين.

وفي الثامن من سبتمبر علّق مدير تحرير جريدة «الأهرام» «سلامة أحمد سلامة» على تلك الظاهرة بمقال بعنوان «صورة مقززة»، وقد جاء فيه: «امتدت الأفراح أيامًا ثلاثة بلياليها.. وجاءت الأغلبية زحفًا على بطنها

أو ركبتيها.. ولم يعرف أحد ما المناسبة.. هل هو حفل زواج ثري عربي؟ أم حفل طلاق مليونير بترولي؟ أم لقاء ماسوني؟ أم حفل خيري؟ هل هي ذكرى إنشاء شركة ناجحة؟ أم إعلان تصفية شركة مفلسة؟!».

وأردف «سلامة»: «أغلب الظن أن أحدًا من الحاضرين لم يعرف السبب، ولم يعبأ كثيرًا بأن يفكر فيه أو يسأل عنه».

واستطرد «سلامة»: «كنتَ ترى في هذه الحفلات عجبًا، أصحاب الفضيلة جنبًا إلى جنب مع أصحاب الرذيلة، مهرجون محترمون، ومحترمون مهرجون، وأصحاب أقلام مشهورون، وبائعو بطاطا مغمورون، نجوم لامعة، وشُهب ساقطة، وقد اختلط الجميع بعضهم ببعض في حلقات للذِّكر والإنشاد.. وحين انتهى الحفل وتعبت الألسنة من اللهوج بالثناء والفضل، ووزَّع الشيخ ما لديه عن منح وعطايا، قال للمحيطين به: هكذا تكون السياسة والكياسة والرياسة إذا استطعت بأموالك أن تشتري الحقيقة، وأن تُغمض العيون عن التفاصيل الدقيقة، وتعتقل الأفكار في دفتر الشيكات».

لم يحدد «سلامة أحمد سلامة» مَن يقصد، واكتفى بالتلميح دون التجريح، وهو فعله أيضًا «أنيس منصور» في عموده «مواقف» في الصفحة الأخيرة بـ«الأهرام» فقد قال: «عرفنا اللصوص والخونة والقوادين، وتأكدنا من ذلك، فما النتيجة؟ فمن الذي يخاف من العقاب؟ لا أحد حاسب أحدًا؛ لأننا مجتمع صغار اللصوص، اللص الصغير نحاسبه، ونخرب بيته، ونضيع مستقبل أولاده، لأنه سرق، وإذا ثبتت براءته فبعد وفاته، ولأن القانون المصري ضعيف نهو يسمع خشخشة الملاليم، ولا يسمع هسيس ملايين الدولارات»!

١٩٩٢

فتاة العتبة

(١)

في الثامن من يونيو، كان الدكتور «فرج فودة» يغادر مكتبه بشارع «أسماء فهمي» في مصر الجديدة، الذي أسَّسه ليكون مقرًّا للجمعية المصرية للتنوير، وقبل أن يصعد إلى سيارته، أطلق مجهولون عليه الرصاص، فأردوه قتيلًا.

وتم إلقاء القبض على القتلة...

ورغم ذلك وجدوا مَن يبرر لهم جريمتهم، ففي اليوم التالي نشرت جريدة «الأخبار» تبرير «مأمون الهضيبي» المرشد العام للإخوان، لتلك الجريمة.

أما الشيخ «محمد الغزالي» فقد وقف أمام النيابة، وقال: «إنهم قتلوا شخصًا مباح الدم ومرتد، وهو مستحق للقتل، وقد أسقطوا الإثم الشرعي عن كاهل الأمة، وتجاوزهم الوحيد هو الافتئات على الحاكم، ولا توجد عقوبة في الإسلام للافتئات على الحاكم، إن بقاء المرتد في المجتمع يكون بمثابة جرثومة تنفث سمومها بحض الناس على ترك الإسلام، فيجب على الحاكم أن يقتله، وإن لم يفعل يكون ذلك من واجب آحاد الناس».

دافع الشيخ الغزالي عن القاتل، وهاجم المقتول!

لكن الخطوات العملية للتخلص من «فرج فودة» بدأت قبل ستة أشهر من اغتياله حين تم نصب فخٍّ له بجعله طرفًا في مناظرة تحت عنوان «مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية»، وكان ذلك ضمن فعاليات معرض الكتاب، وقد مَثَّل فيها الدولة المدنية «فرج فودة ومحمد أحمد خلف الله»، ومثَّل الدولة الدينية كلًّا من «الشيخ محمد الغزالي، والمستشار مأمون الهضيبي، المرشد الأسبق لجماعة الإخوان، والدكتور محمد عمارة».

وكانت تلك المناظرة بمثابة المسمار الأول في نعش «فرج فودة»؛ فقد تم التحريض ضده، واتهامه في دينه، وأفكاره وعقيدته، وعقب المناظرة أصدرت جبهة علماء الأزهر بيانًا نشرته بمجلة «النور» كفَّرت فيه «فودة»، وأعلنت وجوب قتله.

لكن المدهش أنه بعد اغتيال «فرج فودة»، ألَّف أحد علماء الأزهر كتابا سماه «مَن قتل فرج فودة؟». وأجاب: (إن «فرج فودة» هو الذي قتل «فرج فودة»، وإن الدولة قد سهَّلت له عملية الانتحار، وشجَّعه عليها المشرفون على مجلة «أكتوبر»، وجريدة «الأحرار»، وساعده أيضا مَن نفخ فيه).

وعلَّق عليه الكاتب المسرحي «علي سالم» في حفل تأبين «فرج فودة» الذي أقامته الجمعية المصرية لحقوق الإنسان في نقابة الصحفيين قائلًا: «إنها المرة الأولى التي يُظهر فيها المصريون الفرح لموت إنسان، وينشرون ذلك في كتاب.»

(٢)

وفي تلك الأثناء عرضت السينمات فيلم «ناجي العلي» بطولة وإنتاج الفنان الكبير «نور الشريف»، وسيناريو وحوار «بشير الديك»، وإخراج «عاطف الطيب».

لكن بمجرد عرض الفيلم أعلنت مؤسسة «أخبار اليوم» الحرب عليه، وكتب «إبراهيم سِعدة» مقالًا بعنوان: «من أجل حفنة دولارات» وهاجم فيه «نور الشريف» قائلًا: (رغم حبي وتقديري لـ«نور الشريف» كفنان مهم فإنني لن أتسامح معه في سقوطه بسبب هذا الفيلم الغريب والمرفوض. والذي أسهم «نور» في إنتاجه وقام ببطولته وتناول فيه قصة فنان كاريكاتير متواضع الموهبة فلسطيني الجنسية. جنّد ريشته لسنوات طويلة متصلة وحتى آخر يوم في حياته من أجل التشهير بمصر.. لقد اتهمنا «ناجي العلي» بريشته وقلمه بأقذر الاتهامات أقلها الخيانة والعمالة للصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية».

ونتيجة الهجوم على الفيلم وصُناعه، صدر قرار بسحب الفيلم من دُور العرض بعد أسبوعين فقط.

واستمرت حملة الهجوم على «نور الشريف» ستة أشهر متتالية، وحين قرر «سعد الدين وهبة» مدير مهرجان القاهرة السينمائي، عرض فيلم «ناجي العلي» في حفل افتتاح المهرجان، صدر قرار من «إبراهيم سِعدة» بمنع ذكر اسم «سعد الدين وهبة» في صحيفة «الأخبار» وتم منع الفيلم من العرض على التليفزيون المصري لمدة ٢٢ عامًا.

وردّ «نور الشريف» على الهجوم عليه قائلًا: (الصحف تحدثت عنّا كما لو كنّا مجموعة من الخونة صنعوا فيلمًا خصيصًا ضد مصر، حتى إنهم كتبوا وقالوا: نور الشريف يقوم ببطولة فيلم الرجل الذي «شتم» مصر في رسوماته، والحقيقة أن هذا الاتهام باطل، فـ«ناجي العلي» كان يعشق مصر لأبعد الحدود، وهذا ما توضحه رسوماته، ولكنه هاجم «السادات» عند زيارته للقدس، وهاجم اتفاقية كامب ديفيد).

تلك الأزمة جعلت «نور الشريف» يفكر في الهجرة، لكنه تراجع حين هدأت الحرب عليه.

وفجأة رنَّ جرس تليفون «نور» ووجد أن المتحدث هو «صفوت الشريف» وزير الإعلام، الذي طلب منه أن يقوم ببطولة مسلسل جديد اسمه «الثعلب» من إنتاج التليفزيون المصري، فتردد «نور الشريف» في قبول العرض، فقال له «صفوت» حاسمًا: «هذا مسلسل مخابرات، وسوف تؤدي فيه شخصية ضابط مصري».

ووافق «نور الشريف»...

(٣)

وفي يوم ١٢ أكتوبر...

وفي تمام الساعة الثالثة و٩ دقائق عصرًا...

وقع زلزال بلغت قوته ٥,٨ درجة على مقياس ريختر، وكان مركزه بالقرب من دهشور على بعد ٣٥ كيلومترًا من القاهرة، وتسبب في وفاة أكثر من خمسة آلاف شخص، وإصابة أكثر من ستة آلاف، وتشريد نحو نصف مليون مواطن صاروا بلا مأوى.

وعاشت مصر أيامًا عصيبة مع ما فعله الزلزال وتوابعه، لكن في اللحظة الأولى كانت الصحف الحكومية تنقل البيانات الرسمية التي كانت بعيدة عن الواقع المؤلم والمرير.

واتَّشحت كل الصحف بالسواد، وكانت مانشيتات الصحف الحكومية متطابقة إلى حدٍّ كبير، ومنها جريدة «الأهرام» التي جاءت عناوينها كالتالي:

- **زلزال مدمِّر يهزّ مصر ٦٠ ثانية عصر أمس**
- **مبارك قطع زيارته للصين فور علمه بنبأ الزلزال ويعود إلى**

القاهرة اليوم

- مصرع ٣٦٨ مواطنًا بجميع المحافظات وإصابة ٣٥٠٠ وتصدُّع ٦٨٣ منزلا

- الرئيس يأمر بسرعة صرف الإغاثات لأسر الضحايا والمصابين ويتابع الموقف أولًا بأول

- ٢٩٠٠ شقة لإيواء المتضررين وإعانات مالية للضحايا

كانت الصحف متشابهة إلى حدّ التطابق، فكلها كانت مصادر رسمية حتى تبينت الحقائق، وتكشّفت الأرقام الحقيقية، وعلم الجميع بحجم الفاجعة.

(٤)

لكن الطريف أنه حين ضرب الزلزال مصر كانت الفنانة «برلنتي عبد الحميد» تسكن الطابق العلوي من العمارة نفسها التي كان يسكنها «نجيب محفوظ».

وحين ذهب «محفوظ» للقاء الحرافيش في جلستهم الأسبوعية وسألوه عن إحساسه لحظة الزلزال قال: «كنت أجلس في الصالة، شعرت بقوة الزلزال، وتطلعت إلى السقف منتظرًا سقوطه، وسقوط (برلنتي عبد الحميد) في حِجري»!

وفي خضمّ تلك الأحداث، احتفلت مجلة «الهلال» -برئاسة تحرير «مصطفى نبيل»- بمرور مئة عام على تأسيسها.

وأصدرت «الهلال» عددًا خاصًا وتاريخيًا وتذكاريًا بعنوان: «الهلال.. مئة عام من الفكر والفن»، وقد نشرت شهادات تاريخية لعدد كبير من

كبار الكتاب أمثال «العقاد، وطه حسين، وفكري أباظة، وأمينة السعيد، وتوفيق الحكيم، وأحمد بهاء الدين، وسهير القلماوي، وأمين الخولي، وفتحي رضوان، ورجاء النقاش، وكامل زهيري، وبنت الشاطئ، والدكتور بطرس غالي»، وغيرهم كثير.

(٥)

وفي تلك الأثناء صدر حكم المحكمة في جريمة كبرى هزَّت الرأي العام.

وقد بدأت وقائع تلك الجريمة حين صعدت فتاة إلى إحدى الحافلات بميدان العتبة، وعلى سلم الباب احتكَّ بها شاب، وامتدت يده إلى مكان حساس من جسمها مما أدى إلى زوال عذريتها، فتعالت صرخاتها، وقبض الجمهور على شاب اتهمته الفتاة بارتكاب الجريمة.

وانتقل الجميع إلى قسم شرطة الموسكي القريب من العتبة، وهرع الصحفيون إلى القسم وسجّلوا الأحداث كما وردت في محضر التحقيق، واهتزّ الرأي العام لبشاعة الجريمة.

واعترض كبار رجال الأمن على وقائع الجريمة كما نشرتها الصحف، واتهموا الصحافة بالمبالغة في سرد الحدث، وتصاعدت الأحداث ووصل الأمر إلى قصر الرئاسة، ففي أثناء اجتماع الرئيس «مبارك» مع الصحفيين طلب منهم الالتزام بالدقة في النشر وعدم الانسياق خلف الشائعات في قضية «فتاة العتبة».

وعلّق الكاتب الصحفي «جمال بدوي» قائلًا: «إن الصحف لا تنشر شيئًا من عندها بل تلتزم بما ورد في تحقيقات الشرطة والنيابة دون زيادة

أو نقصان، وما جاء في جريمة فتاة العتبة ليس من تأليف المحررين بل من تحقيقات الشرطة، وبالتالي فإذا كانت هناك مبالغة فمرجعها إلى الشرطة».

وفي نهاية الاجتماع اتفق الحاضرون على عقد اجتماع آخر بحضور وزير الداخلية، والنائب العام، ووزير العدل، ووزير الإعلام، لبحث آلية للتأكد من عدم وجود مبالغات في محاضر الشرطة، ومنع ذكر أسماء الضباط في أخبار الحوادث.

وسرى القرار لفترة ثم عاد كل شيء إلى ما كان عليه، لكن المفاجأة التي لم يكن يتوقعها أحد هو حكم المحكمة في قضية «فتاة العتبة» الذي قضى ببراءة الشاب الذي اتهمته الفتاة؛ وذلك بعد أن تبين أنه مشلول الساق!

واستغل بعض رجال النظام تلك القضية في حربهم ضد حرية الصحافة، وظهر ذلك بوضوح في الأعوام التالية!

١٩٩٣

الأسئلة الفاسدة

(١)

في الثالثة والنصف من عصر يوم السبت السابع عشر من أبريل، اشتمَّ سكان العقار ٢٥ بشارع «أمين بك الرافعي» في الدقي رائحة «حريق» هائل يخرج من الشقة رقم واحد.

فسارع أحد الجيران نحو عساكر الأمن الموجودين أمام البيت المجاور الذي يسكن فيه وزير العدل، وبالفعل جاء الحراس وكسروا باب البيت ليجدوا هرم الجغرافيا الأكبر الدكتور «جمال حمدان»، وقد سقط على الأرض محروقًا.

واتصل بعض السكان بالإسعاف، وأبلغ البعض الآخر المطافئ عن احتراق رجل في شقته، وبعد دقائق معدودة حضرت المطافئ ثم بعد نصف ساعة جاءت سيارة الإسعاف، وليتها ما جاءت؛ لأن السادة المسعفون بعد أن حملوا الجثة إلى خارج الشقة ألقوا بها على الأرض عندما تأكدوا أن الرجل قد مات، وبالتالي خرج عن دائرة اهتماماتهم!

وقال المُسعفون للسكان الذين ازدحم بهم مدخل العمارة: «اتصلوا بقسم الشرطة هو المسؤول عن الموتى»!

وجاءت الشرطة، وحملت الجثة إلى المشرحة التي يقوم مفتش الصحة بها بإعداد تقرير عن أسباب الوفاة، وعلى الرغم من أن السبب كان واضحًا، وهو أن أنبوبة البوتاجاز انفجرت في المتوفى في أثناء قيامه بعمل كوب شاي، لكن تقرير مفتش الصحة بالجيزة «يوسف جندي» الذي نشرته مجلة «نصف الدنيا» -برئاسة تحرير سناء البيسي- حمل مفاجأة مدوية، وهي أنه لم يمت مختنقًا بالغاز، كما أن الحروق ليست السبب في موته؛ لأنها لم تصل لدرجة إحداث الوفاة، ورجّح أن تكون الوفاة بسبب صدمة عصبية!

المدهش أن التليفزيون المصري لم يذكر نبأ رحيل صاحب «شخصية مصر»، «جمال حمدان»، وفي اليوم التالي نشرت جريدة «الأهرام» أن مصر تعلن الحداد لمدة ثلاثة أيام، وذلك لوفاة سيادة رئيس وزراء تركيا!

(٢)

وفي هذا التوقيت بدأ يلمع نجم الكاتب الصحفي «إبراهيم عيسى» في مجلة «روزاليوسف» وكان له عدد من التقارير المهمة، منها تقرير أحدث ضجة كبيرة، وكان تحت عنوان: «منزل سهير رمزي وكر للإرهابيين»، وأوضح فيه أن الدكتور «عمر عبد الكافي» أنتج ٩٠ شريطًا منها ٣٥ شريطًا عن الدار الآخرة، ومدوّن عليها حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم، ومن بين الأفكار التي يرددها «عبد الكافي» قوله: «إن سفر طالبة من القاهرة إلى طنطا حرام، وأن الموظفة المسافرة من بني سويف من دون زوجها آثمة ملعونة، وممنوع إلقاء السلام على الأقباط».

وكشف التقرير أن الشيخ «عمر عبد الكافي» يقوم بعمل بعض محاضراته داخل منزل الفنانة المعتزلة «سهير رمزي».

(٣)

وفي العشرين من أكتوبر صدر كتاب جديد ومهم للكاتب الصحفي «جميل عارف» بعنوان «أنا وبارونات الصحافة» وقام بتقديم الكتاب الأستاذ «محمد حسنين هيكل» وقد جاء فيه: «إن بارونات الصحافة هذه الأيام لا يختلفون كثيرًا عن باشوات الصحافة أيام زمان، أي قبل ثورة ٢٣ يوليو، إنهم الباشوات الذين يتحكمون ويتاجرون في أرزاق الصحفيين الذين كانوا يعملون معهم في الصحافة، وذلك بعدما أصبحت الصحافة المصرية جارية في حرملك الطغيان في بلد لم يعد فيه من سلطة سوى سلطة الديكتاتور الواحد، وطغمة من محترفي التآمر والتسلط وحلفائهم الإخوان وبقية دكاكين الإرهاب المعادية للديموقراطية ولنضال الشعب».

وأردف «جميل» قائلًا: «في بلد فقد نخبته، ويُستعمل فيه الجهل والأمن والدين كأدوات سياسية لتدير المؤسسات الشعبية وسقوط الدولة، كان من الطبيعي أن تحتل ثقافة الرعاع أغلب الصحف، وساعات الإرسال المرئية والمسموعة، وأن يتم تقسيم الصحفيين إلى تابعين ومعادين، ويتحول شرف المهنة إلى شرف شخصي وكبرياء ومعاناة لدى بعض الصحفيين في حين ينقلب لدى البعض الآخر إلى دستور للنفاق والفساد، وتكرَّس الصفحات لنجوم الاحتراف الديني ورعاة التدين السطحي، وللأسئلة الفاسدة، والأجوبة الأكثر فسادًا، وتصبح السطور أداة للفتنة الوطنية وتغطية جاهزة وتبريرًا يوميًّا لتبديد الوطن، ويسقط الفاصل بين الأمن والصحافة».

جمع «جميل عارف» في هذا الكتاب خلاصة خبراته، وتجاربه،

و حكايات وأسرار المهنة، ورواها بأسلوب جاذب، وشيق، وممتع ولاذع، و حكى أسرارًا كثيرة لم تكن لتُروى لولاه، ومنها أن نقابة الصحفيين كان مقرها الرسمي الأول داخل شقة كانت ناديًا للقمار!

لكن الطريف أن «جميل عارف» حين سأل الأستاذ «هيكل» عن رأيه في الكتاب قال: «لا أنا مختلف معه، ولا أنا متفق معه»!

١٩٩٤

لأنه كافر!

(١)

سأل القاضي، الشابَّ الذي طعن «نجيب محفوظ»: لماذا طعنته؟

فأجاب القاتل: لأنه كافر، وخارج عن الملة.

القاضي: كيف عرفت؟

القاتل: من روايته «أولاد حارتنا».

القاضي: هل قرأتها؟

القاتل: لا.

القصة بدأت يوم الخميس ١٣ أكتوبر حين ذهب شابان إلى منزل الأديب العالمي «نجيب محفوظ»، وطرقا الباب، وطلبا مقابلته، وكانا يحملان وردًا وحلوى، ويرتدي أحدهما ملابس خليجية، ويخبِّئان داخل ملابسهما مسدسًا وسكينًا؛ لكن زوجة «محفوظ» أخبرتهما أنه غير موجود وأن بإمكانهما مقابلته في اليوم التالي في ندوته الأسبوعية التي يذهب إليها في الخامسة بعد العصر.

فحضرا في اليوم التالي، وطَعَنا «نجيب» في عنقه.

واعترف القاتل بجريمته، وقال: «كان الهدف هو ذبح نجيب محفوظ

داخل منزله بالسكين أما السادس فكان لتهديد أفراد أسرته حتى لا يطلبوا النجدة؛ لكن الله لم ييسر الأمر لذلك قررنا ذبحه في اليوم التالي، وقد قمت بتنفيذ العملية وحدي وهربت إلى زملائي في حي عين شمس وأخبرتهم أنني غرست السكين في رقبة نجيب محفوظ فأخذوني بالأحضان وأخذوا يقولون لي: مبروك».

ولم يكتفِ الشاب الذي حاول اغتيال «نجيب محفوظ» بما قال، بل حين حاوره الكاتب الصحفي «محمد سلماوي»، وسأله: هل ندمت على فعلت؟

فأجاب: لو أنني قابلته ثانية لنفّذت فيه مرة ثانية الأمر الذي صدر إليَّ.

وحين أبلغه «سلماوي» أن «محفوظ» قد سامحه على جريمته، ردّ الشاب القاتل: «هذا لا يعنيني ولا يغيِّر من الأمر شيئًا، لقد هاجم نجيب محفوظ الإسلام في كتبه لذا أُهدر دمه، وقد شرَّفتني الجماعة بأنْ عهِدت إليَّ بتنفيذ الحكم فيه فأطعت الأمر، ولم أكن بحاجة إلى قراءة ما كتبه نجيب محفوظ، ثم أردف قائلًا: أستغفر الله»!

(٢)

وفي يوم الأحد ٣٠ أكتوبر ١٩٩٤، أي بعد بضعة أيام على محاولة الاغتيال، قامت جريدة «الأهالي»، لسان حال حزب «التجمع» اليساري -وكانت حينها من أوسع الصحف انتشارًا- بنشر بضعة فصول من «أولاد حارتنا» في ملحق خاص.

ونشرت «الأهرام» مقالًا للدكتور «أحمد كمال أبو المجد» جاء فيه: «هذه شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات نجيب محفوظ سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويتسرعون في الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه

قد أدرج كثيرًا من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام، كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذي يصر به بعض الكتاب على أن يقرؤوا في أدب نجيب محفوظ ما يدور في رؤوسهم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه في تلك الكتابات، مانحين أنفسهم قوامة لا يملكها أحد على أحد، فضلًا عن أن يملكها أحد منهم على كاتب له في دنيا الكتابة والأدب ما لنجيب محفوظ من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التي أنعم بها عليه الله».

تركت الحادثة أثرها على «نجيب محفوظ» فلم يعد قادرًا على استخدام يده في الكتابة؛ لكنه واصل رحلته الإبداعية بطريقة مختلفة، فقد كان يقوم بإملاء ما يود كتابته على بعض أصدقائه.

(٣)

وفي نوفمبر أصدرت مجلة «القاهرة» برئاسة تحرير «غالي شكري» عددًا خاصًّا عن محاولة اغتيال «نجيب محفوظ» وقد تصدر الغلاف عنوانان:

الأول: «نجيب محفوظ.. القلم والسكين»

والثاني: «سيد قطب.. معالم على طريق القتل»

وقد ربط «غالي شكري» في مقاله بين «نجيب محفوظ» و«سيد قطب» قائلًا: «عندما قدم سيد قطب، نجيب محفوظ لأول مرة إلى أهل القلم، لم يكن يدري أنه سيعيد تقديمه مرة أخرى بعد نصف قرن إلى أهل السكين».

واستطرد «غالي»: «قصة محفوظ وقطب ترسم مفارقة تاريخية أكبر من الإفراد، فإذا كان سيد قطب هو الناقد الأول الذي احتفى بنجيب

محفوظ قبل حصوله على جائزة نوبل بأربعة عقود، فإن معالم طريقه هدت أحدث القطبيين -أي الذين يتبعون قطب- لأن يضع السكين في عنق محفوظ في الذكرى السادسة لحصوله على الجائزة».

لكن المدهش أنه رغم صدور بيان عن اتحاد الكتاب بإدانة ما جرى لـ«نجيب محفوظ»، ورغم إعلان المثقفين تضامنهم معه، فإن المثقفين انقسموا إلى ثلاثة تيارات:

الأول، رأى أن محاولة اغتيال «محفوظ» سببها الرئيسي هو ترحيبه بتطبيع العلاقات مع إسرائيل، ومن بين المؤمنين بهذا الرأي الكاتب الصحفي «فهمي هويدي».

الثاني، يرى أن الكيان الصهيوني هو الذي خطط لقتل «نجيب محفوظ»، ومن بين مَن كتب ذلك الكاتبة الصحفية «صافيناز كاظم».

الثالث، هو من يرى أن الإسلام السياسي هو مَن يستهدف قتل المثقفين، وبالطبع كان ذلك هو موقف أغلب المثقفين.

(٤)

وفي هذا العام رحل ثلاثة من كبار الكتاب، هم:

الأول، الشاعر «مأمون الشناوي»، وقد شارك في تأسيس صحيفتَي «أخبار اليوم» و«الجمهورية»، وعمل في مجلتَي «روزاليوسف»، و«آخر ساعة»، ويعد من أكثر الشعراء في الوطن العربي إنتاجًا، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية، ووسام الجمهورية.

الثاني، الأديب «عبد الفتاح الجمل»، وقد عمل لسنوات طويلة مديرًا لتحرير جريدة «المساء»، وقدم ملحقًا أدبيًا مستقلًا اكتشف فيه عددًا كبيرًا من كبار الشعراء والأدباء، وتقديرًا لجهده حصل على جائزة الدولة

التقديرية بعد أن اعتزل الصحافة وتفرغ للكتابة.

الثالث، «نبيل عصمت أبو نضارة»، وكان المشرف على الصفحة الثانية من جريدة «الأخبار» لسنوات طويلة، وله العديد من الأعمال الفنية.

(٤)

وفي تلك الأثناء بدأت تلوح في الأفق بوادر أزمة كبرى بسبب ما سُمي قانون نقابة الصحفيين الجديد.

وطرح الكاتب الصحفي «سلامة أحمد سلامة» في عموده «من قريب» سؤالًا مهمًا وهو: «ماذا يراد للصحافة في مصر؟ هل نريدها مثل الصحافة في الدول الديموقراطية المتقدمة؟ أم نريدها مثل الصحافة في أنجولا والصومال وهاييتي أو على الأكثر مثل الصحافة في ليبيا والعراق وإيران؟».

واستطرد «سلامة» قائلًا: «الواقع أن أحدًا لا يعرف إجابةً عن هذا السؤال، على الرغم من أن الإجابة هي التي ستحدد مدى صلاحية مشروعات القوانين المطروحة، وأصحاب المهنة يقفون موقف المتلقي يثورون ويغضبون أو يهللون ويصفقون دون فاعلية أو مبادرة من جانبهم».

وواصل «سلامة» حديثه قائلًا: «من هنا يبدو كأن الصحفيين يبدؤون من النقطة الخطأ؛ فالإصلاح لا يبدأ بتنظيم مهنة العاملين في مشروع ما، ولكنه يبدأ بإعادة تنظيم المشروع نفسه، والملاحَظ أن مصر لم تهتم كثيرًا بها

بمكن أن تؤول إليه حال صناعة الصحافة في مصر، فما زالت الصحافة في نظر الجميع مجرد جهاز من الأجهزة مثل الشرطة والبريد والنقل وطباعة الكتب المدرسية، وليس صناعة للإعلام والنشر هدفها التثقيف والتوعية والمشاركة السياسية والاقتصادية وتنوير الرأي العام».

وأردف «سلامة»: «لهذا السبب تتحول صناعة الإعلام تدريجيًا من مصر إلى خارجها وتتسع الفجوة بين ما يجري في العالم من تطور مذهل في مجالات الإعلام والاتصال وبين ما يجري عندنا.. فقد تحولت صناعة (الإعلام) إلى (استعلام) فهي تجفّ في مصر تدريجيًا مثل نهر يفقد مياهه بسبب التصحر والجفاف والبخر الاستوائي».

وكشف «سلامة» عن جوهر المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الصحافة قائلًا: «المشكلة ليست في مشروع قانون النقابة الجديد الذي يوسع الصحفيين أن يرفضوه أو يعدِّلوه أو يغيِّروه، ولكنها في تراجع دور الصحافة وجمودها».

١٩٩٥

أنت عبد الحليم حافظ!

(١)

«باسم الشعب..

رئيس الجمهورية..

قرر مجلس الشعب القانون الآتي نصه، وقد أصدرناه:

المادة الأولى: يعاقَب بالحبس وبغرامة لا تقلّ عن خمسة آلاف جنيه ولا تزيد عل عشرة آلاف جنيه كل مَن نشر أخبارًا أو بيانات أو إشاعات كاذبة أو مغرضة أو دعايات مثيرة أو أوراقًا مصطنعة أو مزورة أو منسوبة كذبًا إلى الغير، إذا كان من شأن ذلك تكدير السلم العام أو إثارة الفزع بين الناس أو إلحاق الضرر بالمصلحة العامة أو ازدراء مؤسسات الدولة أو القائمين عليها.

وتكون العقوبة السجن مدة لا تقل عن خمس سنوات وغرامة لا تقل عن عشرة آلاف جنيه، ولا تزيد على عشرين ألف جنيه إذا وقع ذلك بقصد الإضرار بالاقتصاد القومي للبلاد».

وتضمّن القانون العديد من المواد الكارهة للصحافة، والتي تعاقب الصحفيين بالحبس على اتهامات لم يتم ذكرها إلا في عدد محدود جدًّا من

الدول على مستوى العالم.

وزعم صناع هذا القانون أن الهدف منه هو الدفاع عن الديموقراطية، وحماية حرية الصحافة في مصر!

وفوجئ الصحفيون في صباح يوم ٢٨ مايو بإصدار مجلس الشعب قانونًا جديدًا للصحافة، وبنشره في الجريدة الرسمية.

وفي مساء ذات اليوم عقد مجلس نقابة الصحفيين برئاسة «إبراهيم نافع» اجتماعًا طارئًا لرفض القانون المشبوه.

ذلك القانون الجديد كان يستهدف الحد من حرية الصحافة وتقليص الهامش الديموقراطي المتاح، والتضييق على الصحفيين في عملهم، ومحاسبتهم على جرائم لا يعاقب عليها قانون، كما تضمن عبارات فضفاضة يمكن أن تطال حرية أي صحفي، وتهدد حريات المواطنين جميعًا تحت دعاوى غير مفهومة وغير مبررة لا تحترم المصالح العليا للوطن، وفي الوقت الذي مازال فيه الصحفيون يطالبون بتنقية ترسانة القوانين التي يحاكَم الصحفي بمقتضاها فإذا بهم يُفاجأون بصدور تشريعات جديدة تغلِّظ من العقوبات المقبلة، وتضخِّم من ترسانة القوانين الاستثنائية.

وناشد بيان نقابة الصحفيين رئيس الجمهورية عدم التصديق على القانون وإعادته إلى مجلس الشعب من جديد، وطرحه لمناقشة عامة واستطلاع رأي الصحفيين، وأن مجلس النقابة يعبِّر عن أسفه البالغ أن يصدر هذا القانون قبل يومين من الاحتفال بعيد الإعلاميين.

لكنَّ الرئيس صدق على القانون...

وفي اليوم التالي دعت نقابة الصحفيين إلى جمعية عمومية طارئة للتصدي لذلك القانون، وذلك في العاشر من يونيو لبحث سبل مواجهة الأزمة،

وطلبت النقابة من الصحفيين الاعتصام في مبنى النقابة يوم السادس من يونيو، وطالبت الصحف بالاحتجاب يومًا.

واستجابت الصحف، واحتجبت ست صحف معارِضة هي «الوفد»، و«الأحرار»، و«الشعب»، و«العربي»، و«الأهالي»، و«الخضر».

(٢)

في هذا التوقيت أدرك «إبراهيم عيسى» أن أيامه في مجلة «روزاليوسف» باتت معدودة، فرغم أنه الرجل الثاني في المجلة فإنه لم يَعُد مسموحًا له إلا بالكتابة في بريد القراء!

فالرجل الأول فعليًّا كان الأستاذ «عادل حمودة» مساعد رئيس التحرير، ورغم أنه كان داعمًا لـ«إبراهيم» في البدايات فإنه سرعان ما بدأت العلاقة تتوتر بينهما، وبدا أنهما عند مفترق طرق، وقد لعبت أرقام التوزيع دورًا في ذلك.

ففي كل مرة يقفز فيها توزيع مجلة «روزاليوسف» يكون «إبراهيم عيسى» هو القائم بأعمال رئيس التحرير، فحين كسرت «روزاليوسف» حاجز العشرة آلاف نسخة كان «عيسى» حاضرًا بقوة، وحين كسرت حاجز العشرين ألف نسخة كان «عيسى» هو المسؤول، وهكذا حتى كسرت المجلة حاجز الأربعين ألف نسخة.

لكن كلما لمع «عيسى» ضاقت عليه المجلة بما رحبت، وشعر أن أيامه فيها صارت معدودة؛ فذهب «إبراهيم عيسى» إلى الأستاذة «سعاد رضا» العضو المنتدب للمجلة، وروى إليها ما يجري معه من تجاهل، وقال لها: «الزملاء بيقولوا أن الأستاذ عادل بيعاملني باعتباري هاني شاكر وهو

عبد الحليم حافظ»، فردّت عليه «سعاد» -بعبارة لم يَنْسها «إبراهيم» طيلة حياته- قائلةً: «أنت عبد الحليم حافظ مش هوّ»!

شعر «عيسى» أنه قاب قوسين أو أدنى من ترك «روزاليوسف» تلك المجلة التي بدأ فيها العمل في صيف ١٩٨٤، وبعد عام واحد صار أصغر سكرتير تحرير مجلة قومية في تاريخ الصحافة، وذلك قبل أن يتخرج في كلية الإعلام، وبعد عام واحد فقط من دخوله المجلة، بينما صدر قرار تعيينه الرسمي كسكرتير تحرير لمجلة «روزاليوسف» في عام ١٩٨٩، وذلك قبل أن يُتم عامه الخامس بعد العشرين.

(٣)

في تلك الأثناء تعددت لقاءات «عيسى» مع الناشر «عصام إسماعيل فهمي» الذي تعرف عليه في أثناء زياراته للمجلة، ولقاءاته مع الأستاذ «عادل حمودة»، مساعد رئيس تحرير «روزاليوسف» ورئيس التحرير الفعلي للمجلة، وقد نشر له كتاب «عمائم وخناجر» الذي حقق رواجًا كبيرًا، وأحدث جدلًا هائلًا.

وكان «عصام فهمي» ينوي إصدار جريدة جديدة برئاسة تحرير «عادل حمودة» واتفقا على كل شيء تقريبًا، واستقرَّا على اسم الجريدة؛ لكن فجأة اعتذر «حمودة» لشعوره أنه قد اقترب من كرسي رئاسة تحرير «روزاليوسف».

فاتصل «عصام فهمي» بـ«إبراهيم عيسى» والتقيا في مقهى «عمر الخيام» في الزمالك، وطلب منه أن يكون رئيسًا لتحرير جريدة «الدستور». ووافق «عيسى» على الفور، ولم تأخذ المناقشات المادية سوى دقيقة ونصف الدقيقة حسب فيها «عيسى» إجمالي ما يتقاضاه من مجلة «روزاليوسف»

ومن جريدة «الخليج» التي يعمل بها بجوار «روزا»، فوجده ١٣٥٠ جنيهًا فطلب من عصام فهمي ١٥٠٠ جنيه فوافق «عصام» على الفور، فهذا كان أقل من راتب رئيس قسم.

وظل «عيسى» و«عصام» عامًا كاملًا في رحلة إنهاء ترخيص الجريدة الجديدة، وقد قضى منها «عيسى» ثلاثة أشهر بمفرده في مقر الجريدة بشارع قصر النيل والذي كان عبارة عن شقة أربع غرف، منها غرفة لرئيس مجلس الإدارة، وغرفة تجمع بين رئيس التحرير ومدير التحرير.

وفي صباح كل يوم يذهب «عيسى» إلى «شقة قصر النيل» ويجتمع بمن اختارهم للعمل معه، ويشرح لهم «حلمه» لما سيكون عليه الجورنال الجديد، ويذهب لمباريات الزمالك!

وقبل أن تصدر الجريدة بشهر كان «إبراهيم عيسى» قد انتهى من وضع أجندة أفكاره للأعداد الأولى من الجريدة في السياسة والثقافة والفن والرياضة وغيرها، وشرح للجميع أن الجريدة ستجمع بين الروح الشابة، والروح الساخرة، ولا توجد بها ثوابت سوى أنها ضد الإرهاب، وضد الفساد، كما جاء ذلك في افتتاحية العدد الأول.

وجلس «عيسى» طويلًا مع الصحفيين في قسم الصياغة، وقال لهم: علينا أن نلتزم بعامية «صلاح جاهين» كمنهج عام لصياغة الموضوعات بها، فمثلا جملة «اصطبحنا وصبح الملك لله» لغة عربية فصحى؛ لكن يتم التعامل معها باعتبارها عامية، وهذا ما سنفعله في العناوين تحديدًا. فالصحف في نظر الكاتب الكبير «إبراهيم عيسى» لا بد لها من أربعة أضلاع: «الموقف، والصياغة، والتأثير، والتوزيع»، فلا بد لكل صحيفة أن تحدد موقفها من الحياة، وبالتالي الأحرى بها أن يكون لها موقف سياسي، وكذلك لا بد لها من صياغة مهنية حتى لا تكون منشورًا دعائيًا، ويجب أيضًا أن تكون الصحيفة مؤثرة وإلا صارت جزءًا من منظومة

الصحافة الصفراء التي توزِّع كثيرًا لكن لا يبقى لها أثر.

(٤)

وفي مساء يوم الثلاثاء الثاني عشر من ديسمبر ليلة صدور «الدستور»، جلس «عيسى» بصحبة رفاق التجربة الجديدة على المقهى قائلًا لهم: «إحنا عملنا اللي علينا.. ورقَّصنا الكل في الملعب.. ووصلنا للجون.. وحطّينا جون.. اللي أنا منتظره الصبح تصفيق الجمهور»!

وفي صباح اليوم التالي انفجر الجمهور بالتصفيق، وبدلًا من أن يتم طباعة ثلاثة آلاف نسخة مثلما كان الحال مع الصحف التي تصدر بترخيص من قبرص وقتها، تم الاتفاق على طباعة ٣٠ ألف نسخة رغم معارضة كل من يعمل في إدارة التوزيع خوفًا على صديقهم «عصام فهمي» من الخسائر، لكن بمجرد أن رأى مسؤولو التوزيع الجريدة قرروا زيادة المطبوع إلى أربعين ألف نسخة!

وخرجت «الدستور» إلى النور، ونفدت النسخ عن آخرها، وقرر «فهمي» أن يطبع طبعة ثانية ١٠ آلاف نسخة نفدت هي الأخرى.

وظل توزيع الجريدة ٥٠ ألف نسخة لمدة ثلاثة أشهر، ثم بدأ يزداد كلما زاد المطبوع، فذهب «عصام فهمي» إلى «إبراهيم عيسى» وقال له: «أنا كده فلوسي خلصت مش هينفع الجورنال يبقى بـ٥٠ قرش».

كانت مغامرة كبرى، فالصحف كلها كان سعرها ٤٠ قرشًا وبالتالي فوجود صحيفة بجنيه يعني إعلان تحدٍّ ضخم وغير مأمون العواقب.. لكن «فهمي» اتخذ القرار، وكانت المفاجأة من القراء، فقد زاد توزيع الجريدة، وكسرت «الدستور» حاجز المئة ألف نسخة رغم أنها أغلى جريدة في مصر.

ومثلما كثر عدد عشاق «الدستور» والمُصفقين لها والمُحتفين بها من القراء كثُر أيضًا عدد المتربصين بها والحاقدين عليها والمترقبين لنهايتها من دوائر السلطة، خصوصًا أنها كانت الجريدة الوحيدة التي لم تنشر صورة الرئيس «حسني مبارك» في الصفحة الأولى مطلقًا ولم تضع صورته في الصفحات الداخلية سوى مرة واحدة فقط طوال ثلاث سنوات.

فتعرضت الجريدة لمصادرة بعض أعدادها بدايةً من العدد الثالث، وذلك بسبب مانشيت عدد رأس السنة، الذي خرج يقول:

- **أسوأ ١٠ شخصيات في مصر**

وتنوعت الشخصيات بين الفن والرياضة والسياسة، وكان من بينهم كمال الشاذلي، وزير مجلسي الشعب والشورى، ورضا عبد العال.

وشعر «عصام فهمي» أن الجريدة اقتربت من خط النهاية فحاول أن يهدئ إيقاعها فجلس مع «إبراهيم عيسى» وطلب منه أن تنشر الجريدة تهنئة لمبارك بمناسبة ميلاد حفيده؛ لكن «عيسى» رفض وكذلك كل رفاق التجربة؛ فاقترح «فهمي» أن يكتب هو التهنئة بنفسه لكن «عيسى» رفض أيضًا.

وصدرت الجريدة دون تهنئة للرئيس، وبالمصادفة تعرض «عيسى» لوعكة صحية أقعدته في الفراش فلم يذهب أحد إلى الجورنال، فذهب إليه «عصام فهمي» فوجد عنده كل الزملاء، وجددوا رفضهم لفكرة تهنئة «مبارك»، وأنه من حقه كمالك للجريدة أن يفعل ما يشاء، ومن حقهم أن يتركوا العمل في الجريدة، فرضخ «فهمي»، وصمت.

(٥)

كانت «الدستور» بمثابة فتح جديد في مهنة صاحبة الجلالة، ومثلما

عرف الشعر العربي مدرسة «الإحياء والبعث» عرفت الصحافة المصرية مدرسة «الإحياء والبعث للصحافة المصرية» بعد جمود شلّ حركتها، وأقعدها بعيدًا عن التجديد، وصار التكرار والنمطية هما السائدين.

لكن «عيسى» لم يكن يتصور أن تصير «الدستور» واحدة من أهم المدارس الصحفية في تاريخ مصر، وتخرج منها أجيال من رؤساء التحرير الذين حكموا السوق الصحفية لمدة جاوزت العشرين عامًا، ومن كبار الكُتاب، والمبدعين.

إذا عرفتْ الصحافة المصرية على مدار تاريخها الطويل والممتد خمس مدارس صحفية كبرى مؤثرة ومُجددة ومُغايرة، فبلا أدنى شك «الدستور» واحدة من تلك المدارس الكبرى رغم تواضع إمكاناتها المادية مقارنةً بمنافسيها، لكن ظلت إمكانياتها المهنية جبارة، وخلاقة، وهائلة، وطاغية، وراسخة، ومؤثرة.

فحين خرجت إلى السوق الصحفية كانت ميزانيها لا تزيد على ١٧ ألف جنيه، وهي ميزانية تعد أقل بكثير من راتب أحد رؤساء التحرير في ذلك العصر؛ لكن الكل تأثر بـ«الدستور»؛ إيجابًا أو سلبًا، مُحبًا أو كارهًا، مؤيدًا أو معارضًا، مُصفقًا أو مُتحفظًا، داعمًا أو متعجبًا، مادحًا أو غاضبًا... الكل تأثر، والبعض حاول التقليد لكنه لم يفلح، فالمعادلة الكيميائية التي صنعها وصاغها «إبراهيم عيسى» والذين معه كانت عصيَّة على التكرار.

كانت «الدستور» تجربة جيل كامل باختلافاته، وتعدده، وتطاحنه أحيانًا، وكان من بين مَن شاركوا فيها: «جمال فهمي» مديرًا للتحرير، والدكتور «أحمد محمود» المدير الفني الذي لعب دورًا مؤثرًا في شكل الجريدة، و«حمدي رزق» رئيسًا لقسم التحقيقات، و«نصر القفاص»

رئيسًا لقسم الرياضة، و«... فضل»، و«عمر طاهر»، و«خالد صلاح»، و«أسامة سلامة»، و«عهاد أبو غازي»، و«محمد الباز»، و«إيهاب الزلاقي»، و«سيد علي»، و«جمال العاصي»، و«... عبد الرحيم»، و«محمود الكرودسي».

أراد «إبراهيم» أن يكسر «الأصنام» في تلك التجربة، ويحطم التابوهات، ويجدد دماء الصحافة؛ فاستخدم التكنولوجيا الحديثة التي لم تكن قد عرفتها بعد الصحف، مثل الكمبيوتر والإنترنت فلم يكن هناك سوى خطين فقط لمن يريد الاطلاع على الإنترنت، الخط الأول لدى مجلس الوزراء، والثاني ملك لجامعة القاهرة.

(٦)

لكن المتربصين لم يهدؤوا، ووجدوا ضالّتهم في العدد رقم «١١٦» في الصفحة الرابعة في موضوع بعنوان «منشورات تستهدف ثلاثة رجال أعمال أقباط».

وفي صباح يوم الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩٩٩ صدر القرار بمصادرة جريدة «الدستور» لتكون أول جريدة تتم مصادرتها، وإغلاقها منذ عام ١٩٥٤، وكان توزيعها وقت إغلاقها ١١٢ ألف نسخة رغم أنها لم تنشر قضية آداب واحدة طوال تاريخها!

وباءت كل محاولات إعادة الجريدة بالفشل؛ لكن «عصام فهمي» قرر أن يستمر في رحلته مع صناعة الصحافة المستقلة فحصل على ترخيص جريدة «صوت الأمة» واختار «عادل حمودة» رئيسًا لتحريرها واتفقا

على أن يكون «إبراهيم عيسى» مديرًا للتحرير؛ لكن بعد استطلاع رأي الرئاسة!

واتصل «حمودة» بالمستشار السياسي للرئيس الدكتور «أسامة الباز» وطلب منه أن يسأل الرئيس «مبارك» عن إمكانية عمل «عيسى» كمدير لتحرير جريدة «صوت الأمة»... ولم يتأخر الرد!

اتصل «أسامة الباز» بـ«عادل حمودة» وقال له: (الريس بيقول مش ده الواد الـ«...» اللي عمل رواية بيشتمني فيها..! لأ طبعًا مايشتغلش)!

كان «مبارك» يقصد رواية «مقتل الرجل الكبير» التي تمت مصادرتها قبل أيام من تلك الواقعة، وذلك بعد أن أرسلها «إبراهيم عيسى» إلى مؤسسة «الأهرام» لطباعتها؛ لكن بعد طباعة ألفي نسخة رفضت «الأهرام» توزيعها، وحين طلب «عيسى» النسخ المطبوعة، رفضت المطبعة، وقال له مدير المطابع: «لا يمكن تاخد الرواية اللي بتهاجم الريس»، ثم أردف قائلًا: «عمومًا ١٠ دقائق وأرد عليك».

وبعد دقائق عاود مدير المطابع الاتصال، وقال لـ«عيسى»: «جميع النسخ نفدت.. تعالى خد فلوس الألفين نسخة»!

وقضى «إبراهيم عيسى» سبع سنوات عجاف غير مسموح له بإصدار الصحف بقرار من الرئيس شخصيًّا.

١٩٩٦

يوم القيامة في مصر

(١)

وبعد ثلاثة عشر شهرًا في معركة طاحنة بين السُلْطة والصحافة جاءت كلمة النهاية في صباح يوم الأحد ١٦ من يونيو، وافق مجلس الشعب على مشروع قانون بتعديل بعض مواد قانون العقوبات المتعلقة بجرائم النشر، وصدَّق عليه رئيس الجمهورية.

وبعد ٤٨ ساعة فقط وافق مجلس الشعب على مشروع قانون بشأن تنظيم الصحافة هو القانون ٩٦ لسنة ١٩٩٦، وصدَّق عليه الرئيس، لكي تصل الأزمة إلى حل وسط حقق بعض أهداف الصحفيين من إسقاط القانون المرفوض ٩٣ لسنة ١٩٩٥، وحقق بعض أهداف رجال السُلْطة، بتشديد بعض العقوبات في جرائم النشر.

فقد ظل الحبس في قضايا النشر قائمًا، لكن تم تخفيض عدد السنوات التي يمكن أن يقضيها الصحفي في السجن.

لكن أغلب الكُتاب والصحفيين اعتبروا ما جرى انتصارًا كبيرًا،

«ساحقًا، وبمثابة النهاية السعيدة، وتقدم عدد كبير من الصحفيين بالشكر إلى السيد الرئيس باعتباره راعي الحريات، ومساند الصحافة الأول، ومنقذها؛ لكن في وسط التعليقات الكثيرة على ما جرى، كان هناك تعليق مختلف للكاتب الصحفي «سلامة أحمد سلامة» الذي قال: «لا يوجد شيء اسمه قانون الصحافة أو قوانين الصحافة في بريطانيا، وكذلك في معظم الديموقراطيات الغربية، وإن كانت الدساتير فيها نصّت على مبدأ حرية الصحافة والتعبير باعتبارها من الحقوق الأساسية».

(٢)

وفي الخامس من أغسطس عُقدت محكمة النقض التي تألفت من:

المستشار: «محمد مصباح شرابية» رئيسًا..وعضوية المستشارين: «فتحي محمود يوسف، وسعيد غريان، وحسين السيد متولي، وعبد الحميد الحلفاوي»..وبحضور المحامي العام: «ناجي عبد اللطيف».

وصدر حكم باعتبار الدكتور «نصر حامد أبو زيد» مرتدًّا، والتفريق بينه وبين زوجته الدكتورة ابتهال يونس، أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة القاهرة.

وفي ١٦ أغسطس أرسل الدكتور «نصر حامد أبوزيد» خطابًا إلى مجلة «روزاليوسف» جاء فيه: (من نصر أبوزيد إلى الأمة المصرية عبر «روزاليوسف».. أنا أفكر.. أنا مسلم.. لا مفر من الإقرار بأن هذا الحكم الظالم يبدو كأنه يعلن للعالم الذي بدأ بالفعل الدخول في القرن الواحد والعشرين، أن المسلمين فشلوا في دخول القرن المنصرم، فهل تبدَّد بالفعل كل شيء، التاريخ والتراث والوطن..؟ هل صار شعارنا الآن «أنت تفكر.. إذن أنت مرتدّ» بعد أن كان في كل عصور ازدهار الفكر الإسلامي

«أنا أفكر إذن أنا مسلم» أو «لأنني مسلم فيجب أن أفكر»؟ لا تصدقوا كلام القاضي أنني مرتدّ؛ لأن المرتدّ والعياذ بالله لا يتقدم بإرادته لينال لقب «الأستاذية» في جامعة في بلد مسلم إلا لو كان مجنونًا.. وقد عشت بينكم ولم تظهر عليَّ أعراض جنون من أي نوع).

واختتم «أبو زيد» رسالته قائلًا: «لقد صار الدفاع عن نضارة الإسلام منذ الآن أكبر من أن يكون همًّا أكاديميًّا.. صار مسألة حياة أو موت.. أن تكون أو لا تكون.. وإذا كان شعار العالم (أنا أفكر فأنا موجود).. فليكن شعارنا (أنا أفكر فأنا مسلم)».

(٣)

وكتب «عادل حمودة» مُعلقًا بمقال بعنوان «يوم القيامة في مصر.. العالِم مرتدّ والعالمة من أولياء الله»!

وجاء فيه: «في شقة على النيل بالقرب من السفارة الإسرائيلية كان رجل الأعمال المليونير العصامي يتلقى العزاء في وفاة زوجته عندما فوجئ بسيدة رشيقة، خفيفة، ترتدي ملابس أبيض في أبيض تقرر فجأة أن تقفز من مكانها لتحاضر المعزِّين في فلسفة الموت والبعث وعذاب القبر، وجهنم، ويوم القيامة، ولم تكن الداعية الإسلامية المجتهدة سوى الراقصة التي هزّت أعصاب الرجال من المحيط إلى الخليج، وأبدعت في أمور لم يقدر عليها سواها.. سحر حمدي».

وأعلن مركز حقوق الإنسان المصري لتدعيم الوحدة الوطنية عن عميق أسفه لتفريق «د. نصر حامد أبو زيد» عن زوجته الدكتورة «ابتهال يونس» وأن التفريق يعد انتهاكًا لحقوق المذكورَين اللذين يمتلكان بمفردهما الافتراق بإرادتهما المنفردة ولا يملك أي شخص مهما كانت سلطته أن يفرِّق بين زوجين لا يرغبان في الانفصال، لأن ذلك يعد سلطانًا

وجبروتًا يخالف المواثيق الدولية لحقوق الإنسان التي شُرعت لأن يكون الإنسان حرًا في اختيار زوجه دون أن يكون للآخر حق التفريق بينهما وإلا عدنا إلى عهد العصور الوسطى والظلام.

وأذاعت وكالة «رويترز» أن محامين من المدافعين عن حقوق الإنسان تخلوا عن طعن قضائي نيابةً عن الكاتب المصري «نصر أبو زيد» لأن محامين عن الأصوليين هددوهم بالقتل.

واضطر الدكتور «أبوزيد» إلى ترك البلاد واللجوء إلى هولندا، وهناك نال عدة أوسمة وجوائز في العالم العربي وخارجه كان آخرها جائزة «ابن رشد للفكر الحر» في برلين والتي تحمل اسم الفيلسوف العربي الشهير.

بضع صحف ومجلات قليلة دافعت عن الدكتور «نصر حامد أبوزيد» منها مجلة «روزاليوسف» وجريدة «الدستور»؛ لكن المدهش أن بعض الصحف التي لم تدافع عن «نصر حامد أبوزيد» في حياته وقفت معه بعد رحيله، واعتبرته من رموز التنوير والتفكير الحر، وأحد ضحايا حرية التعبير.

وفي هذا العام حزنت مصر على رحيل عدد كبير من كبار الكتاب والأدباء والمثقفين، من بينهم «أحمد بهاء الدين، وخالد محمد خالد، وصالح مرسي، والدكتور حسين مؤنس»، علاوة على المخرج «صلاح أبو سيف»؛ لكن في هذا التوقيت اقترب عدد سكان مصر من ستين مليون نسمة!

١٩٩٧

قضية «قفا» السعدني!

(١)

في صيف ٩٧ كانت مصر تعيش حالة من الحزن بعد أن ودّعت الكاتب الكبير «مصطفى أمين» والفنانة «مديحة كامل» والفنان «محمد عوض» والكاتبة الكبيرة «سهير القلماوي» خلال أربعة أشهر فقط، وكان الملل متسيدًا والجمود السياسي والرياضي والفني مسيطرًا.

«مبارك» يدخل عامه السادس عشر في الحكم ولا بوادر لإصلاح، و«الأهلي» يحصل على الدوري للمرة الرابعة على التوالي دون منافس، والمنتخب يعيش واحدة من أسوأ فتراته، وأفيشات «نادية الجندي» تنتشر في الشوارع وتحتل واجهات السينمات باعتبارها نجمة الجماهير، ولا ينافسها على الإيرادات سوى «عادل إمام».

في هذا التوقيت كان «أحمد زكي» يستعد لفيلمه الجديد «البطل» ويمنح مجموعة من المواهب الشابة الفرصة للظهور من بينهم «محمد هنيدي». وعرضت السينمات فيلم «إسماعيلية رايح جاي» بطولة «محمد فؤاد

وحنان ترك ومحمد هنيدي» ونجح وكسر تابوهات كثيرة وتجاوزت إيراداته ما كان يتوقعه أكثر الناس تفاؤلًا، وطغى نجاحه على كل الأفلام التي ظهرت قبله وبعده -في تلك المرحلة- بما فيها فيلم «البطل» ذاته!

(٢)

في هذا التوقيت اندلعت معركة كبرى بين الكاتبين الكبيرين «محمود السعدني» و«جمال بدوي».

بدأت المعركة حين كتب المؤرخ «جمال بدوي» معلقًا على مقال قال فيه العم «محمود السعدني»: «إن ضابطًا رقيعًا في سجن الفيوم قام بلزقي على قفايا! وفي سجن الواحات قام ضابط آخر بكسر ذراعي بالشومة، ولكنه كان رجلًا بحق وحقيقي وابن ناس ومتربي كويس، ولذلك توطدت بيني وبينه أواصر الصداقة، واستمرت صداقتنا حتى انتقل إلى رحمة الله».

ويثور «جمال بدوي» على ما ذكره «السعدني» بقوله: (تنكدت غاية النكد حين قرأت في مقال الكاتب الكبير «محمود السعدني» في صحيفة «أخبار اليوم» أنه تعرض للصفع على قفاه، وكُسرت ذراعه بالشومة في أثناء قضائه فترة الاعتقال في العصر الناصري).

ويضيف «بدوي»: (هممت أن أكتب برقيات استنفار إلى نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب وجمعيات حقوق الإنسان احتجاجًا على ما أصاب الزميل من إهانات لا تُغتفر لولا أنني تسمّرت عندما وجدت الأستاذ يشيد بهذه الإهانات المزرية ويستحسنها، ولا يجد أي غضاضة في اللزق على قفاه أو كسر ذراعه بالشومة ويصف الضابط الذي ضربه على قفاه في معتقل الفيوم بأنه «رقيع وحليوة ورشيق ويتقصّع في حديثه حبتين»، أما الضابط الذي كسر ذراعه في سجن الواحات فقد كان «رجلًا بحق

وحقيقي وابن ناس ومتربي كويس» وبقيت بينهما علاقة طيبة وصداقة متينة بعد خروجه من السجن).

ويسخر المؤرخ من تسامح «السعدني» المبالغ فيه -في رأيه- فيقول: (يريد «السعدني» أن يبدو لقرائه في صورة الرجل المتسامح كبير القلب الذي نسي الإهانات التي مسحتها إنجازات يوليو، وفي رأيه أن إشراقات يوليو تمحو كل المظالم والظلمات التي سيكنسها التاريخ في زبالته وبما فيها اللزق على القفا، وكسر الأذرع، وتقطيع الأوصال، ونفخ البطون، وهتك الأعراض.. وهو حر في الإشادة بإنجازات يوليو، فهذا حقه الذي لا ينازعه فيه أحد لكنه ليس حرًّا في إباحة قفاه للصفع محبة في ثورة يوليو، لأن قفا «السعدني» ليس ملكية خاصة يتنازل عنها كيفما شاء، بل هو ملكية عامة يشاركه فيها كل أصحاب القفوات في مصر والعالم الثالث).

(٣)

ولأن «السعدني» أحد ملوك فن السخرية فكان رده على صفحات مجلة «المصور» أكثر سخرية، فتحت عنوان «القفا في خدمة الشعب» كتب يقول: (الكاتب الكبير الأستاذ «جمال بدوي» رئيس تحرير «الوفد» كاتب موضوعي لا يلجأ إلى المبالغة أو التهويل، ولأنه مؤرخ أيضًا فهو لا يضيف من عنده على الحقائق الثابتة، ولا يلوي عنق الحقائق لكي يصل إلى الهدف الذي يريده، ولذلك كانت دهشتي كبيرة عندما حاد عن أسلوبه المعروف به، واخترع أشياء من خياله لكي يُدينني بها ليس له أثر في واقع الأمر).

ويذهب «السعدني» إلى الرد على ما ذكره المؤرخ، ويقول: «لا أعرف

من أين استنتج الأستاذ جمال بدوي أن العبد لله تلذذ بهذا اللزق على القفا، وأنني فخور به إلى الدرجة التي أباهي بها الآخرين». ويعود لحكاية الضابط الذي كسر له ذراعه ويشيد به بقوله: (هناك ألف مسجون كانوا في سجن الواحات، وأعتقد أنهم جميعًا سيشهدون للضابط «محمود شنيشن» كما شهدتُ له، لأن الرجل كان مطلوبًا منه طبْقًا لأوامر العقيد «حسن المصيلحي» واللواء «عبد العظيم فهمي» أن يمارس ضرب المعتقلين دون خشية من النتائج حتى لو أدى الضرب إلى الموت، وكانت التعليمات نَفسها قد صدرت إلى «حسن منير» مأمور معتقل أبو زعبل، ولكن الذي حدث أن حسن منير نفّذ الأوامر بغباء فقتل ١٧ سجينًا، من بينهم الأستاذ «شهدي عطية»، وفي الوقت نفسه لم يسقط قتيل واحد في سجن الواحات لأن «محمود شنيشن» نفّذ الأوامر بذكاء».

وبإشارة ساخرة من «بدوى» إلى ما ذكره «السعدني» يقول: (القفا لم يُخلق للصفع، وإنما ليرتكز عليه الإنسان كي تعلو هامته، ويتألق جبينه، ويرتفع رأسه إلى عنان السماء»، ويضيف: فعندما قال «جمال عبد الناصر» «ارفع رأسك يا أخي» فقد كان الظن أن ترتفع الرأس لتكرّم وتُحترم لا لتُصفع على قفاها أو تُفصل عن جسدها).

ثم يعود «بدوي» إلى لب القضية ويقول: (الذراع التي كسرتها الشومة هي التي كانت تمسك بالقلم لتكتب المقالات التي تحارب الاستعمار وتكشف فساد «المَلِك الزين أبو وردة على الخدين»، وتنتقد زعماء أحزاب الأقلية الذين كانوا يجدون الشرف كله في تقبيل جوانتي المَلِك، وفي السجود عند حذائه اللميع).

ويتساءل: فكيف يكون مصير حامل هذا القلم الشجاع كسر الذراع واللزق على القفا، في العهد الذي قال صاحبه (يقصد «جمال عبد الناصر») إنه جاء ليعلم المصريين العزة والكرامة؟!

ولأن «السعدني» صاحب عبارة «أنا ناصري إلى يوم أُبعث» فكان طبيعيًا أن يثور عندما وجد الاتهامات تلتصق بـ«جمال عبد الناصر» فقال مدافعًا عنه: «عبد الناصر لم يكن مديرًا لمصلحة السجون أو مأمورًا لسجن أبو زعبل، لكنه كان رئيسًا للجمهورية».

ويستطرد «السعدني»: «هل كان عبد الناصر يقوم بالاتصال شخصيًا بمأمور الواحات أو بمدير منطقة أبو زعبل؟». وبسخريته المعهودة عن مسألة مقارنته بزعماء أحزاب الأقلية فيقول: «لحظة ضربي على قفاي في سجن الفيوم كنت معتقلًا مسلوب الحرية والإرادة، وضربي بالقلم على قفاي أو حتى بالجزمة لا يسيء إلى العبد لله، لكنه يسيء إلى الضابط الذي ارتكب جريمة الضرب».

ويتساءل «السعدني»: «ما وجه المقارنة بين معتقل مسلوب الإرادة وبين زعماء أحزاب المعارضة؟ الذين يدبجون الخطب العصماء ضد المستعمر المحتل، وفي الوقت نفسه ينحنون كرقم ٨ لتقبيل جوانتي المَلِك، ومنهم من ينحني أكثر لتقبيل حذاء صاحب الجلالة! هل هناك مقارنة بين هذا وذاك يا أستاذ جمال؟ وكيف غابت هذه البدهية عن فطنتك يا أستاذ؟».

(٤)

وينتقل «بدوي» إلى مرحلة جديدة من الهجوم فيقول: «لو حدث الصفع على الخدين لكانت الطامة أهون لأن لزق القفا هو أحط أساليب الإذلال، ولا يُقدم عليه إلا نذلٌ، ولا يصبر عليه إلا الأذلاء؛ فكيف بكاتبنا (السعدني) يستهون هذا الفعل الدنيء ويرى فيه مكرمةً من مكارم ثورة يوليو التي يهون من أجلها كل شيء حتى كرامة البشر؟ ولا يخفف

من هذا الجرم أن تعلق مسؤوليته في رقبة ضابط رقيع وحليوة أو سجان غبي.. فالمسؤولية إنما تعلّق في رقبة السيد الأكبر الذي جعل من التعذيب سياسة مرسومة لتحطيم معنويات الشعب، وزرع الجبن والخوف والهلع في نفوس الناس حتى يتقوقعوا في مكامنهم، وينصرفوا عن شؤون الحكم والسياسة إلى الكورة، والحشيش، والبانجو، وعبادة الشيطان، والإغراق في العبث، والمجون».

ويشير «بدوي» إلى الصفعات التي هوت على قفا «السعدني» قائلاً: «كان ينبغي أن يتردد صداها في كل أنحاء البلاد وأن ينتفض من أجلها أحرار العالم الثالث لأن تحطيم كرامة مواطن هي إهانة لكل البشر، وتمزيق جسد شخص واحد بالكرباج يؤدي إلى تمزيق روح النخوة والشهامة والشجاعة عند جموع الأمة، فتصاب بالخنوع والاستسلام واللا مبالاة».

ويستطرد «بدوي» بقوله: «إن جرائم التعذيب لن يمحوها الدهر، ولن يكنسها التاريخ من مزبلته كما يتمني (السعدني)، والتاريخ لن يرحم الطغاة الذين احتقروا شعوبهم وأذلّوا مواطنيهم باسم المكاسب الثورية، لأن الإنجازات التي تتحقق عن طريق الكبت والقهر والقمع تُرصد في خانة الخسائر عند الحساب الختامي، والوسيلة لا تنفصل عن الغاية، والغاية لا تبرر الوسيلة، إلا عند أتباع ميكافيللي الذين يستبيحون الحرمات ويدوسون على الأخلاق من أجل تحقيق الهدف».

ويضيف «بدوي»: (نظم الحكم الديموقراطية لا تفرِّط في كرامة المواطن مهما كان الثمن، ومهما كانت الحجج والادعاءات، ولنا في حكومات «الوفد» عبرة فقد كان هدفها تحرير الوطن من الاحتلال وإقامة الحياة الدستورية النظيفة، والارتفاع بمستوى حياة السواد الأعظم من الشعب، ومضت في هذا السبيل أشواطًا بعيدة بقدر ما سمحت سنوات حكمها المتقطعة ومع ذلك لم نسمع عن حكومة «الوفد» أنها نفخت بطنًا

أو سحلت جسدًا أو لزقت كاتبًا على قفاه، وهذا هو الفرق بين حكم الشعب وحكم العسكر، بين حكومة تحترم كرامات الناس وتصون أعراضهم وأموالهم ودماءهم وبين حكومة تستعين بالكلاب والكرباج والعروسة لتحقيق العدل والمساواة).

(٥)

وعلى الجانب الآخر أخذ «السعدني» يعدد في محاسن الثورة قائلًا: «ثورة يوليو التي أمّمت قناة السويس، وأنشأت عشرات المصانع على أرض مصر وأقامت السد العالي، وأشركت العمال في إدارة المصانع والشركات وصادرت مئات الملايين من ثروة الخواجات واليهود الذين مصمصوا عظام مصر وشربوا دمها، ثورة يوليو التي أشعلت الثورات من اليمن حتى كوبا، ومن الكونغو حتى جامايكا، ثورة يوليو التي فتحت أبواب الجامعات للتعليم بالمجان، واشترطت وجود نسبة الخمسين بالمئة في مجالس نيابية أو محلية، ثورة يوليو التي وزعت الأرض على الفلاحين، واستردت خلوات الرجل السكن، وأمّنت للمصريين الغذاء والكساء والدواء والسكن، هذه هي ثورة يوليو يا أستاذ جمال».

ويستطرد السعدني: «إنني على استعداد لتأجير قفاي لكل أنواع اللزق والقص لمن يستطيع حماية شعب مصر الغلبان من عدوان السادة المنفتحين المفترسين الذين نهبوا البنوك وسرقوا أراضي الدولة، وربحوا الملايين من وراء بيع الأغذية المسمومة للكادحين من شعبنا»!

ويضيف «السعدني»: لا ينبغي لنا أن ننسى أننا دولة تنتمي إلى العالم الثالث، وعلينا أن نتذكر دائمًا أن الذي قتل حسن البنا هو مدير الأمن (عبد القادر طه)، وأن (رفيق الطرزي) أصيب بمئة رصاصة من مدفع

رشاش أطلقه عليه مخبر في البوليس المَلَكي».

واختتم «بدوي» مقاله بقوله: «يُفترض فينا -نحن الكتّاب- أن نحث الناس على التمسك بكرامتهم، واستنكار ما يقع عليهم من ضيم وظلم.. فكيف بنا إذا شجعناهم على قبول الذل واستعذاب الضرب على القفا واعتباره منةً ومكرمةً من النظام الثوري..؟ ولست أدري يا أستاذ سعدني أيهما أشد إمعانًا في الذل؛ زعماء أحزاب الأقلية الذين كانوا يجدون الشرف الرفيع في تقبيل جوانتي المَلِك فاروق والسجود عند حذائه اللميع، أم الكاتب الذي يستلذّ اللزق على القفا، ويرى في ذلك مدعاةً للفخر والمباهاة؟».

أما «السعدني» فيقول: «صدقني إذا قلت لك إنني شعرت بالهمّ والغمّ عندما قرأت لك بأنك تنكدت نكدًا شديدًا عندما عرفت أنني تعرضت للصفع على قفاي في أثناء فترة اعتقالي، وأنك هممت أن تكتب برقيات استنفار إلى نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب وجمعيات حقوق الإنسان احتجاجًا على ما أصاب العبد لله من إهانات لا تُغتفر، وهو موقف يدل على شهامة حقيقية، وزمالة تتفوق على زمالة السلاح».

ويتساءل «السعدني» ساخرًا: «ألا ترى معي أن موقفك هذا تأخر كثيرًا، وكان أحرى بك وأنت الكاتب الحُر أن تكتب هذه البرقيات ونحن في السجن نُلزق على أقفيتنا، خصوصًا وأنت من جيل العبد لله؛ فلماذا لم تكتب سطرًا واحدًا يا أستاذ جمال عن عمليات التعذيب التي استهدفت زملاءك في سجون عبد الناصر، وهناك احتمال من اثنين لا ثالث لهما، إما أنك علمت وسكتَّ وآثرت السلامة، وهذه المصيبة.. وإما أنك لم تعلم ولم يصل إلى سمعك طراطيش كلام من أي نوع عما جرى لزملائك في السجن وهنا تكون المصيبة أعظم».

واختتم السعدني حديثه قائلا: «أرجوك يا أخ جمال عدم الاهتمام

بقفا العبد لله، فقفا العبد لله حليم وقوي وتحمَّل كثيرًا وعلى استعداد لكي يتحمل أكثر إذا كان هذا يحقق السعادة والرخاء والطمأنينة لفقراء مصر!».

١٩٩٨

الجلابية والسيمون فيميه!

(١)

وافق الشاعر «أحمد فؤاد نجم» على حضور حفل أقامه رجل الأعمال «نجيب ساويرس» للاحتفال بعيد ميلاد «نجم» السبعين، فقامت القيامة الصحفية بين اثنين من الخبراء في إدارة المعارك.

كلاهما أستاذ كبير في فن التأثير في الجماهير، ولكلٍّ منهما مقعد دائم في صفوف المعارضة، يرفعان دائمًا شعار البسطاء فوق كل اعتبار، كلاهما ثوري الهوى لا يتخلى عن مبادئه، ولا يرضى بالحلول الوسط، ظلا رفيقين لسنوات طويلة لذلك لم يكن أكثر المتشائمين يتوقع أن يصبحا خصمين في معركة لا تقبل القسمة على اثنين.. فالأول هو الشاعر الكبير «أحمد فؤاد نجم» الشهير بـ«الفاجومي»، أما الثاني فهو الكاتب الكبير «عادل حمودة».

سبب المعركة هو موافقة «الفاجومي» على حضور حفل أقامه رجل الأعمال «نجيب ساويرس» للاحتفال بعيد ميلاده السبعين.

تحت عنوان «الجياد لا تباع في السوبر ماركت» كتب «عادل حمودة» يقول: «هل هو نفسه أحمد فؤاد نجم الذي مشينا وراءه في يوم من الأيام منوَّمين بسحر شجاعته وجرأة قصائده.. كيف انقلب من شاعر يحطم أصنام السياسة إلى شاعر يغنّي على الربابة.. ما الذي أغراه أن يتكلم غير لسانه ويأكل طعامًا غير طعامه، ليقبل تكريمًا في ملهى ليلي بمناسبة عيد ميلاده السبعين، ليبدو بجلبابه الشهير في هذا المكان الغريب، كأنه في حفلة تنكرية، أو في جلابية بارتي.. فلا المكان مكانه، ولا الجمهور يناسبه، ولا أشعاره يمكن أن تولد هناك.. أشعاره كانت تعيش على الفول والعدس لا على الكافيار والسيمون فيميه.. أشعاره كانت تتحدث عن الصحافة لا عن البورصة، وشركات الصرافة... رغم كل التساؤلات فإنني لن أضع علامة استفهام واحدة، فنحن في زمن لا يعرف علامات التعجب والاستفهام.. ومن كثرة الدهشة لم نعد في دهشة».

(٢)

لم يكن «نجم» من هذا النوع الذي يفضل الصمت فكعادته كان «فاجوميًّا» في رده فقال: «الأستاذ عادل حمودة خانه ذكاؤه حينما اختارني بالذات، ودون بقية خلق الله ليتخذ من جسدي النحيل مَعبرًا إلى عالم رجال الأعمال، ربما لأموالهم والله أعلم.. أولًا: لأنني أبعد ما أكون عن عالم وأموال ورجال ونساء الأعمال.. ثانيًا: وهو الأهم يا أخ حمودة، أنا مقاسي كبير عليك، ولّا أنت مش واخد بالك!».

ويستكمل حديثه قائلًا: (رغم أن رجل الأعمال المهندس نجيب ساويرس قد أقام لي حفل عيد ميلادي في كباريه، وأنني أرتدي جلابية

بارقي -طبعًا من باب الاستظراف- واتهمني ظلمًا بتعاطي الكافيار والسيمون فيميه، وزفّ نعيي للأمة، وأعلن نهايتي كشاعر، وتحداني «حمودة» أن أكتب قصيدة جديدة).

أما «حمودة» فعاد بذاكرته إلى فترة الستينيات، تلك الفترة التي علت فيها نجومية «الفاجومي»، إذ يقول عنها: «أحمد فؤاد نجم ليس أي شاعر، إننا نمتلكه أكثر مما يمتلك هو نفسه، وهو جزء منّا، تكون في وقت كنا في حاجة إليه وهو جزء من تاريخ هذا الوطن، ومن ثم فليس من حقه أن يتصرف دون مشورتنا ودون أن يضعنا في حساباته، فلقد خرج مثل كل الأشياء الجميلة معمّدًا بالنار والحديد المنصهر، جاء في الوقت المناسب وكنس مستوطنات العنكبوت التي نشرت خيوطها في هزيمة ١٩٦٧، في هذا الوقت خرج من رحم الصبر والمعاناة شاعر اسمه أحمد فؤاد نجم كانت مهمته تكدير السكوت بالأنغام، وإشعال الحرائق في الوجدان العام».

ويستطرد بقوله: «كان جيلنا على عتبة الحياة الجامعية حين جاء الزلزال (يقصد هزيمة ١٩٦٧) وكنا نحب جمال عبد الناصر كما نحب أنفسنا، ولكننا لم نستوعب ما جرى فرُحنا نعلن مع كل الإيمان به غضبنا منه، فوجدنا في قصائد أحمد فؤاد نجم ما ينزع الشمع الأحمر عن هذا الغضب، وكانت هذه القصائد شهادة لا تقبل الزور على العصر ووثيقة دفاع عن النفس في جناية وطنية عامة لم نرتكبها وإن وجدنا أنفسنا نحاكَم عليها فرُحنا نكتب بأيدينا مئات النسخ من قصيدة طازجة يكتبها، وخرجت قصائده مهرّبة من وراء الجدران السميكة لتصبح الصحيفة المعارضة الوحيدة في ذلك الوقت، فهو يتحدث عن غياب العقاب والمسؤولية (الجناية أنّ البلد من السُّكات بعضها راح لليهود والبعض مات.. واللي جابوا النكسة لسّه عَ الكراسي فوق ظهور المخلوقات)».

(٣)

ويعود «نجم» أيضًا بذاكرته إلى أول مرة التقى فيها «عادل حمودة» ويقول: «أول مرة شفته فيها كانت في الجزائر في خريف عام ١٩٨٣، على ما أذكر في مكتب طاهر عدواني-رجل المخابرات الفرنسية في وزارة الثقافة الجزائرية- ولم أندهش لوجوده في الجزائر كمراسل صحفي فترة كانت العلاقات بيننا وبين الجزائر مقطوعة بسبب زيارة السادات الشهيرة للقدس المحتلة، ولكنني أيقنت أنه يؤدي مهمة أنا في غنى عن معرفة أسبابها، ويكفيني أنني رأيته بصحبة (...) مندوبة أمن الدولة في مؤسسة (روزاليوسف)».

ويضيف قائلًا: (تمر خمس سنوات في الغربة والمنفى الاختياري وعدت إلى مصر المحروسة لأجد أشياء كثيرة قد تغيرت، كانت مجموعة المواهب الشابة تتأهب للتألق على صفحات «روزاليوسف»، وكان يرأس تحريرها آنذاك الأستاذ «محمود التهامي» حيث برز فجأة «عادل حمودة» كنائب لرئيس التحرير له سلطات ونفوذ لأجعص رئيس تحرير لأجعص مؤسسة صحفية في مصر المحروسة! علمًا بأن هذا الحمودة سبق له السفر إلى إسرائيل أكثر من مرة، ومن هنا فهو من الممكن أن يكون نائبًا لرئيس تحرير أي مؤسسة صحفية إلا «روزاليوسف» بالذات لأنها ليست مجرد مؤسسة صحفية؛ ولكنها تاريخ طويل من النضال الوطني؛ وكأنه تار بايت نجح الصهاينة في تخليصه من الشعب المصري حين فتح القارئ مجلة «روزاليوسف» ليطالعه هذا المانشيت «عادل حمودة يكتب لكم من تل أبيب»).

وينتقل «نجم» إلى مشهد آخر جمعه بـ«حمودة» وذلك عندما عرض

عليه «عادل حمودة» نشر مذكراته في «روزاليوسف»، يقول: «كان أهم مكسب من وجهة نظري هو إقبال الجيل الجديد الذي لم يرَ ما حدث، وارتفع توزيع (روزاليوسف) وهذا شرف لا أدّعيه، وإن كنت فخورًا به بلا أي محاولة لادّعاء التواضع، وحذّرني البعض من أني سرقت الكاميرا وسحبت البساط من تحت أقدام (عادل حمودة) المعجباني، وفوجئت في أثناء نشر الجزء الثاني من المذكرات بالأستاذ (عادل حمودة) يوقف النشر».

وحين سُئِل «الفاجومي» عن سر توقف نشر مذكراته، أجاب: (أنا أوقفتها لأن عادل حمودة ماطلعش راجل، وحمدت الله على توقف النشر في «روزاليوسف» التي حولها عادل حمودة إلى مجلة شبه جنسية تلتقط «الأخبار» من غرف النوم، وتنشرها للإثارة).

ودخلت مجلة «الأهرام العربي» كشاهد عيان على المعركة عندما أرسل «عادل حمودة» إليها مقالًا تحت عنوان «الجياد لا تُباع في السوبر ماركت.. وإنما على الرصيف» جاء فيه: «إن كل ما قصدته في المقال شهادة موقّع عليها من الأمة العربية، وكنت في حُسن ظني مستندًا إلى أن تلك القلة النادرة من البشر التي منحها فرصة امتلاك قلوب وضمائر الناس هي مشبعة بما حظيت به، وحصلت عليه، وكان دليلي أن عبد الناصر لم يكرمه أحد سوى الجماهير التي استفادت منه.. وإن نيلسون مانديلا كان أكبر من الذين كرموه؛ ولكن اتضح أنه مثل أي شخص عادي يتصور أن الاحتفال بعيد ميلاده أمر ضروري لتكريمه، وأنه مادام اليسار الذي صنع شهرته لم يفكر في ذلك فليذهب إلى اليمين، ومادامت الجامعة قد كفّت عن استقباله؛ فلماذا لا يكون البديل شركة.. كأن عيد ميلاده الفرض، والسُّنة، والشفع، والوتر».

ويستطرد «حمودة» بقوله: «وجدنا الشاعر الذي دافع عن الفقراء وهاجم بضراوة الاستغلال الرأسمالي يقول بكل فخر ما بقاش فيه أحلام

كبيرة مجعلصة.. الاشتراكية والعروبة والشرف الوطني وغيره.. دلوقت أبوس إيديك أو رجلك، وهات لي مليون واحد حرامي يشغلوا فلوسهم في مصر».

ويُنهي «حمودة» كلامه قائلًا: «يبدو فعلًا أن الجياد أصبحت تُباع ليس في السوبر ماركت فقط وإنما على الرصيف أيضًا.. ومَن لا يشتري.. فليس هناك ما يمنعه من الفُرجة».

وبكلمات حادة كالسيف، وقوية كالمطرقة قال «الفاجومي» مخاطبًا «عادل حمودة»: «إنك منحتني فرصة كشفك أمام الناس على حقيقتك يا..»، ثم عدّد «نجم» الأسباب:

أولًا، أنك تجيد حاسة الشم والاستشعار عن بُعد، وفي هذا المجال أشهد لك بالنبوغ والعبقرية، فعلى سبيل المثال في الوقت اللي كنت فيه تحت رجلين «صلاح حافظ» لأنه رئيس تحرير «روزاليوسف»، وأول ما رحل عن دنيانا اتجهت إلى الطريق المؤدي إلى أعتاب «محمد حسنين هيكل» وأنت عارف أن «هيكل» كان في قمة السُّلْطة ومركز صنع القرار».

ثانيًا، أرى أنك صحفي بتبيع الوهم للناس الطيبين لأنك واد حلنجي وعندك تركيبة كلامية زيّ اللي عند الحاج محمود بتاع الشوربة العجيبة اللي بيبيع للناس كناسة العطار على أنها البلسم الشافي من الأمراض.

ثالثًا، أنت منفوخ عَ الفاضي وأنا بقى أحطك في حجمك الطبيعي عشان تبقى عبرة لتجار الكلام.

(٤)

«المريدون القدامى انقلبوا على أحمد فؤاد نجم»...

كان ذلك عنوان لتحقيق نشرته مجلة «الأهرام العربي» لتستعرض آراء جيل السبعينيات الذين تربى حسهم الوطني على أغاني نجم.. فالروائي «يوسف أبو راية» يتساءل متحيرًا: كيف يسرق «النجم» أحلامنا، مَن أعطاه الحق في ذلك؟ هل كان التاريخ وهمًا؟ وهل كانت الأحلام مجرد أضغاث أحلام؟ لماذا يتنكر «نجم» لتراثه الشعري؟ ويتوجه المحرر إليه بسؤال: ما «خطيئة» نجم بالضبط؟ ويجيب: نحن لا نعادى «ساويرس» في شخصه، بل نتوقف أمام دلالة هذا الكرنفال الاحتفالي، فلو كانت دعوة «ساويرس» لـ«نجم» قد أخذت الطابع الشخصي لكن الأمر شأنًا خاصًا بهما؛ ولكن ما حدث نمّ عن المصالحة الطبقية بين الشعر النضالي، وبين البزنس.

ولكن الشاعر «رفعت سلام» بدا على النقيض تمامًا فقال: «نجم» في بداياته كان إنسانًا بسيطًا يفتقر إلى الحد الأدنى من الثقافة، ثم تحول إلى شاعر اليسار الأول والمعبِّر عن نبض الحركة الطلابية، والآن نحن بإزاء التحول الثاني من شاعر المعارضة الأول إلى أحد كتاب العصر الذي يكتب في كل مطبوعة، ويفتي في كل شيء، وما فعله نجم لم يكن أكثر من أنه ركب موجة اليسار وقت صعودها، ولما انكسرت الموجة انكشف على حقيقته.

بينما يقول شاعر العامية «ماجد يوسف»: «نجم» انتهى بالفعل من زمن، وأنا عرفته في جميع مراحل حياته، واقتربت منه كثيرًا على المستوى الإنساني، لكن قبل إدانة «نجم» لماذا نسكت عن «تحولات» عصر كامل

اهتز فيه كثير من الثوابت التي تربينا عليها واختلفت قيم مجتمع بأكمله؟ أرجوكم قبل محاكمة «نجم» حاكموا هذا العصر بتحولاته وعواصفه».

أما الكاتب الصحفي «صلاح عيسى» الذي حضر حفل تكريم «نجم» فيقول: «كان الحفل بسيطًا للغاية، ولم يكن فيه السيمون فيميه أو الكافيار، ولم يُقم في ملهى ليلي كما ذكر عادل حمودة الذي لم يحضر ولم تكن معلوماته دقيقة، ما حدث بالضبط هو قيام عمار الشريعي وعزة بلبع وأسماء لمنور المغربية بغناء ١٥ أغنية من أغنيات نجم، وأذكر أنني مِلتُ على أحد الجالسين بجواري وقلت له: الممول بيتشتم لأن معظم الأغاني كانت ضد الانفتاح والرأسمالية».

ومثل مهرةٍ جامحةٍ انطلقت الكاتبة «صافيناز كاظم» -زوجة نجم السابقة- في هجومها على «عادل حمودة» تقول: «ساويرس ليس السفير الإسرائيلي في مصر حتى يهاجمه هؤلاء الحثالة واللصوص بهذه الضراوة، بالعكس أنا أحيّي تلك المبادرة التي لم تفعلها محافظة نجم (الشرقية) ولا هيئة قصور الثقافة، وأقول لعادل حمودة الذي سطا -في كتابه «قتلة السادات»- على أحد كتب حسني أبو اليزيد، وكنت شاهدةً على ذلك حين انتُدبت كخبيرة لوضع تقرير عن هذه السرقة في تلك القضية التي انفجرت في منتصف الثمانينيات.. أقول لعادل حمودة، لا تقذف نجم بالطوب لأن بيتك من زجاج».

ولم يفسح «عادل حمودة» لها المجال لهجائه لكنه رد لها الصاع صاعين بقوله: «في صراخ الأشياء التي تسقط وجدتُ السيدة المهذبة صافيناز كاظم تصف الذين يختلفون مع نجم بأنهم (حثالة ولصوص).. منتهى الأدب واللياقة من كاتبة ترتدي الحجاب.. ثم كان أن اتهمتني بالسطو على كتاب (قتلة السادات)، كانت فيه خبيرة أمام المحاكم التي فصلت في القضية، والتي أتصور أنها تجاهلت عن عمد أن القضية انتهت لصالحي بحكم نهائي».

١٩٩٩

آخر عشرين دقيقة تنعم فيها بالسلام

(١)

في تمام الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الثاني عشر من أكتوبر بتوقيت كاليفورنيا رنّ جرس الهاتف في منزل الدكتور «أحمد زويل» على غير موعد، وقال المُتصل بنبرة سعيدة متسائلًا: «أأنت الدكتور زويل؟».

أجاب «زويل»: «نعم».

فقال المُتصل: «نأسف للإزعاج في هذا الوقت المبكر من الصباح، ولكن عندي لك بعض الأنباء المشوّقة.. أنا السكرتير العام للأكاديمية المَلَكية السويدية، ويسعدني أن أبلغك أنك قد حصلت على جائزة نوبل في الكيمياء منفردًا».

ثم تلا على مسامع الدكتور «زويل»، حيثيات منحه الجائزة وإشادة اللجنة بإنجازاته العلمية، وظلت المحادثة على الهاتف لمدة عشر دقائق.

وقبل أن يُغلق سكرتير الأكاديمية الخط قال للدكتور «زويل»: «سوف تكون هذه آخر عشرين دقيقة تنعم فيها بالسلام في حياتك»!

عشرون دقيقة فقط قضاها الدكتور «زويل» في إخبار الأقارب والأصدقاء المقربين، بعدها أُذيع النبأ في العالم أجمع، وصارت كل

الصحف والإذاعات، والتليفزيونات، ووكالات الأنباء المهمة في الكرة الأرضية تطارد العالم الحاصل على جائزة نوبل الدكتور «أحمد زويل».

ولم تحتمل التليفونات، والفاكسات، والبريد الإلكتروني الخاص بالدكتور «زويل» كثرة رسائل التهنئة، وكثرة الطلبات بإجراء حوارات صحفية وتليفزيونية.

فقد انتشر نبأ الجائزة بسرعة «الفيمتو ثانية» -على حد تعبير الدكتور «زويل»- وحاول رئيس جامعة «كالتك» التي ينتمي إليها «زويل» أن يتصل به، لكنه لم يستطع الوصول إليه، فذهب إلى بيته وطرق الأبواب، لكن أحدًا لم يفتح له الباب، فقد خشيت أسرة الدكتور «زويل» أن يكون صحفيًّا من الذين يطاردونه!

(٢)

وذهب الدكتور «زويل» إلى المؤتمر الصحفي وكانت أول جملة يقولها: «فهمتُ الآن ما قاله سكرتير الأكاديمية السويدية: سوف تكون هذه آخر عشرين دقيقة تنعم فيها بالسلام في حياتك».

وفي أثناء المؤتمر سُئل الدكتور «زويل»: «هل كنت تنعم بحياة عادية؟».

وأجاب: بالتأكيد.. أذهب مع عائلتي لنقضي مصالحنا ونشتري حاجاتنا من هنا وهناك، ونأكل الطعام الصيني، ونرتاد المسرح... إلخ».

وقد نشرت صحف اليابان هذا التصريح؛ لكنها استبدلت بكلمة الطعام الصيني «الإغريقي»!

ولم ينعم الدكتور «زويل» بالراحة منذ ذلك اليوم حتى يوم رحيله.

لكن اللافت أن الكاتب الكبير «عبد الوهاب مطاوع» رئيس تحرير مجلة «الشباب»، رافق الدكتور «زويل» خلال رحلته إلى السويد لاستلام جائزة نوبل، وكان وقتها ضيفًا على الحفل بصفة شخصية رغم محدودية الدعوات، وانفرد الأستاذ «عبد الوهاب» بكواليس وصور تم نشرها على صفحات «الشباب».

ربما سر تلك العلاقة الوثيقة والمختلفة بين العالِم والكاتب سببها أن «عبد الوهاب مطاوع» كان أول من التفت إلى قيمة ومكانة الدكتور «زويل»، وذلك في نهاية الثمانينيات، حيث كانت تتم الإشارة إليه في العديد من التحقيقات، وتم إجراء عدد من الحوارات معه، وكانت تتحدث المجلة عنه باعتباره عالمًا مصريًّا مشهورًا عالميًّا ويحظى بمكانة كبيرة في جامعات أمريكا أوروبا؛ ولكنه مجهول في بلده.

(٣)

وفي مطلع التسعينيات حرص «عبد الوهاب مطاوع» على أن يحرر الدكتور «زويل» بابًا ثابتًا بعنوان «العلم في كبسولة» وكان هذا الباب يهتم بتبسيط العلوم والمصطلحات الصعبة بأسلوب سهل للفهم حتى لغير المتخصصين في الكيمياء والفيزياء.

لكن لو لم يفعل «عبد الوهاب مطاوع» سوى أنه جمع في تجربة واحدة «محمود السعدني، وأحمد رجب، وأنيس منصور، ومصطفى محمود، وأحمد بهجت، وسلامة أحمد سلامة، ونبيل فاروق»، وغيرهم من أولياء الكتابة وجبابرتها لكان هذا النصر يكفيه ويكفينا وتهانينا!

هذا بالضبط ما فعله «عبد الوهاب مطاوع» حين تولى رئاسة تحرير مجلة «الشباب» وجعلها واحدة من أهم وأفضل وأمتع المجلات في الوطن العربي،

وتربى عليها جيل بأكمله ظل لفترة طويلة لا يعرف سواها ولا يدرك أن لها بديلًا.

في هذا التوقيت كانت هناك معركة كبيرة مشتعلة بين جريدة «الشعب» ووزير الزراعة «يوسف والي»، وقد قادت هذه المعركة الجريدة إلى المحكمة، ثم إلى الإغلاق فيما بعد.

«الشعب» كانت جريدة سقفها عالٍ، ومواقفها واضحة، وكانت تقف بالمرصاد في مواجهة الفساد، وكانت تصدر عن حزب «العمل» الذي يرأسه «إبراهيم شكري».

ويُحسب للجريدة ولرئيس تحريرها «مجدي أحمد حسين»، الجرأة الشديدة في معاركها الشهيرة سواء مع «زكي بدر» أو «يوسف والي» وغيرهما، ولعل أبرز مانشيت للجريدة كان عبارة عن كلمة واحدة فقط هي: **الخيانة**

ثم عناوين شارحة تقول: **الخيانة -وفقًا لتعريف المعاجم العربية- لا تكفي لوصف يوسف والي**

- **القضاء المصري حكم بالبراءة لكُتاب وصفوا وزيرًا بأنه خائن وحمار!**

وفي نفس العدد، وفي الصفحة الأولى أيضًا كان هناك عنوان يقول:

- **الرئيس مبارك.. والآمال الكبيرة**

لكن في الأعوام التالية تبدّلت المواقف، وحدثت تحولات كبرى، ومفاجآت كثيرة!

كتب مُلهمة

تاريخ الصحافة العربية «مجلدان»، فيليب دي طرازي.

تطور الصحافة المصرية، د. إبراهيم عبده.

تاريخ الوقائع المصرية، د. إبراهيم عبده.

أعلام الصحافة العربية، د. إبراهيم عبده.

بين الصحافة والسياسة، محمد حسنين هيكل.

مبارك وزمانه، محمد حسنين هيكل.

لمصر لا لعبد الناصر، محمد حسنين هيكل.

زيارة جديدة للتاريخ، محمد حسنين هيكل.

إيران فوق البركان، محمد حسنين هيكل.

الاستعمار لعبته المَلِك، محمد حسنين هيكل.

الانفجار ١٩٦٧، محمد حسنين هيكل.

لكل مقال أزمة، مصطفى أمين.

أفكار ممنوعة، مصطفى أمين.

سنة أولى سجن، مصطفى أمين.

سنة ثانية سجن، مصطفى أمين.

سنة ثالثة سجن، مصطفى أمين.

مسائل شخصية، مصطفى أمين.
٥٠ عامًا في قطار الصحافة، موسى صبري.
الصحافة الملعونة، موسى صبري.
السادات.. الحقيقة والأسطورة، موسى صبري.
عمالقة الصحافة، حافظ محمود.
أسرار صحفية، حافظ محمود.
المعارك في الصحافة والسياسة والفكر، حافظ محمود.
فاروق ملكًا، أحمد بهاء الدين.
محاوراتي مع السادات، أحمد بهاء الدين.
أيام لها تاريخ، أحمد بهاء الدين.
المثقفون والسُّلْطة في عالمنا العربي، أحمد بهاء الدين.
الطريق إلى زمش، محمود السعدني.
مذكرات الولد الشقي، محمود السعدني.
الولد الشقي في السجن، محمود السعدني.
عودة الوعي، توفيق الحكيم.
عودة الوعي بالوثائق، توفيق الحكيم.
كتب المقالات، فتحي غانم.
زينب والعرش، فتحي غانم.
الرجل الذي فقد ظله، فتحي غانم.
تلك الأيام، فتحي غانم.
أي كلام، أحمد رجب.
نُص كلمة، أحمد رجب.

الصحافة فوق صفيح ساخن، سلامة أحمد سلامة.
مناطق رمادية، سلامة أحمد سلامة.
عمائم وخناجر، إبراهيم عيسى.
مبارك عصره ومصره، إبراهيم عيسى.
شخصية مصر، د. جمال حمدان.
عصر العلم، د. أحمد زويل.
تجديد الفكر العربي، د. زكي نجيب محمود.
الكتابة عمل انقلابي، نزار قباني.
معارك فكرية، محمود أمين العالم.
سر المهنة وأصولها، غسان تويني.
أحزان حرية الصحافة، صلاح الدين حافظ.
صلاح حافظ مايسترو الصحافة، رشاد كامل.
هيكل.. الحياة.. الحرب.. الحب، عادل حمودة.
انقلاب في بلاط صاحبة الجلالة، عادل حمودة وفايزة سعد.
النكتة السياسية، عادل حمودة.
أزمة المثقفين وثورة يوليو، عادل حمودة.
مقالات ساخرة، صلاح جاهين.
ذكريات، فاطمة اليوسف.
أمس واليوم وغدًا، إحسان عبد القدوس.
حكايات إحسان عبد القدوس، محمد عبد القدوس.
أخبار المصريين في القرن العشرين (أربعة أجزاء)، سعيد هارون عاشور.

دنيا الصحافة، محسن محمد.
كُناسة الصحف، محمد العزبي.
الصحافة والحكم، محمد العزبي.
صناعة الجهل، د. نعمات أحمد فؤاد.
معارك صحفية، جمال بدوي.
في دهاليز الصحافة، جمال بدوي.
ثورة يوليو والصحافة، رشاد كامل.
العيب في ذات أفندينا، د. يونان لبيب رزق.
هيكل الثعلب السياسي الكبير، محمود فوزي.
نجيب محفوظ زعيم الحرافيش، محمود فوزي.
النبوي إسماعيل وجذور منصة السادات، محمود فوزي.
الشيخ الشعراوي وفتاوى العصر، محمود فوزي.
إحسان عبد القدوس بين الاغتيال السياسي والشغب الجنسي، محمود فوزي.
أهمية أن نتثقف يا ناس، يوسف إدريس.
فقر الفكر وفكر الفقر، يوسف إدريس.
بصراحة غير مطلقة، يوسف إدريس.
البحث عن السادات، يوسف إدريس.
أنشودة البساطة، يحيى حقي.
هم وأنا، صالح مرسي.
عادل وديع فلسطين، يوميات حرب أكتوبر.
رحلة نقدية في حياة وأعمال بيرم التونسي، ماريلين بوث.

الصحافة اليسارية في مصر، رفعت السعيد.
أوراق السادات، أنيس منصور.
القرية المقطوعة، جلال الدين الحمامصي.
هيكل والسياسة الأسبوعية، محمد سيد محمد.
سيرة الحبايب، سناء البيسي.
مصر يا ولاد، سناء البيسي.
أقنعة الناصرية السبعة، لويس عوض.
بارونات الصحافة، جميل عارف.
هؤلاء حاورهم، مفيد فوزي.
معارك الشيخ الشعراوي، فاروق فهمي.
إبراء الذمة، جمال الغيطاني.
ذات يوم، سعيد الشحات.
صحف مُصادَرة، هشام عبد العزيز.
كل رجال الباشا، خالد فهمي.
مثقفون وعسكر، صلاح عيسى.
حكايات من دفتر الوطن، صلاح عيسى.
الأعمال الكاملة، الإمام محمد عبده.
الإمام محمد عبده، محمد رشيد رضا.
مذكراتي في نصف قرن، أحمد شفيق باشا.
في المرآة، عبد العزيز البشري.

المراجع

تراث محمد حسين هيكل ثلاثة أجزاء.
تراث طه حسين.
تاريخ الصحافة المصرية، د. مها الطرابيشي.
غراميات عاشق صاحبة الجلالة، حنفي المحلاوي.
فن المقال الصحفي، د. عبد العزيز شرف.
الصحافة المصرية والقضايا الوطنية، د. سهير إسكندر.
الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية، د. نجوى كامل.
تاريخ السياسة والصحافة المصرية، د. رمزي ميخائيل.
إدارة الصحف، د. صليب بطرس.
حرية الصحافة في مصر، د. نرمين الأزرق.
حكاية الصحافة المصرية، د. عواطف عبد الرحمن.
أسرار الصحافة، محمد السيد شوشة.
هيكل والأخلاق الصحفية، الحسيني الديب.
تطور مجلات الأطفال، نجلاء علام.
طه حسين ومعاركه الأدبية.
المجلات الأدبية في مصر، د. عزة بدر.
الديموقراطية في الصحافة المصرية.

المحاكمة الكبرى في قضية الاغتيالات السياسية، لطفي عثمان.
نجيب محفوظ صداقة ممتدة، زكي سالم.
«الأهرام» عصر التكوين، د. يونان لبيب رزق.
شهود العصر .. كتاب مُجمع.
الشيخ علي يوسف وجريدة «المؤيد»، د. سليمان صالح.
موقف الصحافة المصرية من الصهيونية، د. سهام نصار.
إبراهيم عبد القادر المازني، الأعمال الكاملة.
نجيب محفوظ مئة عام.
الصحافة والإصلاح السياسي، تحرير د. أحمد منيسي.
أعمال صحفية غير صالحة للنشر، محمد شعير.
حركة النشر في مصر، د. عايدة إبراهيم نصير.
مختارات من آثار علي عبد الرازق، جمع وتحرير د. حسام أحمد عبد الظاهر.
الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي، د. سامي عزيز.
الصحافة المصرية وثورة ١٩، رمزي ميخائيل.
تطور الخبر في الصحافة المصرية، رمزي ميخائيل.
صالة التحرير، سامي فريد.
عبد الناصر والمثقفون، يوسف القعيد.
من ذكرياتي الصحفية، فاطمة اليوسف.
التنكيت والتبكيت.. دراسة تحليلية، عبد المنعم الجميعي.
فجر الحركة الوطنية المصرية، عمر طوسون.
مذكرات نوبار باشا.
خواطر مؤرخ، عبد العظيم رمضان.

الفن في حياتنا، فتحي غانم.
آدي مصر وأنا بقى وعادل حمودة، أحمد فؤاد نجم.
في حضرة نجيب محفوظ، محمد سلماوي.
حرية الصحافة في مصر بين التشريع والتطبيق، د. ليلى عبد المجيد.
تطور الصحافة المصرية من ١٩٥٢ إلى ١٩٨١، د. ليلى عبد المجيد.
الصحافة الفكاهية في مصر، عبد الله أحمد عبد الله.
أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة، د. إبراهيم المسلمي.
أزمة الديموقراطية في الصحافة المصرية، د. فاروق أبو زيد.
دراسات في الصحافة المصرية والعربية، د. عواطف عبد الرحمن.
كشكول الصحافة، سمير صبحي.
في دهاليز الصحافة، سمير صبحي.
صحيفة تحت الطبع، سمير صبحي.
فجر الصحافة في مصر، د. أحمد حسين الصاوي.
هموم الصحافة والصحفيين في مصر، د. عواطف عبد الرحمن.
الصحافة المصرية في مئة عام، د. عبد اللطيف حمزة.
أزمة الضمير الصحفي، د. عبد اللطيف حمزة.
أدب المقالة الصحفية في مصر، د. عبد اللطيف حمزة.
كم عمر الغضب؟ هيكل وأزمة العقل العربي، د. فؤاد زكريا.
كنوز صحفية، علاء عبد الهادي.
اتجاهات الصحف المصرية نحو أحداث فبراير ١٩٨٦، د. نجوى الفوال ود. نجوى خليل.

أرشيف الصحف والمجلات

جريدة «الأهرام».

جريدة «الأخبار».

جريدة «الجمهورية».

جريدة «أخبار اليوم».

جريدة «جريدة مايو».

مجلة «روزاليوسف».

مجلة «صباح الخير».

مجلة «الهلال».

مجلة «الكواكب».

مجلة «آخر ساعة».

مجلة «الشباب».

مجلة «المصور».

جريدة «المصري».

جريدة «الشعب».

مجلة «الجيل».

مجلة «ذاكرة مصر المعاصرة».

مجلة «الصرخة».

مجلة «ديوان الأهرام».

مجلد مجلة «السياسة» الأسبوعية.

«الأهرام» وطن في جريدة.. تقديم أحمد السيد النجار.

«روزاليوسف» ٩٠ عامًا من الحرية والتمرد.

دار الكتب والوثائق.

أرشيف مكتبة الإسكندرية.

مقابلات صحفية

- مقابلة خاصة من أجل هذا الكتاب مع الكاتب الكبير إبراهيم عيسى، أبريل ٢٠١٧.
- مقابلة مع الكاتبة الكبيرة حُسن شاه في منزلها عام ٢٠٠٦.
- مقابلة مع الكاتب الكبير أنيس منصور عام ٢٠٠٣.
- مقابلة مع الكاتب الكبير أحمد بهجت عام ٢٠٠٢.
- لقاء مع الكاتبة الكبيرة سناء البيسي عام ٢٠١٥ في مكتبها.
- لقاء مع الكاتب الكبير عبد الوهاب مطاوع عام ٢٠٠٤.
- مقابلات متعددة مع الكاتب الكبير أحمد رجب ما بين عامي ٢٠١٠ و٢٠١٤.
- مقابلات متعددة مع الكاتب الكبير محمد العزبي بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٧.



قصة الصحافة والسلطة في مصر

١٩٥٠ – ١٩٩٩

(محمد توفيق)

حدث ذلك في أربعينيات القرن الماضي!

كان الكاتب الكبير "محمود السعدني" في زيارة لمنزل صديقه المبدع "زكريا الحجاوي"، وبصحبته رسام الكاريكاتير "طوغان".

وحين دخلا إلى البيت، وجدا شخصا لم يرياه من قبل جالسا في البيت، فسألا "الحجاوي": "مش تعرفنا على ضيفك؟".
فأجاب "الحجاوي": "هذا الشخص سيحكم مصر في يوم من الأيام".

فضحك السعدني، وقال ساخرا: "ده هيحكم مصر.. ده شكله مخبر"!

والتزم الضيف الذي كان خارجا لتوه من السجن الصمت، ولم يعلق، وجلسوا يتسامرون، ويضحكون لساعات، وتعددت اللقاءات بين الأصدقاء الأربعة في بيت "الحجاوي"، وعلى مقهى "محمد عبد الله" في الجيزة.

ودارت بينهم أحاديث كثيرة في السياسة، والثقافة، وكانت النُكت السياسية والسخرية من الملك والحكومة حاضرة في أغلب اللقاءات، وكل واحد من الأربعة يروي النُكت بطريقته، ويسخر من الأوضاع وفق توجهاته، وكان هناك اتفاق في الآراء على حاجة البلد إلى التغيير.

وقامت ثورة يوليو، واكتشف الجميع أن هذا الشخص الذي التقوه في منزل "الحجاوي" من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

ومرت سنوات طويلة.

ورحل "جمال عبد الناصر"، وصار الشخص الذي كان يجلس معهم في المقهى سيادة الرئيس محمد أنور السادات!




ISBN 978-977-6605-22-0
9 789776 605220
دلتا للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف